النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي

رُكوبُ التيّار








تمهيد

-١-

في كل نادٍ شخصٌ مُملٌ ثقيلُ الظل، ولم يكن نادي كورنيشن استثناءً من هذه القاعدة، ولم تجدِ في تغيير المسار اليومي المعتاد حقيقةُ أن غارة جوية كانت تُشن في تلك الأثناء.

طوى الميجر بورتر، الضابط السابق في جيش الهند، صحيفته وتنحنح استعداداً للكلام. تجنب الجميع نظراته، ولكن ذلك لم يُجدِ هو الآخر. قال الميجر: أرى أنهم نشروا إعلان وفاة غوردن كلود في صحيفة التايمز، وقد صيغ الإعلان بطريقة مبهمة بقصد التعتيم طبعاً: «في الخامس من تشرين الأول، نتيجة عمل قام به العدو». لم يُنشر أي عنوان. والحقيقة أن بيته كان قريباً من بيتي الصغير، حيث كان واحداً من تلك البيوت الكبيرة على قمة كامبدن هيل. ولقد أدهشني الأمر -فعلاً- إلى حدٍّ ما، فأنا أحد متطوعي الدفاع المدني كما تعلمون، وكان كلود قد عاد لتوه من الولايات المتحدة؛ إذ كان هناك في مهمة المشتريات الحكومية تلك. وقد تزوج أثناء وجوده هناك بأرملة شابة، شابة يكاد يظنها المرء ابنته، واسمها السيدة أندرهي.

والحقيقة أنني كنت أعرف زوجها الأول في نيجيريا.

سكت الميجر بورتر، ولكن أحداً لم يُظهر أي اهتمام، أو يطلب منه الاستمرار. كان الجميع قد رفعوا الصحف أمام وجوههم عمداً، ولكن ثني الميجر بورتر عن الكلام كان يتطلب إجراء أوقح بكثير من ذلك. كانت لديه -دوماً- قصص طويلة يرويها، وكانت غالبيتها عن أناس لا يعرفهم أحد.

ركز الميجر بورتر نظراته -وهو شارد الذهن- على حذاء جلدي ذي مقدمة مدببة جداً، ذلك النوع من الأحذية التي لم يكن الميجر يستسيغها أبداً، ثم قال: أمر مثير. إنني -كما أسلفت- أحد متطوعي الدفاع المدني. تلك الانفجارات أمرها غريب، لا يعرف المرء ما الذي يمكن أن تفعله؛ فقد دخلت القنبلة في القبو وانفجرت فيه فمزقت السقف، ولكن الطابق الأول لم يصب بسوء تقريباً. وكان في البيت ستة أشخاص، منهم ثلاثة خدم: زوجان وفتاة، بالإضافة إلى غوردن كلود وزوجته وأخيها. كانوا جميعاً في القبو باستثناء أخي الزوجة -وهو أحد عناصر المغاوير السابقين- فقد كان يفضل النوم في غرفة نومه في الطابق الأول، والعجيب أنه نجا بقليل من الرضوض، وقُتل الخدم الثلاثة جميعاً بالانفجار. لا شك أن غوردن كان يملك أكثر من مليون من الجنيهات!

سكت الميجر بورتر ثانية، وصعدت نظراته من الحذاء الجلدي، إلى البنطال المقلّم، إلى المعطف الأسود، ثم إلى الرأس البيضوي، والشاربين الضخمين. إذن فهو أجنبي بالطبع! وهذا يفسر ارتداءه مثل هذا الحذاء. وفكر الميجر قائلاً لنفسه: إلى أين يمضي

هذا النادي؟ ألا نستطيع التخلص من الأجانب حتى هنا!

ولكن هذه السلسلة المنفصلة من الأفكار كانت تجري مع حديثه دون أن تقطعه. ولم تخفف من تحيز الميجر بورتر أبداً حقيقة أن هذا الأجنبي بدا مصغياً بكل اهتمام له، ومضى قائلاً: لا يمكن أن تكون قد تجاوزَت الخامسة والعشرين من عمرها، ومع ذلك أصبحت أرملة للمرة الثانية. أو أن ذلك -على أية حال- هو ما تظنه هي.

سكت منتظراً شيئاً من الفضول أو تعليقاً. ومع أنه لم يحصل على أيٍّ من ذلك، فقد مضى بكل إصرار: الحقيقة أن لديّ آرائي في هذا الأمر. أمر غريب. كنت أعرف -كما أسلفت- زوجها الأول أندرهي. كان رجلاً من الطراز الأول. تزوج هذه الفتاة في كيب تاون حيث كانت مسافرة هناك مع شركة سياحية، وكانت كثيرة التذمر من حظها، جميلة يائسة... إلى آخر ما هنالك. وقد أصغت للسيد أندرهي المسكين وهو يتكلم بحماسة عن مقاطعته وعن روعة الطبيعة الواسعة الفسيحة، فبدأت تبدي إعجابها بذلك، وتشرح رغبتها في «الابتعاد عن كل شيء». حسناً، تزوجته، وابتعدت كما تريد. وقد أحبها المسكين حباً جماً. ولكن الزواج لم ينجح أو تقم له قائمة منذ البداية؛ فقد كرهَتْ المنطقة ذات الطبيعة البدائية، وكانت تحس بالرعب من السكان المحليين، وأصابها ملل قاتل. كانت الحياة التي تحبها هي حياة التردد على المقاهي والمسارح والثرثرة مع الناس، وليس حياة زوجين وحيدين في الغابة. ومع ذلك أحب أن أؤكد لكم أنني لم أقابلها شخصياً أبداً، بل سمعتُ ذلك كله من المسكين أندرهي. لقد أثر فيه ذلك تأثيراً شديداً، ولكنه أقدم على

التصرف النزيه الشريف، إذ أرسلها إلى الوطن ووافق على طلاقها. وقد كان لقائي به بعد ذلك مباشرة. كان مكتئباً منفعلاً يستحوذ عليه ذلك المزاج الذي يضطر المرء معه للكلام. كان رجلاً غريباً بعض الشيء، قديم الطراز في تفكيره، ولم يكن يأبه كثيراً لقضية الطلاق. قال لي: "توجد طرق أخرى لإعطاء المرأة حريتها". فقلت له محذراً: "اسمعني يا صديقي، لا تقم بأي عمل أحمق، فما من امرأة على الأرض تستحق أن تنتحر من أجلها".

قال لي إنه لا يفكر بذلك أبداً، وقال: "ولكني رجل وحيد لا أقارب لي يحزنون علي، فإذا ما وصل إلى الوطن تقرير بوفاتي فإن ذلك سيجعل من روزالين أرملة، وهو الأمر الذي تريده". سألته: "وماذا عنك أنت؟"، فأجابني: "حسناً، ربما رأيتني أظهر باسم إينوك آردن في مكانٍ ما على بعد ألف ميل للبدء بحياة جديدة". حذرته قائلاً: "ربما وجدَتْ روزالين الأمرَ فظيعاً ذات يوم". فأجابني قائلاً: "آه، لا، سألعب اللعبة بإتقان. سيكون روبرت أندرهي ميتاً بالتأكيد".

لم أفكر في الأمر أكثر من ذلك، ولكنني سمعت بعد ستة أشهر أن أندرهي توفي بالحمى هناك في مكان ما من المقاطعة البدائية. كان أصحابه من السكان المحليين جماعة محل ثقة، فعادوا بقصة مفصلة جيداً، وببضع كلمات أخيرة كتبها أندرهي بخط يده يقول فيها إنهم بذلوا ما بوسعهم من أجله، وإنه كان يخشى أنه يحتضر، ويمتدح فيه زعيم القبيلة. وقد كان ذلك الرجل مخلصاً له، شأنه في ذلك شأن الآخرين جميعاً، وكان من شأنهم أن يُقسموا على أي أمر يطلب منهم أندرهي أن يقسموا عليه. وهكذا... هذا هو الوضع.

ربما كان أندرهي دفين التراب هناك وسط أفريقيا الاستوائية، ولكن العكس ممكن أيضاً! فإن لم يكن دفين التراب فربما تلقت السيدة كلود صدمة ذات يوم، وأظن أنها تستحق ذلك. أنا لم أقابلها أبداً، ولكنني أستطيع تمييز رائحة صيادي الثروات! لقد دمّرَت المسكينَ أندرهي تماماً. إنها قصة مثيرة.

نظر الميجر بورتر حوله بشيء من الاكتئاب بحثاً عن شخص يؤيد تأكيده الأخير، ولكنه لم يرَ أمامه سوى نظرتين جامدتين ضجرتين: نظرة الشاب السيد ميلون المُشيحة، ونظرة الانتباه اللبق للسيد هيركيول بوارو. بعد ذلك سمع صوت صحيفة تُطوى، ونهض رجل أشيب الشعر ذو وجه جامد تماماً وخالٍ من أي تعبير. نهض بهدوء عن مقعده قرب الموقد وخرج.

فغر الميجر بورتر فاه، وأطلق الشاب ميلون صفرةً خافتة وقال: ها قد فعلتها! أتعرف من هذا الرجل؟

قال الميجر بورتر بأسى: يا إلهي، بالطبع. لا أعرفه عن كثب، ولكن سبق وتعارفنا. إنه جيريمي كلود، أليس كذلك؟ شقيق غوردن كلود؟ يا إلهي، يا لسوء الطالع! لو أنني انتبهت...

قاطعه الشاب ميلون قائلاً: إنه محام، وأراهن على أنه سيقاضيك بتهمة القدح والذم أو تشويه السمعة.

كان الشاب ميلون يستمتع بإثارة الذعر والجزع في أي مكان لا يمنع «قانون الدفاع الوطني» إثارة تلك المشاعر فيه. أما الميجر بورتر فقد مضى يردد عبارته بعصبية: مؤسف جداً، مؤسف جداً.

- سينتشر الخبر في ورمزلي هيث مساء اليوم، حيث تقطن عائلة كلود، وسيسهرون في مناقشة الإجراء الذي سيتخذونه ضدك.

ولكن في تلك اللحظة سُمعت صافرة الإنذار إيذاناً بانتهاء الغارة، وتوقف الشاب ميلون عن ممارسة مكره، وقاد -بلطفٍ- صديقه هيركيول بوارو ليخرجا معاً إلى الشارع.

علق ميلون قائلاً: جوٌ قطيع في هذه النوادي. أبغض ما خلقه الله من العجائز المملين، على أن بورتر هو الأسوأ بلا منازع. إنه يقضي ساعة كاملة واصفاً احتفال تسلق الهنود المزعوم لحبال في الهواء، ويزعم معرفةَ جميعِ من مرت أمهاتهم يوماً في مقاطعة بونا الهندية!

* * *

كان ذلك في خريف عام ١٩٤٤. وفي نهاية ربيع عام ١٩٤٦ استقبل هيركيول بوارو زائراً في مكتبه.

* * *

-٢-

ذات صباح جميل في يومٍ من أيام شهر أيار كان هيركيول بوارو جالساً على طاولته المرتبة حين اقترب منه خادمه جورج وتمتم باحترام: سيدة تطلب مقابلتك يا سيدي.

سأله بوارو بحرص: أي نوع من السيدات هي؟

كان يجد دوماً متعة في وصف جورج التفصيلي الدقيق.

- عمرها بين الأربعين والخمسين كما أظن، غير مرتبة وفي مظهرها شيء فنّي ما. ذات حذاء يصلح للسير، ومعطف صوفي وتنورة فوقها قميص، مع بعض عقود الخرز التي يُشَك في أنها مصرية، ووشاح من الشيفون الأزرق.

ارتعد بوارو قليلاً وقال: لا أظنني أرغب في رؤيتها.

- أأقول لها يا سيدي إنك متوعك قليلاً؟

نظر إليه بوارو متأملاً وقال: ولكني أظنكَ قلتَ لها أصلاً إنني مشغول بعمل مهم ولا أريد إزعاج أحد؟

تنحنح جورج وقال: لقد قالت -يا سيدي- إنها جاءت من الريف خصيصاً، وإنها لا تمانع في انتظارك مهما طال ذلك.

تنهد بوارو وقال: لا ينبغي للمرء أن يصارع قدراً محتوماً. فإذا ما جاءت سيدة في منتصف عمرها، تلبس عقد خرز مصري زائف، وعزمت أمرها على مقابلة هيركيول بوارو الشهير، وقطعت الطريق من الريف من أجل ذلك، فإن شيئاً لن يثنيها عن عزمها. ستبقى جالسة هناك في الصالة حتى تنال مطلبها. أدخلها يا جورج.

تراجع جورج، وسرعان ما عاد ليعلن رسمياً: السيدة كلود.

دخلت المرأة بمعطفها الصوفي الذي أبلاه طول الاستخدام ووشاحها الطليق وقد انفرجت أساريرها. تقدمت من بوارو بيد ممدودة، وعقودها الخرزية تتأرجح وتَصِلّ: سيد بوارو، لقد جئتك مدفوعة بهَدْيٍ روحي.

رفرف بوارو بجفنيه قليلاً وقال: أهلاً يا سيدتي. هل لك أن تجلسي وتخبريني...

ولكنها لم تتركه يكمل: هدي روحي بكلا الطريقتين يا سيد بوارو: بالكتابة الآلية وأيضاً باستخدام لوح الأحرف الذي يستخدم في جلسات التحضير. كان ذلك في الليلة قبل الفائتة. كنت أنا والسيدة إيلفاري -وهي سيدة رائعة- نستخدم لوح الأحرف في جلسة لتحضير الأرواح، وقد وقع اختيار الروح على نفس الأحرف الأولى في كل مرة: «هـ. ب.»، «هـ. ب.»، «هـ. ب.». لم أفهم المغزى الحقيقي فوراً بالطبع؛ فالأمر يتطلب بعض الوقت كما تعلم. لا يستطيع المرء في هذه الدنيا الزائلة أن يرى بوضوح. لقد عصرت ذهني بحثاً عن شخص تنطبق عليه هذه الأحرف الأولى. كنت أعرف أن ذلك مرتبط -لا شك- بجلسة التحضير السابقة... التي كانت حقاً مثيرة جداً،

ولكنني لم أهتدِ إلى الحقيقة إلا بعد مرور بعض الوقت. وبعدها اشتريت نسخة من مجلة بيكتشر بوست (وفي ذلك هدي روحي كما ترى، لأنني أشتري عادة مجلة نيوستيتسمان). وهناك وجدتك، كان في المجلة صورة لك، وشرح، وتقرير عن إنجازاتك. إنه لمن الغريب كيف أن لكل شيء غاية، ألا تتفق معي يا سيد بوارو؟ من الواضح أنك الشخص الذي عينته «الهداية» ليحل هذه القضية.

أجال بوارو نظره في المرأة متأملاً. كان الغريب أن الأمر الذي لفت انتباهه حقاً هو عيناها الزرقاوان الفاتحتان اللتان توحيان بفطنة وذكاء كبيرين. أحس كما لو أن عينيها تضفيان «هدفاً» على طريقتها وأسلوبها المشتت غير المتجانس.

- وماذا يمكنني يا سيدة... كلود أليس كذلك؟

ثم قطب جبينه وقال: أظنني سمعت بهذا الاسم منذ زمن.

هزت رأسها تأييداً بكل حماسة وقالت: إنه أخو زوجي، المسكين... غوردن. كان غنياً جداً وكثيراً ما تذكره الصحف، وقد قُتل في الغارات الجوية الألمانية قبل أكثر من عام. وكانت تلك ضربة كبرى لنا جميعاً. إن زوجي هو أخوه الأصغر، وهو طبيب؛ الدكتور ليونيل كلود.

ثم أضافت وهي تخفض صوتها: هو لا يعرف -طبعاً- أنني جئت لاستشارتك؛ إذ ما كان ليقبل ذلك. لقد وجدت أن للأطباء نظرة مادية. تبدو الأمور الروحية خافية عليهم بشكل غريب، فهم يؤمنون بالعلم. ولكني أقول: ما هو العلم؟ ماذا بوسعه أن يفعل؟

بدا لهيركيول بوارو أنه ما من إجابة على سؤالها الأخير غير الدخول في وصف تفصيلي مُضنٍ يشمل فيما يشمل باستور وليستر، ومصباح الأمان الذي اخترعه همفري ديفي والراحة التي تكفلها الكهرباء في البيوت، وبضع مئات أخرى من المخترعات المماثلة. ولكن ذلك لم يكن -بالطبع- الجواب الذي تريده السيدة كلود. فالحقيقة أن سؤالها -ككثير من الأسئلة غيره- لم يكن سؤالاً أبداً. كان مجرد عبارة بيانية. ولذلك أقنع هيركيول بوارو نفسه بالاكتفاء بسؤالها بشكل عملي: بأية طريقة تظنين أنني أستطيع خدمتك يا سيدة كلود؟

- هل تؤمن بحقيقة عالم الأرواح يا سيد بوارو؟

أجابها بوارو بحذر: أنا لا أنكر...

لوّحت السيدة كلود بيدها وعلى وجهها ابتسامة شفقة وهي تقول: كثير من الناس مساكين حمقى... لا يفتحون صدورهم لحقيقة العالم الكامن خلف عالمنا هذا وجماله.

- إن لديّ موعداً مهماً في الساعة الثانية عشرة.

كانت ملاحظة بوارو جيدة التوقيت، فقد انحنت السيدة كلود للأمام وقالت: عليّ أن أدخل في الموضوع مباشرة. هل من الممكن يا سيد بوارو أن تعثر على شخص مفقود؟

رفع بوارو حاجبيه وأجابها بحذر: نعم من الممكن. ولكن الشرطة -يا سيدتي العزيزة- يستطيعون أن يفعلوا الكثير وبسهولة أكبر بكثير مني، فلديهم كل الجهاز المطلوب لذلك.

نحّت السيدة كلود جانباً الشرطة بإشارة من يدها كما فعلت من قبل، وقالت: كلا يا سيد بوارو، فإليك تمت هدايتي... من قبل أولئك الساكنين خلف الحجاب. اسمعني الآن: لقد تزوج أخو زوجي، غوردن، قبل بضعة أسابيع من وفاته بأرملة شابة، اسمها السيدة أندرهي. أما زوجها الأول (ويا لحزن تلك الطفلة المسكينة) فقد ذُكر أنه توفي في أفريقيا. بلد غامض، أفريقيا تلك!

صحّح بوارو لها: بل قارة غامضة. في أي جزء منها...

قاطعته قائلة: أفريقيا الوسطى. بلاد سحر الفودو، وإعادة الحياة إلى الموتى...

- ولكنهم يزعمون أن ذلك يحدث في جزر الهند الغربية!

مضت السيدة كلود قائلة: بلد السحر الأسود، والممارسات الغريبة السرية، بلد يمكن للمرء فيه أن يختفي فلا يُسمع به من بعد.

- ربما، ربما. ولكن الأمر نفسه ينطبق أيضاً على «سيرك بيكاديللي».

نحّت السيدة كلود جانباً سيرك بيكاديللي بإشارة من يدها وقالت: لقد وصل اتصالٌ مرتين مؤخراً من روحٍ لميتٍ عرّف نفسه باسم روبرت، كانت الرسالة واحدة في الحالتين: «ليس ميتاً»... ولقد أصابتنا الحيرة، إذ لم تكن نعرف أحداً باسم روبرت. وعندما سألنا عن هدي إضافي حصلنا على ما يلي: «ر.أ.»، «ر.أ.»، «ر.أ.»، ثم: «أخبروا ر، أخبروا ر». سألناه: "أنخبر روبرت؟" فقال: "لا، مِنْ روبرت، ر أ". سألناه: "إلامَ يرمز الحرف أ؟". وهنا -يا سيد بوارو-

جاء أكثر الأجوبة مغزى: "الصبي الصغير الأزرق، الصبي الصغير الأزرق. هاهاها". هل فهمت؟

- لا؛ لم أفهم.

نظرت إليه بإشفاق وقالت: أغنية الأطفال التي تُغنى لهم عند النوم. «الصبي الصغير الأزرق، سرعان ما غفا، أندر هيكوك»... خذ مقطعاً من كل من آخر كلمتين فتصبح «أندرهي». أفهمت؟

هز بوارو رأسه بالإيجاب، ولكنه أحجم عن طرح سؤال جال في خاطره، فإذا كان بالإمكان النطق باسم روبرت، فلماذا لا ينطبق ذلك على اسم «أندرهي» ولِمَ اللجوء إلى مثل هذه الحيل الجاسوسية الرخيصة؟

وأخيراً اختتمت السيدة كلود حديثها بلهجة المنتصر قائلة: إن اسم زوجة غوردن هو روزالين، أرأيت؟ إن أحرف الراء هذه أربكتنا، ولكن المعنى واضح تماماً: «أخبروا روزالين أن روبرت أندرهي ليس ميتاً».

- أها! وهل أخبرتموها؟

بدا وكأن السيدة كلود قد فوجئت بهذا السؤال وقالت: آه، حسناً، لم نخبرها. أترى... أعني أن الناس شكاكون جداً عادة. وأنا واثقة أن روزالين سترتاب بالأمر، كما أن ذلك قد يزعجها، تلك الطفلة المسكينة، إذ ستتساءل أين كان وماذا كان يفعل.

- نعم، ماذا كان يفعل بالإضافة إلى بَثّ صوته على موجات الأثير؟ صحيح. إنها -بالتأكيد- طريقة غريبة لإعلان سلامته.

- آه يا سيد بوارو، إنك لست غراً. كيف لنا أن نعرف طبيعة الظروف؟ ربما كان النقيب المسكين أندرهي... أم أنه كان رائداً؟ ربما كان مسجوناً في مكان ما في ظلمة مجاهل أفريقيا. ولكن إن كان بالإمكان العثور عليه -يا سيد بوارو- وإعادته إلى عزيزته الشابة روزالين فلَكَ أن تتخيل سعادتها! آه يا سيد بوارو، لقد تم إرسالي إليك، ومن المؤكد أنك لن ترفض طلب عالم الروح.

نظر إليها متأملاً وقال برفق: إن أجوري مرتفعة جداً، بل هي مرتفعة بشكل هائل! كما أن المهمة التي تقترحينها ليست سهلة.

- آه يا عزيزي! ذلك مؤسف جداً بالتأكيد؛ فأنا وزوجي في حالة مادية سيئة للغاية، سيئة جداً في الواقع، وإن بلواي -في الواقع- لأسوأ مما يعرفه زوجي العزيز. لقد اشتريت بعض الأسهم -بناء على هَدي روحي- وقد أثبتت العملية حتى الآن أنها مخيبة للآمال، بل مقلقة جداً في الواقع. فقد هبطت أسعار تلك الأسهم إلى الحضيض، وهي الآن -كما فهمت- لا تلقى من يتعامل بها.

نظرت إليه بعينين زرقاوين جزعتين، ثم أكملت: لم أجرؤ على إخبار زوجي. وأنا أقول ذلك لك أنت لمجرد شرح موقفي الحالي. ولكن -يا سيد بوارو العزيز- من المؤكد أنّ لمّ شمل زوجين شابين يعتبر... «مهمة نبيلة».

قاطعها بوارو قائلاً: إن النبلَ يا سيدتي العزيزة لن يدفع أجور البواخر والقطارات والطائرات، ولن يغطي تكاليف البرقيات المطولة، واستجواب الشهود.

- ولكن إن تم العثور عليه، إن تم العثور على النقيب أندرهي حياً وبصحة جيدة... عندها... حسناً. أظنني أستطيع أن أعدك أنه بمجرد تحقيق ذلك فسوف، فسوف لن تبقى مشكلة في... في تعويضك.

- آه، فهو غني إذن... هذا النقيب أندرهي؟

- لا، لا. ولكنني أؤكد لك وأعطيك عهدي بأن... بأن الوضع المالي لن يشكل أية صعوبات.

هز بوارو رأسه بالرفض متمهلاً وقال: إنني آسف يا سيدتي. جوابي هو: «لا».

وجد شيئاً من الصعوبة في حملها على تقبل ذلك الجواب. وعندما غادرت أخيراً، وقف مقطباً جبينه مشتت الأفكار. تذكّر الآن لماذا كان اسم كلود مألوفاً لديه. عاد إلى ذهنه الحديث الذي سمعه في النادي يوم الغارة الجوية، وصوت الميجر بورتر الهادر الممل وهو يمضي ويمضي في سرد قصة لم يُرِد أحد سماعها.

تذكر خشخشة إحدى الصحف، وكيف فغر الميجر بورتر فاه فجأة، وتعبير الذعر والأسى على وجهه. ولكن ما أقلقه هو محاولته تكوين رأي محدد بشأن هذه السيدة الكهلة المتلهفة التي غادرت مكتبه لتوها. بماذا توحي تلك اللغة الروحانية المهذارة، وذلك الغموض، والوشاحات الطليقة الطائفة، والسلاسل والتمائم التي تخشخش حول عنقها... وأخيراً -وباختلافٍ طفيف عن ذلك كله- تلك الالتماعة الذكية المفاجئة في عينين زرقاوين باهتتين.

نظر إلى البطاقة التي تركتها المرأة على المكتب وقرأ: «ورمزلي فيل». قال مخاطبا نفسه: لماذا -بالضبط- جاءت إليّ؟ وما الذي كان يجري؟ ليتني أعرف!

* * *

بعد خمسة أيام رأى فقرة صغيرة في صحيفة مسائية. كانت تشير إلى وفاة رجل يُدعى «إينوك آردن» في «ورمزلي فيل»، وهي قرية صغيرة قديمة على بعد نحو ثلاثة أميال من ملعب غولف ورمزلي الشهير.

حدّث هيركيول بوارو نفسه ثانية: عجباً، ما الذي كان يجري في ورمزلي فيل؟!

* * *

الكتاب الأوّل

الفصل الأول

تتألف منطقة وزمزلي هيث من ملعب للغولف، وفندقين، وبعض الدارات الحديثة الفاخرة المطلة على ملعب الغولف، بالإضافة إلى صف من المحلات التي كانت قبل الحرب محلات فاخرة، ومحطة قطار. ومن محطة القطار يخرج إلى اليسار طريق رئيسي يفضي إلى لندن، وإلى اليمين يخرج طريق ترابي صغير مخترقاً أحد الحقول، وقد رُفعت عليه شاخصة تقول «طريق إلى ورمزلي فيل».

أما ورمزلي فيل المرمية بين هضاب حرجية فقد كانت أبعد ما تكون شبهاً بورمزلي هيث، فهي -في جوهرها- بلدة صغيرة جداً بُنيت لتكون سوقاً على الطراز القديم، وتدهورت أحوالها الآن لتصبح مجرد قرية ذات شارع رئيسي واحد تحيط به بيوت من الزمن والطراز الجورجي، وبضع مقاهٍ، وبعضُ محلات قديمة الطراز، ويعطي شكلها العام انطباعاً بأنها تبعد عن لندن مئة وخمسين ميلاً، وليس ثمانية وعشرين ميلاً كما هو الحال. أما سكانها فيتفقون جميعا على ازدراء النمو السريع الذي تشهده ورمزلي هيث.

وفي أطراف القرية توجد بعض البيوت الرائعة ذات الحدائق

الجميلة التي تعود للعالم القديم، وقد كان أحد تلك البيوت -واسمه «وايت هاوس» (أي: البيت الأبيض)- هو الذي عادت إليه لين مارتشمونت في مطلع ربيع عام ١٩٤٦ عندما تم تسريحها من سلاح البحرية الملكي.

وفي ثالث صباح لها هناك، نظرت من نافذة غرفة نومها عبر المرجة العشبية غير المنظمة إلى أشجار الدردار في الأرض الخضراء، وتنشقت الهواء بسعادة. فقد كان صباحاً لطيفاً غائماً يعبق برائحة الأرض المبتلة، تلك الرائحة التي افتقدتها طوال السنوات الثلاث الماضية.

ما أروع أن تكون في بلدها من جديد، ما أروع أن تكون هنا في غرفة نومها الصغيرة التي طالما فكرت بها بكل حنين عندما كانت في المناطق النائية وراء البحار. ما أروع أن تنزع أخيراً زي خدمتها في البحرية، وتتمكن من ارتداء كنزة وتنورة صوفية حتى وإن كانت حشرات العث قد فعلت فيهما فعلها بكل نشاط خلال سنوات الحرب!

كان من الخير لها أنها خرجت من سلاح البحرية وعادت امرأة حرة من جديد، مع أنها قد استمتعت -حقاً- إلى أبعد مدى في خدمتها فيما وراء البحار. كان عملها مثيراً إلى حد لا بأس به؛ فقد حفل بتسلية جمة، ولكن كانت فيه أيضاً مزعجات الروتين، وإحساسها بأنها وزملاءها وزميلاتها يُعامَلون جميعاً مثل قطيع... ذلك الإحساس الذي جعلها تشعر برغبة جامحة في الخلاص. وفي ذلك الوقت والظرف، خلال ذلك الصيف اللاهب في الشرق،

أخذت تفكر -بكل ذلك الشوق والحنين- بورمزلي فيل، وبالبيت القديم البارد الجميل، وبأمها الغالية.

كانت لين تحب أمها وتنزعج منها في آن معاً. وعندما كانت -هناك- بعيدة عن الوطن، بقيت على حبها لها ونسيت الإزعاج، أو أنها لم تتذكره إلا مع وخزة حنينٍ إضافية للوطن. يا للأم الغالية، إنها بالغة الروعة! كانت مستعدة لبذل أي شيء مقابل سماع أمها وهي تطلق إحدى عباراتها المكرورة بصوتها الشاكي العذب. آه، ما أجمل العودة للوطن، وعدم مغادرته ثانية أبداً أبداً!

ها هي ذي الآن، خارج الخدمة، حرة، تقف ثانية في بيتها. لقد مضت على عودتها ثلاثة أيام، ومع ذلك فإن شعوراً غريباً بالتململ وعدم الرّضا قد بدأ يتسلل إلى نفسها. كان كل شيء كعهده، كعهده تماماً: البيت، والوالدة، وراولي، والمزرعة، والأسرة. أما ما كان مختلفاً -وما كان ينبغي له أن يختلف- فقد كان هي نفسها...

تناهت إليها صيحة أمها، السيدة مارتشمونت، من أسفل الدرج قائلة: حبيبتي، هل أُحضر لطفلتي إفطاراً رائعاً على السرير؟

صاحت لين بصوت عال: "كلا بالطبع، إنني نازلة". وفكّرت: ولماذا تضطر أمي لقول: «طفلتي»؟ إنه تعبير سخيف جداً.

نزلت الدرج مسرعةً ودخلت غرفة الطعام. لم يكن الإفطار متميزاً، وكانت لين قد بدأت تدرك ما يتطلبه البحث عن الطعام من وقت واهتمام أكثر من المعتاد ومن الطبيعي. لقد كانت السيدة مارتشمونت وحيدة في البيت باستثناء امرأة لا يمكن الركون إليها،

تأتي صباحاً أربعة أيام في كل أسبوع. وفيما عدا ذلك كانت السيدة مارتشمونت تجاهد في الطبخ والتنظيف. لقد كانت في الأربعين من عمرها تقريباً عندما أنجبت لين، ولم تكن صحتها جيدة. كما لاحظت لين -بشيء من الأسى- كيف تغيرت أوضاع الأسرة المالية. فالدخل الثابت الكافي -على قلّته- الذي مكّنهم من الاستمرار في العيش المريح قبل الحرب كاد يتضاءل الآن إلى النصف بسبب الضرائب، فيما ارتفعت كل التكاليف والأجور.

حدّثت لين نفسها باكتئاب قائلة: آه! العالم الجديد الجريء.

ثم وقعت عيناها على أعمدة الصحيفة اليومية، فقرأت: «عضوة سابقة في سلاح الجو الملكي تبحث عن عمل يُقدِّر روح المبادرة والحماسة»، «عضوة سابقة في سلاح البحرية الملكي تبحث عن وظيفة تتطلب قدرة تنظيمية وتحملاً للمسؤولية».

الجرأة، المبادرة، القيادة... تلك هي السلع المعروضة، ولكن ما هي السلع المطلوبة؟ المطلوب هو أناس يطبخون وينظفون، أناس يتقنون الاختزال بصورة صحيحة، أناس مثابرون يعرفون مجريات العمل المتبعة ويستطيعون تقديم خدمة جيدة.

حسناً، إن ذلك لا يؤثر فيها، فطريقها واضح أمامها: الزواج بابن خالها راولي كلود؛ فهو قد خطبها منذ سبع سنوات، قبل اندلاع الحرب تماماً. وبقدر ما تتذكر، فقد كانت دوماً تعتزم الزواج براولي، وقد وافقت بسرعة على اختياره لحياة الزراعة، فهي حياة جيدة.

صحيحٌ أنها قد لا تكون حياة مثيرة، وأنها مليئة بالعمل الشاق،

ولكن الاثنين كانا يحبان العمل في الهواء الطلق، وتربية الحيوانات. وهذا لا يعني أن تطلعاتهما هي الآن كما كانت من قبل، فقد كان الخال غوردن دائماً يَعِد...

قطع حبل أفكارها صوت والدتها الكئيب: لقد كانت وفاته ضربة موجعة جداً لنا جميعاً يا عزيزتي لين، كما كتبتُ لك. لم يكن قد مرّ على وصول غوردن إلى إنكلترا سوى يومين فقط، حتى إننا لم نره! لو أنه لم يبقَ في لندن، لو أنه حضر مباشرة إلى هنا.

- نعم، لو...

هناك، بعيداً عن الوطن، كانت لين قد صُعقت وحزنت لخبر وفاة خالها، ولكنها لم تبدأ بإدراك المغزى الحقيقي لوفاته إلاّ الآن. كان غوردن كلود يتحكم بحياتها، وحياة الآخرين جميعاً، طوال السنوات التي تعيها ذاكرتُها؛ فذلك الرجل الغني (الذي لم يكن له أولاد) ضم كل أقاربه تحت جناحه تماماً.

وحتى راولي... كان راولي وصديقه جوني فافاسور قد بدأ شراكة بينهما في مزرعة. وكان رأس مالهما قليلاً، ولكنهما كانا مُفعمين بالأمل والنشاط. وكان غوردن كلود محبذاً للفكرة، وقد أفضى لهما بما هو أكثر من ذلك، إذ قال: "لا يمكن للمرء أن ينجح في الزراعة دون رأس مال. إن أول ما ينبغي اكتشافه هو مدى امتلاك هذين الشابين حقاً للإرادة والنشاط الضروريين لانطلاقة العمل، فإن أنا دعمتهما الآن فلن أستطيع اكتشاف ذلك قبل مرور سنوات، ولكن إن كان لديهما الخامة الجيدة، واقتنعتُ بأنهما يبذلان -من طرفهما- الجهد المطلوب، فعندها -يا لين- لا تقلقي بشأنهما؛

فسأموّلهما بالمال الكافي. ولذلك لا تتشاءمي من آفاق مستقبلك يا فتاتي؛ إنك الزوجة التي يحتاجها راولي تماماً، ولكن احفظي ما أخبرتك به طي الكتمان".

حسناً، لقد أبقت الأمر سراً، ولكن راولي نفسه أحس باهتمام خاله، وكان عليه أن يثبت له أنه وشريكه يشكلان عملاً ناجحاً.

نعم، لقد اعتمدوا جميعاً على غوردن كلود. وهذا لا يعني أن أحداً من أفراد العائلة كان يتصف بالطفيلية أو الكسل، فقد كان جيريمي كلود شريكاً أساسياً في شركة للمحاماة، وكان ليونيل كلود طبيباً ممارساً. ولكن الاطمئنان المالي كان يقف في خلفية حياتهم العملية اليومية، ولم تكن ثمة حاجة أبداً للتقتير أو التوفير؛ إذ كان المستقبل مضموناً، وكان من شأن غوردن كلود الأرمل الذي لا عقب له أن يهتم بذلك، وقد أخبرهم جميعاً -ولأكثر من مرة- بأن الأمر على هذا النحو.

كانت أخته الأرملة، أديلا مارتشمونت، قد بقيت مقيمة في منزل وايت هاوس رغم أنها كانت تستطيع الانتقال إلى بيت أصغر وأوفر عناء، كما تلقت لين تعليمها في أفضل مدارس الدرجة الأولى، ولو أن الحرب لم تندلع لكانت قادرة على اختيار أي تخصص ترغبه مهما بلغت تكاليفه، فقد كانت شيكات الخال غوردن تترى بانتظام مريح لتكفل الوفاء بمتطلبات المتع الصغيرة والحياة المترفة. كان كل شيء محلولاً تماماً، مضموناً تماماً. وفجأة جاء زواج غوردن كلود غير المتوقع على الإطلاق.

تابعت أديلا مارتشمونت حديثها قائلة: لقد صُعِقنا جميعاً

بالطبع، فلئن بدا شيء أكيداً تماماً، فقد كان ذلك الشيء هو عدم إقدام غوردن على الزواج ثانية أبداً. لم يكن الأمر ناتجاً عن أي نقص لديه في العلاقات والروابط الأسرية.

ورأت لين أنه كانت توجد بالفعل الكثير من الروابط الأسرية، ألم تكن تلك الروابط أحياناً أكثر من الحد الطبيعي؟

تابعت السيدة مارتشمونت حديثها: كان دوماً في غاية اللطف، رغم أن ذلك كان يشوبه قدر ضئيل جداً من الطغيان. لم يكن يحب أبداً عادة تناول الطعام على مائدة عارية، بل كان يصر دوماً على ضرورة تمسكي بتلك العادة القديمة في تغطية المائدة بمفارش خاصة، بل إنه أرسل لي مرة مفارش جميلة جداً من صنع البندقية عندما كان في إيطاليا.

قالت لين ببساطة: ولقد كانت مطاوعة رغباته أمراً مجزياً بالتأكيد. ثم أضافت بشيء من الفضول: كيف التقى بهذه الـ... الزوجة الثانية؟ لم تخبريني بذلك في رسائلك.

- في قاربٍ ما أو على متن طائرة أو شيء كهذا خلال بعض أسفاره. بعد كل تلك السنين، وبعد كل تلك السكرتيرات والطابعات ومدبرات المنازل وغيرهن!

ابتسمت لين، فبقدر ما تعيه ذاكرتها كانت سكرتيرات غوردن كلود ومدبرات منزله وموظفات مكتبه عرضة للمراقبة الدقيقة والشكوك.

أضافت بفضول: هل كانت جميلة؟

- حسناً يا عزيزتي، أنا شخصياً أظن أنها ذات وجه سخيف.

- أنتِ لستِ رجلاً يا أمي!

- ولقد أُصيبت المسكينة طبعاً في الغارة، وصدمت ومرضت مرضاً بالغ الشدة بعدها، ورأيي أنها لم تتعافَ أبداً منذ ذلك الحين. إنها كتلة أعصاب متوترة، إن كنتِ تدركين ما أعنيه. وهي تبدو -فعلاً- بنصف عقل في بعض الأوقات. لا أشعر أنه كان بإمكانها أن تكون رفيقة مناسبة لغوردن المسكين.

ابتسمت لين، إذ راودها الشك في أن يكون غوردن كلود قد اختار الزواج بامرأة تصغره سنين عديدة بدافع رفقتها العقلية والفكرية.

خفضت السيدة مارتشمونت صوتها وقالت: ثم إنها يا عزيزتي، وأنا أكره قول ذلك، ولكنها ليست «سيّدة»!

- يا لهذا التعبير يا أمي! وما أهمية ذلك في هذه الأيام؟

- ما تزال للأمر أهمية في الريف يا عزيزتي. إنني أعني أنها ليست بالضبط واحدة منا!

- يا للشقية المسكينة!

- لا أعرف حقاً ما الذي تعنيه يا لين. لقد كنا جميعاً حريصين جداً على أن نكون لطفاء ومهذبين، وعلى الترحيب بها بيننا، وذلك من أجل غوردن.

سألت لين بفضول: أهي في منزل «فوروبانك» إذن؟

- نعم، بالطبع. وهل كان لديها مكان آخر تقصده بعد خروجها

من المستشفى؟ لقد نصح الأطباء بعدم بقائها في لندن. إنها في فوروبانك مع أخيها.

- وما حال أخيها هذا؟

- شاب فظيع.

سكتت السيدة مارتشمونت لحظة، ثم أضافت بكثير من التركيز: إنه وقح.

عبرت عقل لين موجة مؤقتة من التعاطف، وطافت في ذهنها الأفكار: "أراهن أنني سأكون وقحة لو كنت مكانه!"، ثم سألت أمها: ما اسمه؟

- ديفيد هنتر، وأظنه أيرلندياً. إنهما -بالطبع- لا ينتميان إلى عائلة معروفة. كانت هي أرملة، واسم زوجها السابق أندرهي. لا أريد التجني، ولكن المرء لا يملك إلا أن يسأل نفسه: "أية أرملة تلك التي تسافر متجولة عبر أمريكا الجنوبية وقت الحرب؟". لا يملك المرء إلا الشعور بأنها كانت تبحث عن زوج غني.

- وفي هذه الحالة لم يذهب بحثها عبثاً!

تنهدت السيدة مارتشمونت وقالت: يبدو الأمر غريباً جداً. لقد كان غوردن دوماً رجلاً بالغ الذكاء، رغم أن النساء لم يقصرن في محاولة استمالته. تلك السكرتيرة قبل الأخيرة مثلاً... كانت بالفعل سمجة تماماً. أظن أنها كانت عالية الكفاءة، ولكنه اضطر إلى التخلص منها.

علقت لين بغموض: أحسب أن لكل امرئ معركة يخسرها.

- الثانية والستون! إنه سن بالغ الخطورة، كما أحسب أن الحرب تُفقِد المرء استقراره وهدوءه، ولكني لا أستطيع أن أصف لك الصدمة عندما تلقينا رسالته من نيويورك.

- ما الذي قاله فيها بالضبط؟

- كتب إلى فرانسيس، ولا أدري حقاً لماذا اختارها. ربما تخيل أنها -بحكم تربيتها- ستكون أكثر تعاطفاً وتفهماً له. قال إننا ربما سنُفاجأ بسماع خبر زواجه، وإن الأمر كله حدث بشكل مفاجئ بعض الشيء، ولكنه واثق بأننا جميعاً سنحب روزالين (وهو اسم مسرحي جداً، أليس كذلك يا عزيزتي؟ أعني أنه يبدو اسماً زائفاً بعض الشيء). قال إنها عاشت حياة تَعِسة جداً، وعانت الكثير رغم أنها شابة صغيرة، وإنها واجهت الحياة بشجاعة رائعة حقاً.

- حيلة معروفة تماماً.

- آه، أعرف ذلك. أتفق معك، فلقد سمعتُ مثل هذه الديباجات كثيراً جداً، ولكن كان من شأن المرء أن يظن بأن غوردن تحديداً، بكل خبرته... ولكن، مع ذلك، هذا ما حدث. إن لها عينين واسعتين جداً، غامقتي الزرقة، غامقتي الزرقة تماماً.

- أهي جميلة؟

- آه، نعم. ربما كانت كذلك، ولكن جمالها ليس من النوع الذي يعجبني أنا.

علقت لين بابتسامة كئيبة: أنت لا يعجبك أي جمال!

- نعم يا عزيزتي. ولكن يا للرجال! لا يمكن التنبؤ بتقلبات الرجال، حتى أكثرهم اتزاناً يقدمون على ارتكاب أفظع الحماقات! وقد مضى غوردن ليؤكد في رسالته أنه لا ينبغي أن يخطر ببالنا -للحظة واحدة- أن زواجه سيعني تخفيفاً من الروابط والوشائج القديمة، وأكد أنه ما زال يعتبرنا جميعاً مسؤوليته الخاصة.

- ولكنه لم يكتب وصية بعد زواجه، أليس كذلك؟

- آخر وصية كتبها كانت عام ١٩٤٠. لا أعرف تفصيلاتها، ولكنه أفهمنا بأنها قد اهتمت بنا جميعاً في حالة حدوث مكروه له. لقد أبطل زواجه تلك الوصية بالطبع. ولعله كان سيكتب وصية جديدة عند عودته إلى الوطن، ولكن لم يُتح له الوقت لذلك، فقد قُتل -عملياً- في اليوم التالي لوصوله إلى البلاد.

- وهكذا فإن روزالين تحصل على كل شيء، أليس كذلك؟

- بلى، لقد أبطل زواجه الوصية القديمة.

ظلت لين صامتة؛ فهي لم تكن أكثر حباً للمال من أغلب الناس، ولكنها لم تكن لتملك طبيعة البشر لو لم تغضب من الحالة الجديدة. لقد شعرت بأن غوردن كلود لم يكن ليتخيل أو يقبل مثل هذه الحالة. ربما كان من شأنه أن يترك معظم ثروته لزوجته الشابة، ولكن كان من شأنه أيضاً أن يترك حصصاً معينة بالتأكيد للعائلة التي شجعها على الاعتماد عليه. فلطالما شجعهم مراراً وتكراراً على عدم التوفير وعدم ادخار شيء للمستقبل. لقد سمعَتْهُ يقول لجيريمي: "ستكون رجلاً ثرياً عندما أموت". ولطالما قال لأمها: "لا تقلقي يا أديلا؛ ستكون لين دوماً محل رعايتي وأنت تعرفين ذلك، وإنني

لأكره أن تتركي هذا المنزل، فهو بيتك. أرسلي إليّ كل إيصالات الترميم". ولقد شجع راولي على امتهان الزراعة، كما أصرّ على التحاق أنطوني، ابن جيريمي، بالحرس الملكي، وكان يخصص له دوماً مخصصات سخية. وقد شجع ليونيل كلود على اتباع مسارات معينة في البحوث الطبية لم تكن تدر أرباحاً فورية، وعلى إهمال ممارسة الطب.

ولكن تسلسل أفكار لين انقطع، فقد أخرجت أمّها -على نحو مؤثر- مجموعة من الإيصالات وقالت وشفاهها ترتجف: انظري إلى هذه الإيصالات. ماذا عساي أفعل؟ ماذا عساي أفعل بالله عليك يا لين؟ لقد أرسل لي مدير المصرف ملاحظة صباح اليوم بأنني سحبت من الأموال ما لا يفي حسابي به. لا أستطيع أن أرى مخرجاً. لقد كنت بالغة الحرص، ولكن يبدو أن استثماراتي لم تعد تُدرّ من الدخل ما كانت تدره سابقاً. قال إنها الزيادات في الضرائب، وكل تلك الأوراق الصفراء التي يسمونها: «التأمين ضد أضرار الحرب» أو ما شابه هذا... على المرء أن يدفعها شاء أم أبى.

أخذت لين الإيصالات وألقت نظرة عليها. لم يكن فيها ما يوحي بأي ترف، إذ كانت بتكاليف تبديل الألواح التي تكسو سطح البيت، وإصلاح سياجه، وتبديل مرجل المطبخ الذي أصابه البلى. ولكن مجموع هذه المصاريف بلغ مبلغاً كبيراً.

قالت السيدة مارتشمونت بأسلوب يثير الشفقة: أظن أن عليّ الانتقال من هنا، ولكن إلى أين عساي أذهب؟ ما من منزل صغير هنا أبداً. لا يوجد منزل صغير أبداً. آه، إنني لا أريد إزعاجك بكل

هذه الأمور يا لين، ليس الآن وقد وصلت لتوّك إلى الوطن. ولكني لا أدري ما أفعل، حقاً لا أدري.

نظرت لين إلى أمها التي تجاوزت الستين من عمرها. لم تكن أبداً من تلك النساء القويات جسماً. كانت قد استضافت خلال الحرب مدنيين ممن تم إخلاؤهم من لندن، وكانت تطبخ لهم وتنظف، وعملت مع جمعية «خدمات ضحايا الحرب»، فصنعت المربيات، وساعدت في وجبات التغذية المدرسية. كانت تعمل أربع عشرة ساعة في اليوم، مقابل حياتها الهادئة المُنعَّمة قبل الحرب. رأتها لين الآن على شفا الانهيار، منهكةً وخائفةً من المستقبل.

تسلل غضب بطيء هادئ إلى عقل لين، وقالت بتمهل: ألا تستطيع هذه الـ... روزالين... أن تساعد؟

توردت وجنتا السيدة مارتشمونت وقالت: ليس لنا حق بأي شيء... على الإطلاق.

اعترضت لين قائلة: أظن أن لك حقاً أدبياً؛ فقد كان الخال غوردن يساعدنا دوماً.

هزت أمها رأسها بالرفض وقالت: "لن يكون جميلاً يا عزيزتي أن نطلب إحساناً، ليس من أناس لا نحبهم. وعلى كل حال فإن أخاها ذاك لن يدعها تتخلى عن قرش واحد!". ثم أضافت وقد ظهر في صوتها المكر الأنثوي الخالص: هذا إن كان حقاً أخاها!

* * *

الفصل الثاني

نظرت فرانسيس كلود بتأمل إلى زوجها الجالس قبالتها على طاولة العشاء. كانت في الثامنة والأربعين من عمرها، وهي من أولئك النساء النحيلات اللاتي يناسبهن ارتداء الملابس الصوفية. كان في وجهها شيء من الجمال المتعجرف الذي خلا من الأصباغ، باستثناء القليل من أحمر الشفاه الذي رُسم على شفتيها دون اهتمام. أما جيريمي كلود فقد كان رجلاً نحيلاً أشيب الشعر في الثالثة والستين من عمره، ذا وجه جاف يخلو من التعابير. وقد كان وجهه في هذه الليلة أكثر افتقاراً للتعبير من عادته، وقد أدركت زوجته ذلك بنظرة خاطفة سريعة.

دارت حول الطاولة فتاةٌ في الخامسة عشرة من عمرها لتضع الأطباق. كانت نظرة الفتاة القلقة مركزة على فرانسيس، إذ أن تقطيبة جبينٍ من فرانسيس تكاد تجعلها تُسقِط ما في يدها، ولكن نظرة استحسان جعلت أساريرها تنفرج.

كان يتردد في ورمزلي فيل -بشيء من الحسد- أنه إن كان لأحد أن يتخذ خدماً فإن فرانسيس كلود هي أول من يليق به ذلك. لم تكن تُغري الخدم بالأجور المرتفعة، كما أنها كانت تشدد كثيراً على

الأداء المثالي لخدمها. ولكن استحسانها الرقيق الدافئ لمجهوداتهم، وطاقتها وحماستها اللتين تشعان وتؤثران فيمن حولها، كل ذلك قد جعل من الخدمة في البيت عملاً مبدعاً في أعين خدمها. كانت قد اعتادت طوال حياتها أن يكون لديها من يقوم على خدمتها، إلى الحد الذي جعلها تأخذ الأمر كبديهية مسلم بها، ودون وعي ذاتي منها. كما كان تقديرها لطباخة جيدة أو خادمة قديرة يشبه تماماً تقديرها لعازف بيانو بارع.

كانت فرانسيس كلود الابنة الوحيدة للّورد إدوارد تريتن، الذي اعتاد على ترويض خيوله وتدريبها في منطقة ورمزلي هيث. وقد اعتبر أولئك المطلعون على الأمور أن الإفلاس الأخير للّورد إدوارد كان بمثابة مَخرج رؤوف جنّبهُ ما هو أسوأ؛ فقد جرت شائعات عن خيول فشلت فشلاً ملفتاً للأنظار في متابعة السباق حتى النهاية، وفي لحظات غير متوقعة، وشائعات أخرى عن تحقيقات يُجريها مسؤولو «نادي السباق». ولكن اللورد إدوارد نجا بسمعة لم تتلطخ إلا قليلاً، وتوصل إلى تسوية مع دائنيه سمحت له بالعيش حياة مرفهة تماماً في جنوب فرنسا. وقد كان الفضل في هذه النِّعَم غير المتوقعة عائداً لدهاء محاميه جيريمي والمساعي الخاصة التي بذلها. لقد فعل جيريمي أكثر بكثير مما يفعله المحامي عادة لموكله، بل إنه قدم ضمانات منه شخصياً. وقد أوضح جيريمي أنه يُكِنّ إعجاباً عميقاً بفرانسيس تريتن، ومع مضي الأيام، وعندما انتهت مشكلات والدها بشكل مُرضٍ أصبحت فرانسيس السيدة جيريمي كلود.

لم يَتسنَّ لأحد أن يعرف حقيقة مشاعرها تجاه هذا الأمر، وكل ما يمكن قوله هو أنها أوفت بنصيبها من الصفقة بشكل رائع. فقد

كانت زوجة قديرة ومخلصة لجيريمي، وأماً حريصة لابنه. وساعدت بكل طريقة ممكنة في دفع وتعزيز مصالح جيريمي، ولم يبدر منها أبداً -بالقول أو بالفعل- ما يوحي بأن هذا الزواج كان مدفوعاً بأي شيء غير رغبتها الصادرة عن إرادة حرة.

وفي مقابل ذلك كانت عائلة كلود تُكنّ احتراماً وإعجاباً هائلين تجاه فرانسيس. كانوا فخورين بها، ويُسلّمون برأيها، ولكنهم لم يشعروا -فعلاً- بشعورٍ حميمٍ تجاهها.

كما أن أحداً لم يعرف أيضاً ما الذي فكر به جيريمي كلود بخصوص زواجه، لأن أحداً لم يعرف أبداً ما الذي يفكر فيه جيريمي أو يشعر به. كان الناس يصفونه بأنه «عصا جافة».

كانت سمعته -رجلاً ومحامياً- ممتازة. ولم تكن شركة المحاماة التي يشترك في امتلاكها -شركة بروتسكيل وكلود- تدخل أبداً في قضايا مشبوهة قانونياً. لم يكن الناس ينظرون إلى هذه الشركة على أنها من شركات المحامين الألمعيين، ولكن الفكرة السائدة كانت أن أصحابها يعتبرون موثوقين. وقد ازدهرت الشركة، وعاشت عائلة جيريمي كلود في منزل جميل على الطراز الجورجي قرب ساحة السوق، وخلفه حديقة واسعة من الطراز القديم مُحاطة بسور من الجدران، ترى فيها أشجار الكمثرى وقد اكتست بفيض من الأزهار البيضاء وقت الربيع.

عندما نهض الزوجان عن طاولة العشاء ذهبا إلى غرفة تطل على تلك الحديقة في مؤخرة المنزل. أحضرت لهما إدنا، الخادمة ذات الخمسة عشر ربيعاً، القهوة وهي تلهث نتيجة جيوبها الأنفية.

صبت فرانسيس قليلاً من القهوة في الفنجان، وكانت قهوة مركزة حارة. قالت لخادمتها بسرعة واستحسان: رائع يا إدنا.

احمرّ وجه إدنا سروراً، وأخذت -مع ذلك- تتعجب لأذواق بعض الناس. فالقهوة، في رأي إدنا، يجب أن تكون فاتحة اللون، وحلوة جداً، وفيها الكثير من الحليب!

شرب الزوجان قهوتهما السوداء المُرّة في الغرفة المطلّة على الحديقة. كانا قد تحدثا أحاديث لا رابط بينها على طاولة العشاء، عن معارف لهما التقيا بهم، وعن عودة لين وعن آفاق الزراعة في المستقبل القريب. أما الآن -وهما وحيدان- فقد ظلاّ صامتين.

اتكأت فرانسيس إلى الخلف في مقعدها وهي تراقب زوجها، وهو غافل تماماً عن نظراتها. كان ينقر شفته العليا بيده اليمنى، وقد كانت تلك حركة مميزة من حركات جيريمي تترافق مع الاضطراب الداخلي لديه، رغم أنه لم يكن يعي شخصياً ذلك. ولم تكن فرانسيس قد شهدته كثيراً وهو يقوم بهذه الحركة، فقد رأته يمارسها مرة عندما تعرض ابنهما أنطوني لمرض خطير وهو طفل، ومرة عندما كان يترقب مداولات هيئة محلفين قبل نطقها بالحكم، وعشية اندلاع الحرب وهو ينتظر قرب المذياع سماع تلك الكلمات المصيرية، وعندما غادر أنطوني للالتحاق بالخدمة العسكرية.

فكرت فرانسيس قليلاً قبل أن تتكلم. لقد كانت حياتهما الزوجية سعيدة، ولكنها لم تكن أبداً حميمة بكل ما في الكلمة من معنى. فقد احترمت جديته وتحفظه كما احترم جديتها وتحفظها، وحتى عندما وصلت تلك البرقية معلنة وفاة أنطوني أثناء الخدمة، فإن أحداً منهما

لم يصبه الانهيار. وقتها فتح البرقية، ثم رفع نظره إليها فقالت له: "أهي...؟". أومأ برأسه بالإيجاب، ثم تقدم ووضع البرقية في يدها الممدودة. وقفا -وقتها- صامتين تماماً لبرهة ثم قال جيريمي: "أتمنى لو أستطيعُ مساعدتك يا عزيزتي". فأجابته بصوت ثابت دون دموع وهي لا تعي إلا الفراغ والألم الفظيعين: "إن ذلك يؤلمك بقدر ما يؤلمني"، فربّت على كتفها وقال: "نعم، نعم". ثم اتجه نحو الباب مشدوداً متصلباً رغم بعض الميل في مشيته، وقد بدا فجأة عجوزاً. مشى وهو يقول: "ما من شيء يُقال... ما من شيء يُقال".

كانت ممتنة له من كل قلبها على هذا التفهم العميق، كما كانت تتمزق شفقة عليه وهي تراه ينقلب -فجأة- رجلاً عجوزاً. إن فقدها لفتاها قد جعل شيئاً ما يتصلب داخلها، وجفّ شيء من اللطف الطبيعي المعتاد فيها. أصبحت أكثر كفاءة وطاقة من أي وقت مضى، وأصبح الناس يشعرون بشيء من الخوف أحياناً من منطقها العملي المباشر الذي لا هوادة فيه.

تحركت أصبع جيريمي كلود ثانية فوق شفته العليا مترددة قلقة باحثة، وتكلمت فرانسيس بوضوح وجزم من الطرف الآخر للغرفة: هل من شيء يا جيريمي؟

جفل حتى كاد فنجان القهوة يقع من يده، ثم استعاد سيطرته على نفسه، ووضع الفنجان بثبات على الصينية، ثم نظر إليها وقال: ماذا تعنين يا فرانسيس؟

- إنني أسألك إن كان يوجد شيء؟

- وماذا عسى ذلك يكون؟

- من الحماقة أن أخمّن ذلك، أُفضّل أن تخبرني أنت.

تكلمت دون عاطفة، وبأسلوب عملي.

قال دونما إقناع: ما من شيء.

لم تجبه، بل اكتفت بأن انتظرت متسائلة، وبدا أنها اعتبرت إنكاره أمراً جديراً بالتجاهل. نظر إليها بتردد، وللحظة واحدة سقط قناع رباطة الجأش عن وجهه الشاحب، وتجلّت لمحة من عذابٍ مُضنٍ كادت معه أن تُطلق عبارة دهشة. كان ذلك للحظة واحدة، ولكن لم تُداخِلها ريبةٌ فيما رأته.

قالت بهدوء ودون عاطفة: أحسب أن من الأفضل أن تخبرني.

تنهد بعمق وبؤس وقال: لا بد أن تعرفي بالأمر، عاجلاً أم آجلاً.

ثم أضاف عبارة بدت لها مدهشة جداً، إذ قال: أخشى أن تكوني قد دخلتِ في صفقةٍ خاسرةٍ يا فرانسيس.

تجاوزت مباشرة الإشارة الضمنية التي لم تفهمها لتطرق الحقائق الأساسية: ما هو الأمر، أهي مسألة مال؟

لم تكن تعرف لماذا وضعت المال احتمالاً أول، فهي لم تر مؤشرات خاصة على ضائقة مالية أكثر مما كان طبيعياً ومعهوداً في مثل هذه الأيام. كان في ملاك المكتب نقص وفيه عمل كثير يصعب

القيام به، ولكن ذلك كان شائعاً في كل مكان، ولقد عاد إلى المكتب في الشهر الماضي بعض العاملين فيه بعد أن سرحهم الجيش. كان بالإمكان أن تكون المسألة مسألة مرض بخفيه، فقد تغير لونه إلى الأسوأ مؤخراً، وكان مرهقاً من ضغوط العمل المتزايد. ولكن غريزة فرانسيس اتجهت -مع ذلك- إلى المال، وبدا أنها كانت محقة في ذلك.

أومأ زوجها بالإيجاب.

قالت: فهمت.

ثم صمتت لحظة تفكر. لم تكن هي شخصياً تهتم بالمال أبداً، ولكنها كانت تعرف أنه لم يكن بمقدور جيريمي أن يدرك؛ فقد كان المال يعني بالنسبة له عالماً ثابتاً مستقراً، وإيفاء بالالتزامات، ومكاناً ومنزلة محددة في الحياة.

أما هي فقد كان المال بالنسبة لها لُعبة تُلقى بين يدي المرء ليلهو بها. لقد ولدت وترعرعت في جو من عدم الاستقرار المالي، إذ مرت على أسرتها أوقات رائعة كانت الجياد فيها تقوم بما هو مُنتظرٌ منها، كما مرت أوقات عصيبة كان أهل المهنة فيها يمتنعون عن الدفع بالدَّين، ويضطر اللورد إدوارد إلى اللجوء إلى طرق شائنة لتجنب المطالبين بحقوقهم على عتبة منزله. وقد اضطرت العائلة مرة إلى تسريح جميع الخدم والعيش أسبوعاً كاملاً على الخبز وحده. ومرة بقي وكلاء الدائنين ثلاثة أسابيع في المنزل عندما كانت طفلة، وقد وجدت -وقتها- أحد هؤلاء الوكلاء شخصاً من الممتع اللعب معه وسماع قصصه العديدة عن ابنته.

إلّم يكن لدى المرء مالٌ فبوسعه أن يحتال لنفسه، أو يسافر، أو يعيش لفترة على حساب أصدقائه أو أقاربه، أو ربما أنقذه شخصٌ ما بقرضٍ يُعينه...

ولكنها أدركت، وهي تنظر إلى زوجها في الطرف الآخر من الغرفة، بأن المرء -في عالم عائلة كلود- لا يُقدم على مثل هذه الأمور، لا يتسول ولا يقترض ولا يعيش عالة على الآخرين. (وبالمقابل فإن المرء -في هذا العالم نفسه- لا يتوقع من الآخرين أن يتسولوا منه، أو يقترضوا أو يعيشوا عالة عليه!).

شعرت فرانسيس بالحزن الشديد على جيريمي، كما شعرت بشيء من الذنب لأنها لم تكن -شخصياً- قلقة أو مشوشة كثيراً. احتمت بطريقتها العملية في التفكير وقالت: هل سنضطر إلى بيع كل شيء؟ هل تسير الشركة نحو الهاوية؟

طرف جيريمي كلود بجفنيه فأدركت أنها كانت محقة تماماً في حدسها. قالت بلطف: يا عزيزي، أخبرني رجاءً، فلا يمكن أن أمضي في التخمين.

قال جيريمي كلود بشيء من التشنج: لقد مررنا بأزمة سيئة تماماً منذ عامين، فقد فر الشاب وليامز كما تعلمين، وواجهنا بعض الصعوبة في تعديل أوضاعنا ثانية. ثم نشأت تعقيدات معينة ناتجة عن الوضع في الشرق الأقصى بعد أن قامت سنغافورة...

قاطعته قائلة: لا تُلقِ بالاً للأسباب والمبررات، فهي غير مهمة أبداً. لقد كنتَ في ورطة ولم تستطع الخروج منها.

- لقد اعتمدتُ على غوردن. كان من شأن غوردن أن يضع الأمور في نصابها.

أطلقت زفرة سريعة تشي بنفاد الصبر، وقالت: طبعاً؛ إنني لا أريد لوم الرجل المسكين، إذ أن فقدان المرء صوابه أمام امرأة فاتنة لا يعدو -في نهاية الأمر- كونه من خصائص النفس البشرية. ولماذا عساه لا يتزوج إن أراد ذلك؟ ولكن كان من سوء الطالع أن يُقتل في تلك الغارة الجوية قبل أن يتاح له تسوية أيٍّ من أموره أو كتابة وصية مناسبة أو ترتيب شؤونه. والحقيقة أن المرء لا يظن أبداً، ولو لدقيقة واحدة، بأنه هو نفسه سيُقتل، بغض النظر عما يحيط به من أخطار. إذ يرى المرء أن القنبلة ستصيب دوماً الشخص الآخر.

قال الأخ الأكبر لغوردن كلود: لقد كنتُ مغرماً جداً به، وفخوراً به أيضاً. ولكن موته -بعيداً عما شكّله من خسارة لي- جاء كارثة عليّ، فقد جاء في لحظة...

ثم توقف عن إتمام عبارته. وسألته فرانسيس: هل ستفلس؟

نظر إليها جيريمي كلود بنظرة تكاد تشي باليأس. كان من شأنه -رغم أنها لم تدرك ذلك- أن يجد راحة أكبر لو أنها صاحت أو ذرفت دموعها. أما هذا الاهتمام البارد العملي المحايد فقد غلبه تماماً على أمره. وقال بصوت أجش: الأمر أسوأ من ذلك بكثير.

ثم راقبها وهي تجلس هادئة ثابتة تفكر في ذلك. قال لنفسه: "سأضطر بعد لحظات لإخبارها. ستعرف من أكون... لا بد أن تعرف. وقد لا تصدق الأمر في البداية".

تنهدت فرانسيس كلود وعدلت جلستها في مقعدها الضخم وقالت: فهمت. اختلاس أو شيء من هذا القبيل، ألم تكن كلمة اختلاس هي الكلمة الصحيحة. كما فعل الشاب ويليامز؟

- نعم، ولكنك لا تفهمينني، ففي هذه المرة أنا المسؤول. لقد استخدمتُ مبالغَ أمانةٍ وُضعتْ في عُهدتي، وقد تمكنتُ حتى الآن من إخفاء المسألة...

- ولكن الأمر كله سيظهر الآن، أليس كذلك؟

- ما لم أستطع الحصول على المال المطلوب... وبسرعة.

كان العار الذي يحس به أسوأ ما خبره في حياته. كيف ستتلقى زوجته هذا الأمر؟ لقد كانت تتلقاه في هذه اللحظة بكل هدوء. ولكنه فكر بأن فرانسيس لم تكن أبداً لتبدي عواطف مسرحية في مثل هذه الأحوال، لم تكن لتوبخ أو تؤنب.

قالت وهي مقطبة الجبين، ويدها على خدها: من الغباء أنني لا أملك أية أموال خاصة بي أبداً!

- لديك التسوية المالية المترتبة على زواجك، ولكن...

قالت شاردة الذهن: ولكن أحسب أن تلك قد ذهبت أيضاً.

ظل صامتاً، ثم قال بصعوبة بصوته الجاف: إنني آسف يا عزيزتي. أسفي أكبر مما يسعني التعبير عنه... لقد دخلتِ صفقة خاسرة!

رفعت نظرها إليه بحدة وقالت: لقد قلت ذلك من قبل. ما الذي تعنيه بذلك؟

- عندما تكرّمتِ بقبول الزواج مني، كان لك الحق في أن تتوقعي... في أن تتوقعي الاستقامة، وحياةً تخلو من المكدرات.

كانت تنظر إليه بدهشة تامة. قالت: يا لك من رجل يا جيريمي! ولماذا تظنني تزوجتك بالله عليك؟

ابتسم قليلاً وقال: لقد كنتِ دوماً -يا عزيزتي- مثال الزوجة المخلصة الوفية. ولكنني لا أكاد أستطيع إطراء نفسي وإقناعها بأنك كنت ستقبلينني في... في ظروف مختلفة.

نظرت إليه ثم انفجرت فجأة ضاحكة وقالت: يا لك من غريب مضحك. ما هذا العقل الرومانسي الذي تخفيه خلف هذه الواجهة القانونية! أتحسب -حقاً- أنني تزوجتك مقابل إنقاذك لأبي من الذئاب، أو من مسؤولي نادي الخيول... إلى آخر ذلك؟

- لقد كُنتِ شديدة التعلق بأبيك يا فرانسيس.

- لقد كنتُ أحب أبي. كان محبوباً جداً، وكانت الحياة معه أكبر متعة ولكنني كنت أعرف دوماً أنه سيء في عمله. وإن كنتَ تعتقدُ بأنني مستعدة لبيع نفسي لمحامي العائلة لكي أنقذه مما كان يقع فيه دائماً فإنك إذن لم تفهم أي شيء عني... أبداً!

حدقت إليه، وأحست بالاستغراب إذ تتزوج امرأةٌ رجلاً لأكثر من عشرين سنة دون أن تعرف ما الذي كان يدور في عقله. ولكن

كيف للمرء أن يعرف إن كان عقل الآخر مختلفاً إلى هذا الحد عن عقله؟ كان عقله رومانسياً بالطبع. صحيح أنه مُموَّهٌ جيداً، ولكنه رومانسي في جوهره. فكرت في نفسها قائلة: "كان يجب أن أدرك طبيعة تفكيره منذ زمن بعيد. يا للحبيب المسكين الأبله!".

قالت: لقد تزوجتك لأنني كنت أحبك بالطبع.

- تحبينني؟ ولكن ماذا عساك ترين بي؟

- إن كنتَ تسأل عن ذلك يا جيريمي فأنا حقاً لا أدري. لقد كنتَ مختلفاً تماماً، مختلفاً عن كل أصحاب أبي، فأنت -مثلاً- لم تتكلم أبداً عن الخيل. إنك لا تتخيل كم كنت أشمئز من الحديث عن الخيول، ومن تلك التكهنات عن فرص الفوز بكأس السباقات. وجئت أنت لتناول العشاء ذات ليلة... هل تذكر؟ وجلست أنا بجانبك، وسألتك سؤالاً اقتصادياً عن التعامل بالذهب. وأخبرتني، حقاً أخبرتني عن الأمر. وقد استغرق ذلك فترة العشاء كلها... وكان عشاء من ستة أصناف متعاقبة، إذ كانت لدينا أموال آنذاك وكان لدينا طباخ فرنسي!

- لا شك أنني كنت مملاً جداً.

- كان الأمر آسراً! لم يكن أحد قد عاملني بجدية من قبل. وكنتَ مهذباً جداً، ومع ذلك لم يبدُ عليك أنك كنت تنظر إليّ أو تراني لطيفة أو جميلة... وقد دفعني ذلك إلى محاولة إظهار أفضل ما لديّ، وأقسمت على أن أدفعك إلى الاهتمام بي.

قال جيريمي كلود باكتئاب: لقد اهتممت بك تماماً. ذهبتُ في

قالت فرانسيس: أنت لم تخبرني بذلك! ظننت أن الأموال ملكها إلى الأبد، وأن بوسعها أن تتركها لمن تشاء.

- لا؛ فوفقاً للقانون الخاص بالموت دون وصية...

لم يبدُ أن فرانسيس قد أصغت لشرحه. قالت عندما توقف صوته: لا يكاد الأمر يعنينا شخصياً. فقبل أن تصل إلى منتصف عمرها سنكون نحن من أهل القبور. كم عمرها؟ خمسة وعشرون عاماً... ستة وعشرون؟ ربما عاشت حتى تبلغ السبعين.

قال جيريمي كلود بارتياب: بوسعنا أن نطلب منها قرضاً، ونعزوه إلى أسباب عائلية، أليس كذلك؟ ربما كانت فتاة ذات عقل متفتح كريم. إننا حقاً لا نعرف عنها إلا القليل القليل.

- وقد كنا على أية حال لطفاء معها إلى حد معقول، ولم نكن مناكفين لها مثل أديلا. ربما استجابت.

قال زوجها محذراً: ولكن ينبغي أن لا تصدر أية إشارة إلى... إلى حالة طوارئ حقيقية.

قالت فرانسيس بنفاد صبر: كلا، بالطبع! المشكلة أننا لن نتعامل مع الفتاة نفسها؛ فهي تماماً كالخاتم في أصبع أخيها.

- إنه شاب كريه جداً.

التمعت فجأة ابتسامة فرانسيس وقالت: آه، نعم. ويُخيل لي أيضاً أنه متهتك قليل الوازع إلى حدٍّ ما. ولكن -في هذه النقطة

بالذات- فأنا أيضاً قليلة الوازع.

تصلبت ابتسامتها ونظرت إلى زوجها قائلة: لن نُهزم يا جيريمي. يجب أن نجد طريقة ما... ولو اضطُررت للسطو على مصرف!

* * *

الفصل الثالث

قالت لين: المال!

هز راولي كلود رأسه بالإيجاب. كان شاباً ضخماً مربوع القامة، ذا بشرة حمراء وعينين زرقاوين متأملتين وشعر أشقر بالغ الشقرة. كان في أسلوبه شيء من البطء الذي بدا مقصوداً أكثر منه طبيعياً، وكان يستخدم التأني حيث يستخدم الآخرون سرعة البديهة. قال: نعم، يبدو أن المال يقف خلف كل شيء هذه الأيام.

- ولكني ظننت أن أعمال المزارعين ازدهرت خلال الحرب؟

- آه، نعم، ولكن ذلك لا يعني الخير الدائم. ففي غضون سنة سنعود إلى حيث بدأنا... مع ارتفاع الأجور، وعدم رغبة العمال، وعدم قناعة أحد أو معرفته لمواقع أقدامه. هذا -طبعاً- ما لم تكن زراعتك على نطاق واسع حقاً. لقد كان غوردن العجوز يعرف ذلك. وفي هذه النقطة كان يُعِدّ العدة للتدخل.

سألت لين: والآن...؟

- والآن تذهب السيدة غوردن إلى لندن فتصرف ألفي جنيه في شراء معطف فرو جميل.

- إن ذلك... إن ذلك عمل شرير!

- آه، لا.

ثم توقف قليلاً وقال: إنني أرغب بأن أشتري لك أنت معطف فرو يا لين.

- كيف هو شكلها يا راولي؟

كانت تريد حُكماً على المرأة من شخص في مثل عمرها.

- سترينها الليلة، في حفلة الخال ليونيل والخالة كاثي.

- نعم، أعرف ذلك. ولكني أريد منك أنت أن تخبرني. إن أمي تقول إنها بنصف عقل، فما رأيك؟

فكر راولي، ثم قال: حسناً، لا أظن أن الذكاء هو أقوى ميّزاتها. ولكنني أظن حقاً أنها تبدو -ظاهرياً فقط- بنصف عقل لأنها حريصة جداً.

- حريصة؟ حريصة على ماذا؟

- آه، مجرد حريصة. أحسبها حريصة بشكل أساسي على لهجتها أو لكنتها. إن لها لكنة واضحة، أو، لنقل: تردداً إزاء طريقة النطق، وإزاء أية تلميحات أدبية يمكن أن تُطرح في أي مجلسٍ تحضره.

- إذن فهي -حقاً- غير... غير مثقفة؟

تنحنح راولي وقال: إنها ليست «ليدي» إن كان هذا ما تعنيه.

لها عينان جميلتان، وبشرة رائعة. وأظن أن ذلك هو ما أوقع غوردن العجوز بحبها، مع الإحساس العارم الذي تثيره بأنها بسيطة ساذجة تماماً. ولا أحسب ذلك تظاهراً وخداعاً، مع أن المرء لا يستطيع أن يجزم طبعاً. إنها تكتفي بالوقوف كالبلهاء، تاركة ديفيد يقودها.

- ديفيد؟

- ذلك هو أخوها. ولا أظن أنه ترك باباً من أبواب الممارسات المستهترة والمنفعية لم يدخله! وهو لا يحب كثيراً أياً منا.

قالت لين بحدة: ولماذا عساه يحبنا؟

ثم أضافت بشيء من الدهشة عندما نظر إليها: أعني أنك أنت أيضاً لا تحبه.

- أنا لا أحبه بالتأكيد، ولن تحبيه أنت أيضاً. إنه ليس من نوعنا.

- أنت لا تعرف من أحب ومن لا أحب يا راولي! لقد رأيت الكثير من أرجاء العالم في السنوات الثلاث الأخيرة. وأظن... أظن أن مداركي قد توسعت.

- لقد رأيتِ من العالم أكثر مما رأيتُ أنا، هذا صحيح.

قال عبارته تلك بهدوء، ولكن لين رفعت بصرها إليه بحدة. كان خلف تلك النبرات الهادئة المستوية شيء ما.

بادلها نظرتها بشكل مباشر ووجهه لا ينبئ بأية عاطفة.

وتذكرت لين أنه لم يكن من السهل أبداً معرفة ما يفكر به

راولي بالضبط. فكّرت: "يا لهذا العالم الغريب المقلوب رأساً على عقب! فقد جرت العادة أن يكون الرجال هم الذين يذهبون إلى الحرب، والنساء هن اللاتي يبقين في البيت. ولكن الموقف انقلب هنا"! كان على أحد الشابين (راولي وجوني) أن يبقى في المزرعة. اقترعا بقطعة نقدية فكان جوني فافاسور هو من وقعت عليه القرعة للذهاب إلى الحرب، وقد قُتل على الفور تقريباً في النرويج. وطوال سنوات الحرب لم يبتعد راولي إلا ميلاً أو ميلين عن بيته. أما هي، لين، فقد ذهبت إلى مصر وإلى شمال أفريقيا وصقلية، وتعرضت لنيران الأعداء أكثر من مرة. وها هي الآن لين العائدة من الحرب وراولي قعيدُ بيته. وتساءلت فجأة إن كان قد اهتم.

أصدرت ضحكة عصبية صغيرة وقالت: تبدو الأمور أحياناً مقلوبة قليلاً... رأساً على عقب، أليس كذلك؟

- آه، لا أدري.

ثم أرسل ناظريه بفراغ إلى الريف الممتد وأضاف: ربما.

ترددت قليلاً ثم قالت: راولي، هل اهتممت... أعني بشأن جوني؟

حدق إليها مباشرة ببرود فاجأها، وقال: دعي جوني خارج الموضوع! لقد انتهت الحرب وكنت محظوظاً.

- هل تعني بمحظوظ أنك...

ثم ترددت قليلاً: أنك محظوظ لعدم اضطرارك... إلى الذهاب؟

- إنه حظ رائع، ألا تظنين ذلك؟

لم تدرِ تماماً كيف تفهم ذلك السؤال. كان صوته منساباً ذا نهايات قاطعة. وما لبث أن أضاف مبتسماً: ولكنكنّ بالطبع -معشر المجندات- ستجدن صعوبة في الاستقرار في الوطن.

قالت بانزعاج: آه، لا تكن سخيفاً يا راولي. (ولكن: لماذا انزعجت؟ لماذا، ما لم تكن كلماته قد أصابت الحقيقة في مكان ما؟).

- حسناً، أحسب أن من الأفضل أن نفكر في زواجنا. ما لم تكوني قد غيرت رأيك؟

- طبعاً لم أغير رأيي، ولماذا أغيره؟

قال بشيء من الإبهام: الله أعلم!

- أتعني أنك تظنني اختلفت؟

- ليس على وجه التحديد.

- ربما كنتَ أنتَ من غيّرَ رأيه؟

- آه. لا، أنا لم أتغير؛ فهنا في المزرعة لا يحدث إلا القليل من التغيير كما تعلمين.

قالت لين وهي تُحس -بشكل ما- بهبوط الحديث إلى نتيجة تافهة بعد أن كان متصاعداً: حسناً إذن، لنتزوج. متى ما شئت.

- في حزيران أو نحو ذلك؟

- نعم.

ثم صمت الاثنان. انتهت المشكلة، وشعرت لين -رغماً عنها- أنها مكتئبة منقبضة الصدر إلى حد بعيد. ومع ذلك، فإن راولي لم يكن قد اختلف، بل بقي كما كان دوماً. مُحباً لا تجرفه العواطف، وميالاً -عن وعي وجهد- إلى تهوين الأمور وإعطائها أقل مما تستحقه. لقد أحب كل منهما صاحبه على الدوام، ولم يسبق لهما -أبداً- أن تحدثا عن حبهما كثيراً، فلماذا يتعين عليهما أن يتحدثا عنه الآن؟ سيتزوجان في حزيران، ويعيشان في منزل لونغ ويلوز (وهو اسم طالما أعجبها) وسوف لن تسافر أبداً مرة أخرى. أي أنها لن تسافر بالمعنى الذي تعنيه لها الآن كلمة السفر؛ أي بما كانت تجده في تلك الكلمة من إثارة وانفعال عندما تُرفَعُ معابرُ السفينة استعداداً للإقلاع، ويتراكض طاقم السفينة كلٌّ إلى موقعه، والخوف الذي يهيمن عندما تقلع طائرة وتطوف فوق الأرض. ومراقبة شواطئ غريبة وهي تتضح تدريجياً وتأخذ شكلها. ورائحة التراب الحار والبارافين والثوم، وضجيج اللغات الأجنبية ورطانتها، والزهور الغريبة وشقائق النعمان الحمراء تنهض بكبرياء من حديقة ترابية، ورزم الحقائب وتفريغها، والتساؤل عن المحطة التالية.

كل ذلك قد انتهى، وانتهت الحرب، وعادت لين إلى الوطن. وعاد البحّار إلى وطنه، عاد من البحر... ولكنها فكرت قائلة لنفسها: إنني لست لين نفسها التي سافرت في البداية.

رفعت نظرها لترى راولي يراقبها.

* * *

الفصل الرابع

كانت حفلات العمة كاثي دوماً متشابهة؛ فقد كانت تتصف بشيء مما يميز حفلات الهواة من إثارة، وكان ذلك جزءاً مما تتصف به المضيفة نفسها.

وكان الدكتور كلود يجد صعوبة في السيطرة على نزقه وانفعاله فيما يبدو، ولكنه كان دوماً دمثاً لطيفاً مع ضيوفه، رغم أنهم كانوا يدركون أن لطفه ناتج عن جهد يبذله.

لم يكن ليونيل كلود -من ناحية المظهر- يختلف كثيراً عن أخيه جيريمي. وكان نحيلاً رمادي الشعر، ولكنه لم يكن يمتلك رباطة جأش المحامي وهدوءه. وكان على شيءٍ من سرعة رد الفعل ونفاذ الصبر في أسلوبه وتصرفاته، بحيث أحرج هياجه العصبي الكثير من مرضاه إلى حد الإهانة، وجعلهم لا يفطنون إلى ما يتمتع به فعلاً من مهارة ولطف. وقد انصبت اهتماماته الحقيقية على البحث، وكانت هوايته هي استخدام الأعشاب الطبية عبر التاريخ. كان ذا عقل يمتاز بالدقة وقد وجد صعوبة في تحمل التقلبات المزاجية لزوجته.

ومع أن لين وراولي اعتادا دوماً على تسمية زوجة جيريمي

كلود باسمها الأول، فرانسيس، إلا أن زوجة ليونيل كلود قد بقيت دوماً «العمة كاثي» بالنسبة لهما. وكان الاثنان مغرمَيْن بها، رغم أنهما وجداها سخيفة بعض الشيء.

كانت هذه «الحفلة» -المعدة خصيصاً في الظاهر للاحتفال بعودة لين إلى الوطن- مجرد شأن عائلي.

رحبت العمة كاثي بابنة أخت زوجها بمحبة وقالت: تبدين جميلة جداً ومُسْمَرّة يا عزيزتي. أحسب أن مصر هي السبب. هل قرأتِ ذلك الكتاب الذي أرسلتُه لك عن نبوءات الهرم؟ إنه مثير جداً. ألا ترين أنه يفسر كل شيء؟

جاء دخول أرملة غوردن كلود وأخيها ديفيد لينقذ لين من عناء الإجابة عن السؤال. قالت العمة كاثي: أقدم لكِ ابنة أخت زوجي، لين ماتشمونت، يا روزالين.

نظرت لين إلى أرملة غوردن كلود بفضول مغلف بقناع من اللباقة. نعم، كانت حقاً جميلة، هذه الفتاة التي تزوجت غوردن كلود من أجل ماله. وكان صحيحاً ما قاله راولي من أن فيها مسحة من البراءة: شعر أسود تتدلى خصلاته طليقة متموجة، وعينان زرقاوان إيرلنديتان بكحل طبيعي، وشفتان منفرجتان قليلاً. أما ما تبقى منها فقد كان غالياً ثميناً جداً: الثياب والجواهر ورداء الفرو. منظر جميل تماماً، ولكنها لم تعرف حقاً كيف ترتدي ملابس ثمينة. لم تلبسها كما كان يمكن للين مارتشمونت أن تلبسها لو سنحت لها نصف فرصة لذلك!

(وحدّثها صوت في داخلها: إنك لن تجدي هذه الفرصة أبداً).

قالت روزالين كلود: "مرحباً"، ثم التفتت مترددة إلى الرجل الواقف خلفها وقالت: هذا... هذا أخي.

قال ديفيد هنتر: مرحباً!

كان شاباً نحيلاً ذا شعر أسود وعينين سوداوين. وكان في وجهه حزن وتحد، بل وشيء من الغطرسة الوقحة. وأدركت لين على الفور لماذا كرهته عائلة كلود كلّها إلى تلك الدرجة. لقد سبق لها أن قابلت رجالاً من هذا النوع في الخارج، رجالاً كانوا متهورين وخطيرين بعض الشيء، لا يستطيع المرء الاعتماد عليهم. رجالاً وضعوا قوانينهم الخاصة وازدروا العالم كله. رجالاً كانوا يساوون وزنهم ذهباً في حمأة الهجوم العسكري، ولكنهم أوصلوا قادتهم إلى حافة الجنون فيما عدا ذلك من حياة الجندية!

قالت لين لروزالين على سبيل بدء حديث: وكيف وجدتِ العيش في فوروبانك؟

- أظنه بيتاً رائعاً.

أطلق ديفيد هنتر ضحكة خفيفة ساخرة وقال: لقد أحسن العجوز المسكين غوردن العناية بنفسه، ولم يبخل على البيت بشيء.

كانت تلك هي الحقيقة تماماً: فعندما قرر غوردن الاستقرار في ورمزلي فيل (أو بالأحرى قضاء جزء بسيط من حياته الحافلة

بالعمل هناك) اختار أن يبني بيتاً جديداً. كان أكثر فردية من أن يهتم بالسكن في منزل مفعم بتاريخ أناس آخرين. استخدم مهندساً معمارياً عصري النظرة وأطلق يده في اختيار تصميم البناء. وقد اعتبر نصفُ سكانِ ورمزلي فيل البيتَ الجديدَ المسمى «فوروبانك» مسكناً فظيعاً، وكرهوا شكله المربع الأبيض وأثاثه الذي بُني في صلب الجدران، وأبوابه المتحركة، وموائده وكراسيه الزجاجية. وكان الجزء الوحيد الذي أعجبهم كثيراً هو حمامات المنزل. كان ثمة رهبة في جملة روزالين: «أظنه بيتاً رائعاً». وقد جعلت ضحكةُ ديفيد خدّيها يتوردان.

قال ديفيد مخاطباً لين: إذن فأنت العائدة من سلاح البحرية، أليس كذلك؟

- بلى.

صعّد النظر فيها كمن يقوّمها، ولسبب ما تورّد خدها. ظهرت العمة كاثرين مجدداً فجأة. كانت تتمتع بخاصية الحلول فجأة في مكان ما وكأنها جاءت من فراغ، ولعلها تعلمت ذلك من جلسات الأرواح الكثيرة التي تحضرها. نادت وهي تسحب أنفاسها: العشاء.

ثم أضافت مستدركة: إنه ليس عشاء رسمياً دسماً. لقد غدا كل شيء صعباً، أليس كذلك؟ تقول ميري لويس إنها تدس لبائع السمك عشر شلنات كل أسبوعين. إنني أرى في ذلك فساداً كبيراً.

كان ليونيل كلود يطلق ضحكته العصبية النزقة وهو يتكلم مع فرانسيس قائلاً: آه، لا تبالغي يا فرانسيس. لا أظنك تتوقعين مني أن أصدق أنك ترين ذلك حقاً. هيا ندخل.

دخلا إلى غرفة الطعام التي كانت سيئة الحال، بشعة بعض الشيء. دخل جيريمي وفرانسيس، ولونيل وكاثرين وأديلا ولين وراولي. حفلة عائلية تضم آل كلود، مع اثنين من خارج العائلة؛ إذ أن روزالين كلود -رغم حملها للاسم- لم تصبح من آل كلود كما أصبحت فرانسيس وكاثرين.

كانت هي الغريبة، المضطربة، القلقة. أما ديفيد فقد كان الخارج عن القانون، وكان كذلك بالضرورة، كما بالاختيار أيضاً. كانت لين تفكر بهذه الأشياء وهي تأخذ مكانها على المائدة.

كان الجو زاخراً بموجات من المشاعر. تيار كهربائي قوي من... من ماذا يا ترى؟ أهي الكراهية؟ أيمكن حقاً أن تكون الكراهية؟ كانت -على أية حال- مشاعر... مدمرة.

ثم فكرت لين فجأة قائلة لنفسها: ولكن هكذا هي الحال في كل مكان، وقد لاحظتُ ذلك منذ أن عدت للوطن. إنها الآثار التي تركتها الحرب: الحقد، والضغينة... في كل مكان. في القطارات والحافلات، وفي المحلات، وبين العمال والموظفين، وحتى بين الفلاحين. وأحسبها أسوأ بين عمال المناجم والمصانع. إنها الضغينة، ولكنها هنا أكبر من ذلك. فهي هنا محددة، مقصودة!

ثم فكرت وقد صُدمت: هل نكرههما حقاً إلى هذا الحد، وقد أخذا ما نراه ملكاً لنا؟ وبعد ذلك فكرت: لا، ليس بعد. ربما كنا نكرههما، ولكن ليس بعد. لا، إنهما هما من يكرهاننا.

بدا ذلك لها اكتشافاً يأخذ بعقل المرء إلى الحد الذي جعلها

تجلس صامتة تفكر فيه، ناسية أن تتحدث مع ديفيد هنتر الذي كان جالساً بجانبها. ثم ما لبث أن قال: أتفكرين بشيء؟

كان صوته عذباً تماماً وفيه شيء من السرور، ولكنها شعرت بتأنيب الضمير. إذ قد يظن أنها تحاول -جاهدة- أن تسيء معاملته. قالت: أنا آسفة. كانت تراودني أفكار حول حال الدنيا.

قال ديفيد ببرود: يا له من موضوع مكرور لا جديد فيه!

- نعم، هو كذلك نوعاً ما. إننا -جميعاً- جادون جداً هذه الأيام، ولا يبدو أن ذلك يحقق أية فائدة أيضاً.

- إن الأكثر عملية -في العادة- هو تمني إيقاع الأذى. وقد استطعنا -خلال السنوات القليلة الماضية- أن نخرج ببعض الوسائل العملية بعض الشيء في هذا الصدد، بما في ذلك تلك الوسيلة الأكثر أهمية، القنبلة الذرية.

- هذا ما كنت أفكر فيه. لا أعني القنبلة الذرية، بل عنيت الضغينة. الضغينة المؤكدة العملية.

قال ديفيد بهدوء: إنها ضغينة بالتأكيد، ولكنني أميل إلى التركيز على كلمة «عملية». لقد كانوا أكثر عملية في هذا الأمر في العصور الوسطى.

- ما الذي تعنيه؟

- السحر الأسود بشكل عام. تمني السوء، والتماثيل الشمعية لمن يُراد بهم الشر، والتعاويذ لدى تحول القمر، وقتل قطعان

الماشية لدى الجيران، بل وقتل الجار نفسه.

سألته لين غير مصدقة: لا أظنك تؤمن حقاً أنه كان يوجد شيء اسمه «السحر الأسود»؟

- ربما لا أؤمن بذلك، ولكن الناس -على أية حال- حاولوا جاهدين. أما في أيامنا هذه...

ثم رفع كتفيه بلامبالاة وأضاف: مع كل ما في العالم من ضغينة، إلا أنك وعائلتك لا تستطيعون عمل الكثير بشأني وشأن روزالين، أليس كذلك؟

عادت لين برأسها إلى الخلف، وسرعان ما وجدت نفسها تستمتع بالحديث. قالت بأدب: أصبح الوقت متأخراً قليلاً عن ذلك.

ضحك ديفيد هنتر. وبدا أنه يستمتع بالحديث هو الآخر: تعنين أننا نجونا بالغنيمة؟ نعم، نحن مرتاحان تماماً بوضعنا الحالي.

- وأنتما تشعران بنشوة بذلك!

- تعنين بامتلاك الكثير من المال؟ أظن أننا نشعر بذلك.

- أنا لم أقصد المال فقط، بل قصدت من وضعنا نحن.

- تعنين أننا غلبناكم على أمركم؟ حسناً، ربما. لقد كان من شأنكم جميعاً أن تكونوا في غاية الرضا عن أنفسكم فيما يخص أموال العجوز لو آلت إليكم، فقد كنتم تنظرون إلى تلك الأموال كما لو كانت في جيوبكم أساساً.

- عليك أن تتذكر أنه قد تم تعليمنا على أن نفكر بذلك لسنوات طويلة، عُلِّمنا أن لا ندخر وأن لا نفكر في المستقبل، وتم تشجيعنا على المضي بكل أنواع الخطط والمشاريع. (وعندها فكّرتْ براولي وبالمزرعة).

قال ديفيد فرحاً: شيء واحد فقط لم تتعلموه في الواقع.

- وما هو؟

- أنه ما من شيء مضمون.

صاحت العمة كاثرين وهي تنحني إلى الأمام عند رأس المائدة: لين، إن أحد وسطاء السيدة ليستر كان كاهناً في الأسرة المالكة الرابعة للفراعنة، ولقد أخبرنا أشياء رائعة. ينبغي أن نتبادل حديثاً مطولاً أنا وأنت يا لين، وأشعر أن مصر قد أثرت فيك جسدياً ولا شك.

قال الدكتور كلود بحدة: إن لدى لين أشياء تفعلها أهم من كل هذه السخافات الأسطورية.

قالت زوجته: إنك متحامل جداً يا ليونيل.

ابتسمت لين لعمتها ثم جلست صامتة، وفي عقلها آخر كلمات قالها ديفيد: «ما من شيء مضمون».

يعيش أناسٌ في مثل هذا العالم، أناس يكون كل شيء بالنسبة لهم خطيراً، وقد كان ديفيد هنتر من هذا النوع. لم يكن هذا هو العالم الذي نشأت فيه لين، ولكنه كان عالماً له -مع ذلك- مغرياته بالنسبة لها.

قال ديفيد بنفس الصوت المنخفض المبتهج: أما زالت علاقتنا جيدة لتبادل الحديث؟

- آه، نعم.

- حسناً، وهل ما زلت تنقمين عليّ وعلى روزالين وصولنا السيء إلى الثروة؟

أجابته لين بشيء من المزاح: نعم!

- رائع. وماذا ستفعلين إزاء ذلك؟

- سأشتري بعض الشمع وأمارس السحر الأسود!

ضحك ديفيد وقال: لا، إنك لن تفعلي ذلك؛ فأنت لست ممّن يعتمدون الطرق القديمة التي بطل طرازها. ستكون أساليبك حديثة، وربما كانت فعالة جداً، ولكنك لن تفوزي.

- ما الذي يجعلكَ تعتقد أن معركة ستقع؟ ألم تتقبل الأمر؟

- إنكم تتصرفون جميعاً بشكل جميل.. إنه لأمر مسل.

قالت لين بصوت منخفض: لماذا تكرهنا؟

التمع شيء ما في تينك العينين السوداوين اللتين لا يُسبر غورهما، وقال: ربما لا أستطيع جعلك تفهمين.

- أظنك تستطيع.

صمت ديفيد لبرهة، ثم سأل بنبرة حديث عرضي لاهٍ: لماذا ستتزوجين راولي كلود؟ إنه أبله.

قالت بحدة: أنت لا تعرف شيئاً عن الأمر... أو عنه. لا يمكن أن تكون قد فهمت -بعد- أي شيء!

سأل ديفيد دون أي أثر لتبديل الحديث: ما هو رأيك بروزالين؟

- إنها جميلة جداً.

- وماذا أيضاً؟

- لا يبدو أنها تستمتع بحياتها.

- هذا صحيح تماماً. إن روزالين حمقاء بعض الشيء. إنها خائفة مذعورة، وقد كان هذا شأنها دائماً. تدخل في الأمور على غير هدى، وبعدها لا تعود تعرف شيئاً عنها. هل أخبركِ عن روزالين؟

قالت لين بأدب: إن كنت ترغب.

- إنني أرغب فعلاً. لقد بدأت حياتها بالعمل بالمسرح، ولم تكن بارعة في عملها. ثم اشتركت مع مجموعة سياحية من الدرجة الثالثة، كانت تخطط لرحلة إلى جنوب أفريقيا، فقط لأنها أحبت اسم جنوب أفريقيا، ولكن المجموعة تقطعت بها السبل في كيب تاون. بعدها انساقت إلى الزواج من مسؤول حكومي في نيجيريا. ولم تعجبها نيجيريا، وأظن أن زوجها لم يعجبها كثيراً أيضاً. ولو أنه كان رجلاً فظاً قاسياً لكانت الأمور سارت على ما يرام، ولكنه كان مثقفاً مفكراً يحتفظ بمكتبة ضخمة في تلك الأصقاع النائية. وهكذا عادت ثانية إلى كيب تاون. وقد تصرّف الرجل بكل طيبة، فخصص لها مبلغاً كافياً للعيش. وقد كان بوسعه أن يطلقها، ولكنه كان كاثوليكياً. على أية حال فقد توفي بسبب الحمى، ونالت روزالين مخصصات بسيطة

ثم بدأت الحرب، فانتقلت -على متن باخرة- إلى أميركا الجنوبية. ولم تعجبها تلك البلاد كثيراً فاستقلت باخرة أخرى، وعلى متن تلك الباخرة قابلت غوردن كلود وأفضت له بكل شيء عن حياتها البائسة، وهكذا تزوجا في نيويورك وعاشا سعيدَيْن لأسبوعين. وبعد ذلك بقليل لقي غوردن حتفه بقنبلة تاركاً لها بيتاً ضخماً، وكثيراً من الحلي الثمينة، ودخلاً هائلاً.

- من الرائع أن تكون للقصة مثل هذه النهاية السعيدة.

- نعم. رغم أن روزالين لا تملك عقلاً أبداً، إلا إنها كانت دوما فتاة محظوظة... لقد كان غوردن كلود عجوزاً قوي البنية، في الثانية والستين من عمره. وكان من شأنه أن يعيش عشرين سنة أخرى بكل سهولة، بل حتى أكثر من ذلك. وما كان ذلك ليشكل متعة لروزالين. أليس كذلك؟ لقد كانت في الرابعة والعشرين عندما تزوجته. وهي الآن في السادسة والعشرين فقط.

- بل إنها تبدو أصغر من ذلك.

نظر ديفيد عبر المائدة. كانت روزالين تقطع رغيفها، وبدت كطفلة عصبية. قال متأملاً: نعم، إنها تبدو كذلك. وأحسب أن التفكير غائب عنها تماماً.

قالت لين فجأة: يا للمسكينة!

قطب ديفيد حاجبيه وقال بحدة: ولمَ الشفقة؟ إنني أنا الذي سيعتني بروزالين.

- نعم، أظنك ستعتني بها.

قطب جبينه بشراسة وقال: وأي امرئ يحاول خداع روزالين أو التغلب عليها فإنه سيجدني أمامه! وأنا أعرف العديد من وسائل شن الحروب... وبعض تلك الوسائل ليس مستقيماً تماماً.

سألته لين ببرود: هل أنا بصدد سماع قصة حياتك أنت الآن؟

ابتسم ديفيد وقال: إنها قصة مختصرة جداً. حين اندلعت الحرب لم أجد سبباً يدعوني للقتال من أجل إنكلترا، فأنا إيرلندي. ولكنني -ككل الأيرلنديين- أحب القتال، وقد كان لسلاح المغاوير سحر لا يقاوم بالنسبة لي. وقد استمتعت معهم قليلاً ولكنني -مع الأسف- اضطررت لتركهم نتيجة إصابة بليغة في ساقي. بعدها ذهبت إلى كندا وجعلت من التدريب مهنة لي. ولكنني كنت عاطلاً عن العمل عندما استلمت برقية روزالين من نيويورك التي تقول فيها إنها ستتزوج. وهي لم تعلن صراحة عن غنيمة وفوائد، ولكنني لماح تماماً في قراءة ما بين السطور. سافرت إلى هناك، وربطت نفسي مع الزوجين السعيدين وعدت معهما إلى لندن. والآن...

ابتسم لها بوقاحة وأضاف: ها قد عاد البحار من البحر (هذا أنتِ!)، وعاد الصياد من التلة... ما الأمر؟

- لا شيء.

نهضَتْ مع الآخرين. وفيما كانوا يمشون إلى غرفة الاستقبال قال لها راولي: لقد بدا أنك انسجمت تماماً مع ديفيد هنتر. عمّ كنتما تتحدثان؟

- لا شيء محدداً.

* * *

الفصل الخامس

قالت روزالين: ديفيد، متى سنعود إلى لندن؟ متى سنسافر إلى أمريكا؟

رماها ديفيد هنتر بنظرة دهشة سريعة عبر مائدة الإفطار وقال: لسنا في عجلة من أمرنا، أليس كذلك؟ ما العيب في هذا البيت؟

ثم قلب نظره بسرعة وإعجاب في الغرفة التي جلس الاثنان فيها لتناول طعام الإفطار. كان منزل فوروبانك مبنياً على سفح تلة، وكان بوسع المرء أن يرى من خلال نوافذه منظراً شمولياً لا يعوقه شيء للريف الانكليزي الغافي. وعلى انحدار المرجة العشبية لحديقة المنزل زُرعت آلاف نباتات النرجس التي اقترب موسم إزهارها من نهايته الآن، ومع ذلك بقي اللون الذهبي يغطيها كبساط ممتد.

تمتمت روزالين وهي تفتت الخبز المُحمَّص في صحنها: لقد قلتَ إننا سنسافر قريباً إلى أمريكا بأسرع وقت ممكن.

- نعم، ولكن الأمر لا يمكن تدبيره بهذه السهولة. توجد أولويات، ولا أنت ولا أنا تملك أيّ أعذار عمل نقدمها. إن الأمور دائماً ما تكون صعبة في أعقاب الحروب.

شعر في داخله بشيء من الانزعاج وهو يتكلم؛ فقد كانت الأسباب التي ساقها -على صحتها- أقرب إلى التبرير. وتساءل إن كانت قد بدت كذلك للفتاة الجالسة قبالته، كما تساءل لماذا أصبحت -فجأة- حريصة على السفر إلى أميركا إلى هذا الحد؟

تمتمت روزالين: لقد قلتَ إننا لن نبقى هنا إلا لفترة قصيرة، ولم تقل إننا سنعيش هنا.

- ما هو العيب في ورمزلي فيل، وفي فوروبانك؟ هيا، قولي.

- لا شيء. العيب فيهم... كلهم!

- عائلة كلود؟

- نعم.

- هذا هو تماماً ما أجد متعة ونشوة فيه. إنني أحب رؤية وجوههم المغرورة يأكلها الحسد والضغينة. لا تبخلي عليّ بهذه المتعة يا روزالين!

قالت بصوت خافت مضطرب: أتمنى أن لا تشعر على هذا النحو. إنني لا أحب ذلك.

- تشجعي يا عزيزتي. فلقد شرّدتنا الأقدار بما فيه الكفاية أنا وأنت، فيما عاشت عائلة كلود حياة هانئة... هانئة. عاشت على حساب الأخ الكبير غوردن، براغيث صغيرة عاشت على برغوث كبير. إنني أكره أمثالهم، وقد كنت دوماً كذلك.

قالت مصدومة: أنا لا أحب كره الناس؛ إنه أثم كبير!

- ألا تظنين أنهم يكرهونك؟ هل كانوا لطفاء ودودين معك؟

قالت بارتياب: لم يكونوا سيئين؛ لم يسببوا لي أي أذى.

- ولكنهم يودون ذلك يا طفلتي البريئة، يودون ذلك.

ثم ضحك بتهور وأضاف: ولولا حرصهم على أنفسهم لعثرنا عليك ذات صباح جميل وقد غُرزت سكين في ظهرك.

ارتعشت وقالت: لا تقل مثل هذه الأشياء الفظيعة؟

- حسناً، قد لا تكون سكيناً، بل قليلاً من السم في حسائك.

حدقت إليه وفمها يضطرب وقالت: لا بد أنك تمزح.

عاد ثانية إلى جديته وقال: لا تقلقي يا روزالين، سأعتني بك. سيجدونني أمامهم قبل أن يصلوا إليك.

قالت وهي تتلعثم بالكلمات: إن كان صحيحاً ما تقوله حول كرههم لنا... أو كرههم لي... فلماذا لا نذهب إلى لندن؟ ستكون في أمان هناك، بعيداً عنهم جميعاً.

- إن الريف جيد بالنسبة لك يا عزيزتي. وأنت تعلمين أن وجودك في لندن يمرضك.

- كان ذلك عندما كانت القنابل هناك... القنابل.

ثم ارتعشت وأغمضت عينيها وقالت: إنني لن أنسى أبداً، أبداً.

- بلى، ستنسين.

ثم أمسكها بلطف من كتفيها وهزّها برفق قائلاً: اخرجي من هذا الحال يا روزالين. لقد أُصبت بصدمة عنيفة، ولكن الأمر انتهى الآن. لا مزيد من القنابل. لا تفكري بالأمر، لا تتذكري. لقد أوصى الطبيب بهواء الريف وحياته الهادئة، ولهذا أريد إبقاءك بعيدة عن لندن.

- أهذا حقاً هو السبب؟ أهذا هو يا ديفيد؟ ظننت... ربما...

- ماذا ظننت؟

قالت روزالين ببطء: ظننت أنك تريد البقاء هنا من أجلها.

- من أجلها؟

- أنت تعرف من أقصد؛ فتاة السهرة التي كانت في البحرية.

فجأة اسودّ وجهه وتصلب، وقال: لين؟ لين مارتشمونت؟

- إنها تعني شيئاً بالنسبة لك يا ديفيد.

- لين مارتشمونت؟ إنها خطيبة راولي. راولي الطيب قعيد البيت، ذلك الثور الوسيم البليد بطيء التفكير.

- لقد راقبتُك وأنت تتكلم معها في تلك الليلة.

- آه، بالله عليك يا روزالين!

- وقد رأيتَها وقابلتَها بعد ذلك، أليس كذلك؟

- لقد قابلتها قرب المزرعة صباح أول أمس عندما كنت أقوم

بجولة على الحصان.

- وسوف تقابلها ثانية.

- بالطبع سأقابلها دائماً! فهذه منطقة صغيرة بحيث لا تستطيعين السير خطوتين دون أن تصطدمي بأحد أفراد أسرة كلود. ولكن إذ كنت تظنين أنني وقعت في حب لين مارتشمونت فأنت مخطئة. إنها فتاة متكبرة متعجرفة كريهة لا يعرف لسانها التهذيب. أرجو أن يفرح راولي بها. كلا يا صغيرتي، إنها ليست من النوع الذي أحبه.

قالت بارتياب: أواثق أنت من ذلك يا ديفيد؟

- طبعاً واثق.

قالت بشيء من الخنوع: أعلم أنك لا تحب قيامي بكشف الطالع بورق اللعب، ولكن ذلك يعطي نتائج وتخمينات صحيحة بالفعل. وقد رأيت من خلال ورق اللعب فتاة تجلب المتاعب والحزن؛ فتاة ستأتي من البحر. كما رأيت أيضاً غريباً أسمر يدخل حياتنا ويأتي معه بالخطر، ورأيت ورقة الموت، و...

قاطعها ديفيد ضاحكاً: يا لك ويا لِغُرباتك السمر! أية كتلة من الشكوك أنت؟ لا تتعاملي مع أي غريب أسمر، هذه نصيحتي لك.

ثم خرج من البيت ضاحكاً. ولكن عندما ابتعد عن البيت، عادت غمامة لتغطي وجهه وعبس وأخذ يتمتم مع نفسه: "من سوء حظك يا لين أن تعودي إلى الوطن لتربكي الأمور المرتبة". وفي تلك اللحظة أدرك أنه يتبع طريقاً يمكن أن يأمل فيه بلقاء الفتاة التي تكلم عنها لتوّه بكل تلك القسوة.

راقبته روزالين وهو يعبر الحديقة خارجاً عبر البوابة الصغيرة المفضية إلى الممشى الترابي العام عبر الحقول. صعدت -بعد ذلك- إلى غرفتها واستعرضت الملابس في خزانتها. كانت تستمتع دوماً بلمس معطفها المصنوع من الفرو وتتحسسه؛ لا يمكنها أن تتخلص أبداً من إحساسها بالدهشة والعجب لامتلاكها مثل هذا المعطف. وقد كانت في غرفتها عندما صعدت الخادمة لتخبرها بأن السيدة مارتشمونت قد أتت للزيارة.

كانت السيدة أديلا مارتشمونت جالسة في غرفة الجلوس وقد زمت شفتيها بإحكام وقلبها ينبض بضعف سرعته المعتادة. لقد مضت عليها أيام وهي تستجمع قوتها وتحزم أمرها بغية تقديم مناشدة لروزالين، ولكن طبيعتها جعلتها تتردد. كما أنها انزعجت إذ وجدت أن موقف لين قد تغير -على غير توقع- وأنها أصبحت الآن تعارض بقوة سعي أمها لأن تطلب من أرملة غوردن قرضاً تخفف به أعباءها وقلقها. ولكن رسالة أخرى من مدير المصرف في ذلك الصباح كان من شأنها أن تدفع السيدة مارتشمونت للقيام بتصرف عملي؛ إذ لم يعد بوسعها التأجيل. وكانت لين قد خرجت في وقت مبكر، وقد لمحت السيدة مارتشمونت ديفيد هنتر وهو يمشي مبتعداً على الطريق الترابي... وهكذا كان الجو خالياً مهيأً. كانت تريد -بشكل خاص- أن تتمكن من مقابلة روزالين وحدها، دون وجود ديفيد، إذ قدّرت -وكانت على صواب في ذلك- بأن روزالين الوحيدة وحدها، ستكون هدفاً أسهل.

ومع ذلك فقد شعرت بعصبية وحرج شديدين وهي تنتظر في غرفة الجلوس المشمسة، رغم أنها شعرت بشيء بسيط من التحسن

عندما دخلت روزالين وقد بدا واضحاً عليها أكثر من المعتاد ما كانت السيدة مارتشمونت تسميه دوماً «نظرة نصف عقل». وفكرت أديلا مارتشمونت قائلة لنفسها: "أتساءلُ إن كان ذلك ناتجاً عن الانفجار، أو أنها كانت دوماً كذلك؟".

قالت روزالين متلعثمة: صـ... صباح الخير. هل من شيء؟ تفضلي، اجلسي.

قالت السيدة مارتشمونت بابتهاج: يا له من صباح جميل! لقد تفتحت كل أزهار الزنبق المبكرة لدي. هل تفتحت لديك؟

حدقت الفتاة إليها ذاهلة وقالت: لا أدري.

وفكرت أديلا وهي تحدث نفسها: "ماذا يفعل المرء بشخص لا يتكلم في شؤون الحديقة أو شؤون الكلاب، ذينك الموضوعين الاحتياطيين الجاهزين للأحاديث الريفية؟". أما لمضيفتها فقد قالت دون أن تستطيع إخفاء لسعة المرارة التي تسللت إلى نبرتها: لديك -بالطبع- العديد من البستانيين، وهم يتولون ذلك كله.

- أظن أن لدينا نقصاً فيهم. يقول البستاني العجوز مولارد إنه بحاجة إلى رجلين معه، ولكن يبدو أننا نعاني نقصاً حاداً في العمالة.

خرجت منها الكلمات بشكل مرتجل أشبه بكلام الببغاء، أو كطفل يردد ما سمعه من شخص بالغ. نعم، لقد كانت حقاً طفلة. وتساءلت أديلا إن كان سحرها يكمن في خاصيتها الطفولية تلك؟ أكان هو ما جذب غوردن كلود، رجل الأعمال الذكي الواقعي،

وأعماه عن رؤية غبائها وأصلها المتواضع؟ إذ لا يمكن -في نهاية المطاف- أن يكون الأمر مجرد جمال وحسب، فقد حاولت العديد من الجميلات أن يجذبنه دون طائل. ولكن الطفولية بالنسبة لرجل في الثانية والستين من عمره يمكن أن تشكل نقطة جذب. هل كانت تلك الطفولية حقيقية طبيعية، أم أنها مجرد تكلف، تكلف كان مجزياً، وبذلك أصبح طبيعة ثانية؟

كانت روزالين تقول: لقد خرج ديفيد...

وقد أعادت هذه الكلمات السيدة مارتشمونت إلى نفسها. فقد يعود ديفيد، وفرصتها سانحة الآن ولا ينبغي لها أن تغفلها. عَلِقَت الكلماتُ بحنجرتها، ولكنها أخرجتها أخيراً: أتساءل... إن كنت مستعدة لمساعدتي؟

- مساعدتك؟

بدت روزالين مدهوشة لا تفهم شيئاً.

- إنني... إن الأمور صعبة جداً كما تعلمين، وقد ترك موت غوردن فرقاً كبيراً في حياتنا جميعاً.

ثم خاطبت روزالين سراً في عقلها قائلة: "أيتها الغبية الحمقاء. ألا بدّ من استمرارك في التحديق بي هكذا فاغرة الفم؟ إنك تعرفين ما أعنيه! لا بد أنك تعرفين، فقد كنتِ أنت أيضاً فقيرة الحال". كرهت روزالين في تلك اللحظة. كرهتها لأنها وجدت نفسها هي -أديلا مارتشمونت- جالسة هناك تنتحب طالبة المال. وفكرت مع نفسها قائلة: "لا أستطيع ذلك... لا أستطيع...".

وفي لحظة قصيرة واحدة التمعت في عقلها من جديد كل الساعات الطويلة من القلق والتفكير والتخطيط: تبيع البيت... (ولكن إلى أين تنتقل؟ لم تكن في الجوار أية بيوت صغيرة، ولا وجود لبيوت رخيصة بالتأكيد). تستضيف نزلاء بالأجرة... (ولكنها لا تستطيع توظيف مِلاك لذلك. وهي لا تستطيع ببساطة، لا تستطيع أبداً تدبير كل أمور الطبخ والخدمات التي يتطلبها ذلك. لو ساعدتها لين... ولكن لين ستتزوج راولي). تعيش هي نفسها مع راولي ولين؟ (كلا، لن تفعل ذلك أبداً!). تحصل على عمل. أي عمل؟ ومن يريد امرأة كهلة متعبة غير مدربة؟ وأخيراً خرج صوتها غاضباً عدائياً لأنها احتقرت نفسها: إنني أعني المال.

- المال؟

بدت مدهوشة على نحو بارع، كما لو أن المال كان آخر ما توقعت ذكره. ومضت أديلا بعناد، وهي تعتصر الكلمات عصراً: لقد سحبت ما تجاوز رصيدي في المصرف، وعلي فواتير... إصلاحات للبيت، ولم أدفع أجرها بعد. لقد تناقص كل شيء إلى النصف. أعني دخلي تناقص. وأحسب أنها الضرائب العالية. لقد اعتاد غوردن على تقديم المساعدة. أعني في شؤون المنزل. كان يقوم عنا بكل الإصلاحات بما في ذلك الأسطح والصبغ وما إلى ذلك، وفوق ذلك مخصصات منتظمة، كان يدفعها إلى المصرف كل ثلاثة أشهر. وكان يقول دوماً: "لا تقلقي"، وبالطبع لم أكن أقلق أبداً. أعني أن الأمور كانت على ما يرام عندما كان حياً، أما الآن...

ثم سكتت. كانت تشعر بالخجل والعار، ولكنها شعرت

بالارتياح في نفس الوقت. فقد تجاوزت -في نهاية المطاف- أسوأ ما في الأمر. وإن رفضت الفتاة فلترفض. نعم، بهذه البساطة.

بدا الانزعاج الشديد على روزالين وقالت: آه، يا عزيزتي! لم أكن أعلم؛ لم أتخيل أبداً. إنني... حسناً، بالطبع سأسأل ديفيد.

أمسكت أديلا بطرفي كرسيها بضراوة وقالت بيأس: ألا تستطيعين إعطائي شيكاً... الآن؟

- بلى، بلى؛ أحسب أن بوسعي ذلك.

بدت روزالين خجلة، نهضت ومضت إلى المكتب. بحثت في عدة أدراج وأخرجت أخيراً دفتر شيكات وقالت: هل أكتب... كم؟

- أيمكن... أيمكن أن تجعليها خمسمئة جنيه؟

كتبت روزالين بانصياع: «خمسمئة جنيه».

وُضِعَ عبء ضخم عن ظهر أديلا، فقد كان الأمر سهلاً في نهاية المطاف! وقد فزعت إذ خطر لها بأن ما أحست به لم يكن امتناناً بقدر ما كان ازدراء طفيفاً لسهولة انتصارها! لقد كانت روزالين -بالتأكيد- بسيطة بشكل غريب.

نهضت الفتاة عن المكتب وجاءت إليها، حاملة بيدها الشيك بارتباك. وقد بدا أنها هي من استولى عليه الحرج الآن. قالت: أرجو أن يكون هذا مناسباً. إنني آسفة حقاً.

أخذت أديلا الشيك، ونظرت إلى الخط الطفولي الغر وقد خربش على الورق الأحمر: «السيدة مارتشمونت. خمسمئة جنيه

(٥٠٠). روزالين كلود».

- إنه لطف بالغ منك يا روزالين. شكراً لك.

- آه رجاءً... أعني أنه كان ينبغي عليّ أن أفكر بكم.

- إنه لطف بالغ منك يا عزيزتي.

شعرت أديلا مارتشمونت -بعد أن أصبح الشيك في يدها- بأنها امرأة مختلفة. لقد كانت الفتاة حقاً في منتهى اللطف إزاء هذا الأمر. سيكون من المحرج إطالة المقابلة، ولذلك ودعتها وخرجت. صادفت ديفيد في ممشى الحديقة فقالت بسرور: "أسعدت صباحاً"، ومضت مسرعة.

* * *

الفصل السادس

سأل ديفيد فور دخوله: ما الذي كانت تفعله السيدة هنا؟

- آه يا ديفيد، لقد أرادت مالاً لحاجة ماسة فظيعة. لم أتخيل أبداً...

- وأحسب أنك أعطيتها.

ثم نظر إليها بشيء من اليأس المداعب وقال: ينبغي أن لا أثق بك يا روزالين.

- آه، ديفيد. لم يكن بوسعي الرفض. ففي النهاية...

- في النهاية ماذا؟ كم أعطيتها؟

تمتمت روزالين بصوت خافت: خمسمئة جنيه.

كان من دواعي ارتياحها أن ديفيد قد ضحك قبل أن يقول: مجرد عضة برغوث طفيلي!

- آه، ديفيد. إنه مبلغ كبير!

- ليس كبيراً بالنسبة لنا الآن يا روزالين. يبدو أنك لم تدركي

حقاً بأنك امرأة غنية جداً. ومع ذلك، فإن كانت قد طلبت خمسمئة فقد كان من شأنها أن تقتنع تماماً بمئتين فقط. عليك أن تتعلمي لغة الاقتراض!

تمتمت قائلة: إنني آسفة يا ديفيد.

- يا فتاتي العزيزة، إنه مالك وحدك في نهاية الأمر.

- إنه ليس مالي في حقيقة الأمر.

- لا تبدئي هذه المعزوفة من جديد. لقد مات غوردن كلود قبل أن تتاح له كتابة وصية. هذا ما يسمى حظ اللعبة. نحن كسبنا -أنا وأنت- والآخرون خسروا!

- لا يبدو ذلك... عدلاً.

- هيا يا أختي الغالية الجميلة روزالين، ألا تستمتعين بهذا كله؟ بيت ضخم، وخدم، وجواهر؟ أليس هذا حلماً تحقق؟ أليس كذلك؟ الحمد لله، أحسب أحياناً أنني سأفيق لأجد الأمر حلماً.

ضحكت معه، وأحس بالرضا بعدما راقبها عن كثب. كان يعرف كيف يتعامل مع أخته؛ كان يرى أن من غير المفيد أو المناسب أن يكون لها ضمير، ولكن الأمر كان كذلك. قالت: صحيح تماماً يا ديفيد أن الأمر كالحلم أو كقصة سينمائية. إنني أتمتع بذلك كله فعلاً، أتمتع حقاً.

حذرها قائلاً: ولكن ينبغي أن نحافظ على ما نملكه. لا منح بعد الآن لأسرة كلود يا روزالين. إن كل واحد منهم يملك من المال

أكثر بكثير مما كنت أملك أنا أو أنت.

- نعم، أظن ذلك صحيحاً.

سألها: أين كانت لين هذا الصباح؟

- أظنها ذهبت إلى منزل لونغ ويلوز.

إلى لونغ ويلوز، لرؤية راولي الأبله الأحمق! تلاشت روح الدعابة لديه. هل هي -إذن- مصممة على الزواج بالرجل؟

خرج من المنزل معكر المزاج ومضى عبر مجموعة كثيفة من نبات الأزاليا، ثم خرج من البوابة الصغيرة عند قمة التلة. كان الطريق الترابي ينحدر من هناك إلى أسفل التلة مروراً بمزرعة راولي. وفيما كان ديفيد يقف هناك رأى لين ترتقي قادمة من المزرعة. تردد لحظة، ثم اتخذ وضع المشاكسة والخصام نزولاً لمقابلتها. التقى الاثنان عند درج ترابي في منتصف التلة. بادرها ديفيد قائلاً: صباح الخير. متى العرس؟

- لقد سألتَ ذلك من قبل، وتعرف موعده تماماً. إنه في حزيران.

- وهل أنت ماضية به حتى النهاية؟

- لا أدري ما الذي تعنيه يا ديفيد.

قال: "آه، بلى. إنك تعرفين!". ثم ضحك ضحكة ازدراء وقال: راولي؟ وما هو راولي؟

قالت باستخفاف: إنه أفضل منك. المسه إن كنت تجرؤ.

- ربما كان أفضل مني، ولكنني أجرؤ بالتأكيد. إنني أجرؤ على أي شيء في سبيلك يا لين.

صمتت لحظة ثم قالت أخيراً: أنت لا تدرك أنني أحب راولي.

- ليتني أصدق.

قالت بحماسة: أقول لك إنني أحبه، أحبه.

نظر إليها ديفيد متفحصاً ثم قال: نحن جميعاً نرى صوراً لأنفسنا؛ صوراً لأنفسنا كما نريدها أن تكون. إنك ترين نفسك محبة لراولي، مستقرة مع راولي، تعيشين مع راولي مقتنعة به. ولكن ذلك لا يمثل نفسك الحقيقية، أليس كذلك يا لين؟

- آه، ما هي نفسي الحقيقية؟ بل ما هي نفسكَ الحقيقية إن كان لنا أن نتكلم في ذلك؟ ما الذي تريده أنت؟

- كان من شأني أن أقول إنني أريد الأمان، والهدوء بعد العاصفة، والراحة بعد المتاعب. ولكني لا أدري. أشك أحياناً يا لين بأننا -أنت وأنا- نريد المتاعب.

ثم أضاف باكتئاب: أتمنى لو لم تأتي أبداً إلى هنا. لقد كنتُ سعيداً تماماً حتى جئت أنت.

- ألست سعيداً الآن؟

نظر إليها، فشعرت بالانفعال يتصاعد داخلها، وتسارعت أنفاسها. لم يسبق لها أن أحست بانجذاب ديفيد المكتئب الغريب لها بهذه القوة. مد يده بسرعة وأمسك بكتفيها وأدارها... بعدها، وبنفس السرعة، أحست بقبضته تتراخى وهو يحدق خلفها إلى أعلى التلة. أدارت رأسها لترى ما الذي لفت انتباهه. كانت امرأة تعبر لتوها البوابة الصغيرة لمنزل فوروبانك. قال ديفيد بحدة: من هذه؟

- إنها تبدو فرانسيس.

- فرانسيس؟ وما الذي تريده فرانسيس؟ يا عزيزتي لين! لا يأتي لرؤية روزالين إلا أولئك الذين يريدون شيئاً. وقد أتت والدتك لرؤيتها صباح اليوم.

- أمي؟

تراجعت لين للخلف وقطبت جبينها وقالت: ما الذي أرادته؟

- ألا تعرفين؟ أرادت مالاً.

- مالاً؟

تصلبت لين، فقال ديفيد: وأخذته كما أرادت.

كان الآن يبتسم ابتسامته الباردة القاسية التي كانت تناسب وجهه تماماً. كانا قبل دقيقة أو دقيقتين قريبَين كل من الآخر، أما الآن فهما على بعد أميال وأميال تفصلهما الخصومة والتضاد.

صاحت لين: آه، لا، لا، لا!

قلدها ساخراً: نعم، نعم، نعم.

- لا أصدق ذلك! كم أخذت؟

- خمسمئة جنيه.

سحبت أنفاسها بحدة، وقال ديفيد متسلياً: عجباً، كم ستطلب فرانسيس؟ ليس من الآمن حقاً ترك روزالين بمفردها لخمس دقائق! الفتاة المسكينة لا تعرف كيف تقول: «لا».

- هل جاء آخرون؟ مَنْ غير أمي؟

ابتسم ديفيد ساخراً وقال: العمة كاتي تعرضت لبعض الديون. آه، ليس كثيراً، مجرد مئتين وخمسين كانت كافية لتغطيتها، ولكنها كانت تخشى أن يصل الأمر إلى مسامع الدكتور!

قالت لين بصوت منخفض: كيف ستكون نظرتك لنا!

ثم فاجأته إذ التفتت وركضت مسرعة باضطراب إلى أسفل التلة حيث المزرعة. قطب جبينه وهو يراقبها؛ لقد ذهبت إلى راولي، طارت إلى هناك كما تطير حمامة من الحمام الزاجل عائدة لموطنها، وقد أزعجه ذلك إلى درجة أكبر مما كان يعترف به.

نظر ثانية إلى أعلى التلة وقطب جبينه مفكراً، ثم قال محدثاً نفسه بصوت منخفض: "كلا يا فرانسيس، لن تنالي ما تريدين. لقد اخترتِ يوماً سيئاً". ثم مشى بإصرار إلى أعلى التلة.

دخل البوابة، ومشى عبر نبتات الأزاليا، ثم عبر المرجة العشبية في الحديقة ودخل بهدوء من خلال الباب الزجاجي لغرفة الجلوس

في نفس الوقت الذي كانت فرانسيس تقول: أتمنى لو كان بوسعي توضيح الأمر أكثر من ذلك. ولكن الأمر -يا روزالين- عصي جداً على الشرح...

جاء صوت من خلفها يقول: أهو كذلك حقاً؟

التفتت فرانسيس كلود بحدة. لم تكن فرانسيس -على العكس من أديلا مارتشمونت- قد تقصدت العثور على روزالين بمفردها؛ فقد كان المبلغ المطلوب ضخماً بحيث يجعل من المستبعَد أن تقوم روزالين بإعطائه دون مشاورة أخيها. بل إن فرانسيس كانت تفضّل مناقشة الأمر مع ديفيد وروزالين مجتمعَين؛ فذلك أفضل من أن يحس ديفيد بأنها حاولت الحصول على مال من روزالين أثناء غيابه عن البيت.

لم تسمعه يدخل من خلال الباب الزجاجي المطل على الحديقة، إذ كانت غارقة في طرح قضية يمكن تقبّلها. وقد أجفلتها هذه المقاطعة، كما أدركت أيضاً بأن ديفيد هنتر كان -لسبب ما- في مزاج سيء جداً.

قالت بنبرة هادئة: آه، ديفيد. إنني سعيدة لحضورك. لقد كنت أخبر روزالين لتوي. إن وفاة غوردن قد تركت جيريمي في مأزق فظيع، وكنت أتساءل إن كان بوسعها المبادرة للمساعدة والإنقاذ. إن القضية كالتالي.

وانساب الكلام منها بسرعة وهي تتحدث عن المبلغ الضخم المطلوب، ومساندة غوردن التي وعد بها فعلياً، والضوابط الحكومية، والرهونات...

تحرك في أعماق عقل ديفيد شيء من الإعجاب بهذه المرأة، إذ يا لها من امرأة كذوبة أشِرة! لقد كانت قصتها مقنعة، ولكنها لم تكن الحقيقة. كلا، وهو مستعد لأن يحلف يميناً على ذلك، على أنها ليست الحقيقة! وتساءل: ترى ما هي الحقيقة؟ هل تورط جيريمي في مأزق ما؟ لا بد أن يكون يائساً جداً حتى يسمح لفرانسيس أن تأتي وتجرب هذه المناورة الجريئة. وقد كانت فرانسيس، أيضاً، امرأة ذات كبرياء.

قال ديفيد: عشرة آلاف؟!

تمتمت روزالين بصوت فزع: هذا مبلغ كبير.

سارعت فرانسيس إلى القول: آه، أعرف أنه كبير، وما كنت لآتي إليكما لو لم يكن من الصعب جداً جمع مثل هذا المبلغ. ولكن جيريمي لم يكن ليدخل الصفقة لو لم يكن معتمداً على دعم غوردن. إنه لمن سوء الحظ الكبير أن يموت غوردن على هذا النحو المفاجئ...

أكمل ديفيد بصوت بغيض: ويتركَكم جميعاً هكذا في العراء؟ بعد حياة آمنة تحت جناحه.

ظهرت التماعة خافتة في عيني فرانسيس وهي تقول: إنك تعبّر عن الأمور بطريقة تصويرية جداً!

- ليس بمقدور روزالين أن تتصرف برأس المال نفسه كما تعلمين، بل هي تستطيع التصرف فقط بما تُدرّه التركة من دخل، وهي تدفع مبلغاً هائلاً من الجنيهات ضريبةً للدخل.

- آه، أعرف. الضرائب فظيعة هذه الأيام. ولكن ربما كان بالإمكان تدبير الأمر، أليس كذلك؟ وسوف نفي...

قاطعها قائلاً: بإمكاننا تدبير الأمر، ولكننا لن نفعل!

التفتت فرانسيس بسرعة إلى روزالين، وقالت: روزالين، إنك كريمة...

ولكن صوت ديفيد قطع عليها كلامها: ماذا تحسبون روزالين، أنتم معشر عائلة كلود؟ بقرةً حلوباً؟ كلكم تتكالبون عليها، تلمّحون، وتطلبون، وتشحذون. وخلف ظهرها تسخرون منها وتعاملونها بفوقية وتكرهونها، بل وتتمنون موتها.

صاحت فرانسيس: هذا ليس صحيحاً!

- ليس صحيحاً؟ لقد سئمتكم جميعاً، وهي سئمتكم جميعاً! لن تنالوا منا مالاً، ولذلك توقفوا عن المجيء والتباكي في طلبه؟ هل فهمت؟

كان وجهه قد اسودّ حنقاً وغضباً. وقفت فرانسيس وقد غدا وجهها كالحجر لا تعبير فيه. لبست قفازاً جلدياً بشرود ولكن عن قصد، وكأنه كان تصرفاً ذا مغزى، ثم قالت: لقد أوضحتَ ما تعنيه تمام الوضوح يا ديفيد.

تمتمت روزالين: إنني آسفة، إنني حقاً آسفة.

لم تعرها فرانسيس اهتماماً، وكأن روزالين لم تكن في الغرفة. وسارت خطوة باتجاه الباب الزجاجي ثم توقفت مواجهة لديفيد

وقالت: لقد قلتَ إنني أكره روزالين، وهذا ليس صحيحاً. فأنا لم أكره روزالين أبداً... ولكنني أكرهك أنت!

سألها وهو يحدق إليها عابساً: ماذا تقصدين؟

قالت: إن على النساء أن يعشن. لقد تزوجتْ روزالين رجلاً غنياً جداً يكبرها بسنوات. وماذا في ذلك؟ ولكن أنت! أنت تعيش على حساب أختك، تستغل كل شيء لصالحك وتعيش حياة رغيدة على حسابها.

- إنني أقف حائلاً بينها وبين الطامعين.

وقف الاثنان يتبادلان النظرات. كان يدرك غضبها، ولمعت في ذهنه فكرة أن فرانسيس كلود عدو خطير، عدو ربما كان -في نفس الوقت- متهوراً ومستهتراً لا وازع لديه.

وعندما فتحت فمها لتتكلم بلغ به الأمر أن شعر بلحظة من الخشية والخوف. ولكن ما قالته لم يكن ينم عن أي موقف: "سأتذكر ما قلتَه يا ديفيد". ثم تجاوزته وخرجت من الباب الزجاجي.

تساءل: لماذا شعر بقوة بأن كلماتها كانت تنطوي على تهديد؟

كانت روزالين تصيح: آه ديفيد، ديفيد! ما كان عليك أن تقول لها تلك الأشياء. إنها -من بينهم جميعاً- الألطفُ معي.

أجابها غاضباً: اسكتي أيتها الحمقاء. هل تريدينهم أن يستهينوا بك كلياً ويستنزفوا كل جنيه تملكينه؟

- ولكن المال... ماذا إلّم أكن أملكه عن حق؟

ثم ما لبثت أن تراجعت أمام نظرته وقالت: إنني... لم أقصد ذلك يا ديفيد.

- هذا ما آمله.

ثم فكر بأن الضمير هو الشيطان بعينه! لم يكن قد حسب حساباً لضمير روزالين هذا. ومن شأن ذلك أن يجعل الأمور عسيرة جداً في المستقبل.

المستقبل؟ تجهم وجهه وهو ينظر إليها وترك أفكاره تسرح. مستقبل روزالين، ومستقبله هو. لقد كان دوماً يعرف ما يريد، وهو الآن يعرف ماذا يريد. أما روزالين؟ فما هو المستقبل الذي ينتظر روزالين؟

وفيما ازداد وجهه تجهماً صاحت هي وقد أخذت فجأة ترتجف: آه! إن شخصاً ما يحفر لي قبراً.

قال وهو ينظر إليها باستغراب: إذن فقد أدركتِ أن الأمور قد تصل إلى هذا الحد.

- ما الذي تعنيه يا ديفيد؟

- أعني أن خمسة أشخاص أو ستة لديهم كل الأسباب لكي يستعجلوا دفعك إلى قبرك قبل أن يحين أوان رقودك فيه!

- لا أظنك تعني... القتل؟!

كان صوتها هلعاً ثم قالت: أتظن أن هؤلاء الناس يمكن أن يقتلوا؟ لا أظن أن أناسا لطفاء مثل عائلة كلود يمكن أن يفعلوا ذلك.

- أظن بأن اللطفاء من أمثال عائلة كلود هم فعلاً الذين يقدمون على القتل. ولكنهم لن ينجحوا في قتلك طالما أنا هنا أعتني بك. إذ سيضطرون إلى إبعادي عن طريقهم أولاً. ولكن إن نجحوا في إبعادي عن طريقهم فعليك أن تحذري على نفسك.

- ديفيد، لا تقل مثل هذه الأشياء الفظيعة.

أمسك بذراعها وقال: اسمعي. إن حدث أبداً ولم أكن هنا، فاعتني بنفسك يا روزالين؛ فالحياة ليست آمنة، تذكري... الأمر خطير، خطير جداً. وإنني أرى انه خطير بشكل خاص بالنسبة لك.

* * *

الفصل السابع

- راولي، هل تسمح بإقراضي خمسمئة جنيه؟

حدق راولي إلى خطيبته لين، وقد وقفت هناك تلهث من الركض ووجهها شاحب وفمها مفتوح. جلس كمن يريد تهدئتها، ثم قال وكأنه يخاطب حصاناً: هيا، هيا اهدئي يا امرأة. ما الأمر؟

- أريد خمسمئة جنيه.

- أنا شخصياً بحاجة لمثل هذا المبلغ أيضاً في الواقع.

- راولي! أنا أتكلم بجدية. ألا تستطيع إقراضي خمسمئة جنيه؟

- أنا أصلاً مدين للمصرف؛ فذلك الجزار الجديد...

قاطعته لين وهي تنحي بإشارة من يدها تفصيلات المزرعة: نعم، ولكن بوسعك جمع المال بطريقة ما... إذا ما اضطررت لذلك، أليس كذلك؟

- لماذا تريدين المبلغ يا لين؟ هل أنت في ورطة ما؟

- أريده من أجله.

وأشارت إلى الخلف باتجاه المنزل الضخم في أعلى التلة.

- من أجل هنتر؟ ولماذا بالله عليك؟

- إنها أمي؛ لقد اقترضتُ منه. إنها... إنها في مأزق مالي.

قال راولي بشيء من التعاطف: نعم، توقعت ذلك؛ فظروفها صعبة! ليتني أستطيع المساعدة قليلاً ولكنني لا أستطيع.

- لا أستطيع تحمل اقتراضها من ديفيد!

- كفّي عن ذلك يا عزيزتي. إن روزالين هي -عملياً- من يدفع النقود. ثم لمَ لا؟

- لمَ لا؟ أتقول: «لمَ لا»، يا راولي؟

- لا أرى سبباً يمنع روزالين من المبادرة للمساعدة من وقت لآخر. لقد وضعَنا غوردن العجوز جميعاً في مأزق نضطر معه للاستجداء، وذلك بعدم كتابته لوصية. ولو تم شرح الموقف لروزالين فلا بد أن ترى بنفسها بأن الأمر يتطلب بعض المساعدة.

- لا أظنك اقترضتَ منها؟

- أنا لم أفعل، ولكن ذلك الأمر يختلف؛ إذ لا يمكن أن أذهب وأطلب المال من امرأة. هذا أمر لا يحب المرء الإقدام عليه.

- ألا تستطيع أن تفهم بأنني لا أحب أن أكون... أن أكون مدينة بفضل لديفيد هنتر.

- ولكنك لست مدينة له بأي فضل، فالمال ليس ماله.

- بل هو -بالضبط- ماله عملياً؛ فروزالين طوع بنانه كلياً.

- آه، صحيح. ولكنه ليس ماله قانوناً.

- وأنت لا تريد، لا تستطيع... إقراضي بعض المال؟

- اسمعي الآن يا لين. لو أنك كنت في ورطة حقيقية ما (من قبيل الابتزاز أو الدَّين) فربما كان بوسعي أن أبيع جزءاً من الأرض أو الماشية، ولكن من شأن ذلك أن يكون إجراء يائساً صعباً؛ فأنا -في وضعي الراهن- لا أكاد أستطيع المحافظة على سير الأمور. وبسبب عدم معرفة ما ستأتي به هذه الحكومة، والقيود في كل ركن وزاوية والاستبانات التي أغرق بها وأبقى أحياناً حتى منتصف الليل كي أملأها... كل ذلك كثير على رجل واحد.

قالت لين بمرارة: آه، أعرف. لو أن جوني لم يُقتل!

- دعي جوني خارج الموضوع. لا تتكلمي في ذلك!

حدقت إليه دَهشة. كان وجهه أحمر محتقناً، وبدا أن الغضب أخرجه عن طوره. دارت لين ومضت ببطء عائدة إلى وايت هاوس.

* * *

- ألا يمكنكِ إعادتها يا ماما؟

- آه يا حبيبتي لين! لقد ذهبتُ بالمبلغ مباشرة إلى المصرف، ثم دفعتُ بعدها ديون آرثر وبودغام ونيبويرث. لقد أصبح نيبويرث

في الفترة الأخيرة لحوحاً مزعجاً. آه، يا عزيزتي، لو تعرفين حجم الارتياح! لم أكن قادرة على النوم لليالٍ طويلة. لقد كانت روزالين -حقاً- بالغة التفهم والتلطف في هذا الأمر.

قالت لين بمرارة: وأفترض أنك ستذهبين إليها المرة تلو المرة بعد الآن.

- آمل أن لا يكون ذلك ضرورياً يا عزيزتي. سأحاول أن أكون اقتصادية جداً، وأنت تعلمين ذلك. ولكن كل شيء باهظ الثمن في هذه الأيام، والأمور تزداد سوءاً كل يوم.

- نعم، ونحن أيضاً ستزداد سوءاً كل يوم وتمضي في الاستجداء.

احمرّ وجه أديلا وقالت: لا أظن ذلك وصفاً لطيفاً للأمر يا لين. فكما شرحتُ لروزالين، لقد كنا دوماً نعتمد على غوردن.

قالت لين: ما كان علينا أن نعتمد عليه. هنا يكمن الخطأ. ما كان علينا ذلك. ثم أضافت: إنه محق في احتقارنا.

- من الذي يحتقرنا؟

- ذلك الكريه، ديفيد هنتر.

قالت السيدة مارتشمونت بشيء من الكرامة: لا أرى أهمية أبداً لما يفكر به ديفيد هنتر. ومن حسن الحظ أنه لم يكن في فوروبانك هذا الصباح؛ فأنا أظن أنه لو كان هناك لغيّر رأي تلك الفتاة، فهي -بالطبع- طوعُ بنانه تماماً.

عدلت لين وقفتها من قدم لآخر وقالت: ما الذي قصدتِه يا أمي عندما قلتِ في ذلك الصباح: «إن كان حقاً أخاها»؟

قالت السيدة مارتشمونت وهي محرَجة قليلاً: آه، تلك العبارة. حسناً، لقد انتشر قدر معين من الشائعات...

اكتفت لين بالانتظار المتسائل، فتنحنحت أمها وقالت: ذلك النوع من الشابات، النوع المغامر (وبالطبع فإن غوردن المسكين قد خُدع تماماً)... هذا النوع يكون لديهن دوماً... يكون لديهن شاب خاص بهن خلف الستار. افترضي أنها قالت لغوردن إن لديها أخاً، وأبرقت لهذا الأخ المزعوم في كندا أو حيث هو، وظهر هذا الرجل. أنّى لغوردن أن يعرف أكان أخاها حقاً أم لا؟ المسكين غوردن. لقد تولّه بها تماماً دون شك، وصدق كل ما قالته. وهكذا فإن «أخاها» جاء معهم إلى إنكلترا وغوردن المسكين في غفلة تامة عن أمره.

قالت لين بقسوة: لا أصدّق ذلك، لا أصدق ذلك.

رفعت أمها حاجبيها دهشة وقالت: عجباً لك يا عزيزتي!

- إنه لا يبدو من هذا النوع. وهي... هي أيضاً ليست من هذا النوع. ربما كانت حمقاء مغفلة، ولكنها لطيفة طيبة. نعم، إنها لطيفة بلا ريب. وهذه الإشاعات لا تعدو أن تكون من نسج عقول الناس الفاسدة. إنني لا أصدق هذه القصة.

قالت السيدة مارتشمونت بوقار: لا حاجة حقاً لأن تصرخي.

* * *

الفصل الثامن

بعد أسبوع من ذلك وصل قطار الساعة الخامسة والثلث إلى محطة ورمزلي هيث، ونزل منه رجل برونزيّ اللون، طويلُ القامة يحمل حقيبة ذات حمالات مشدودة إلى ظهره.

وعلى الرصيف المقابل كان عدد من لاعبي الغولف ينتظرون القطار المتجه إلى العاصمة. سلّم الرجل الطويل الملتحي بطاقته وخرج من المحطة. وقف لحظات حائراً، ثم رأى الشاخصة التي كُتب عليها: «طريق ترابي إلى ورمزلي فيل»؛ فتوجه بذلك الاتجاه بخطى سريعة مصممة.

* * *

في منزل لونغ ويلوز كان راولي كلود قد انتهى لتوه من إعداد كوب من الشاي لنفسه عندما وقع على مائدة المطبخ ظلٌ جعله يرفع نظره. ولئن حسب -لأول وهلة فقط- أن الفتاة التي تقف تماماً داخل الباب هي لين، فإن خيبة أمله تحولت إلى دهشة عندما رأى أن الفتاة هي روزالين كلود.

كانت ترتدي ثوباً من قماش فلاحيّ مُقلَّمٍ بخطوط عريضة

برتقالية وخضراء زاهية، وكانت البساطة المصطنعة للثوب قد كلفت من المال أكثر مما يمكن لراولي أن يتخيله.

كان قد اعتاد على رؤيتها دوماً مرتدية ثياباً غالية الثمن، وكانت تلبسها بشيء من التصنع تكاد معه تشبه -كما خُيّل إليه- عارضة أزياء لا تعرض ملابس لها بل للشركة التي تعمل لديها.

أما هذا المساء فقد بدا أنه يرى فتاة جديدة، بهذه التقليمات العريضة الزاهية الفلاحية لثوبها. كان أصلها الإيرلندي أكثر وضوحاً بشعرها الأسود المعقوص، وعينيها الزرقاوين الجميلتين، وحتى صوتها كان ذا نبرة إيرلندية أنعم من النبرات الحذرة المصطنعة التي كانت تتحدث بها عادة. قالت: إنها أمسية جميلة جداً، ولذلك جئت للقيام بنزهة على الأقدام.

ثم أضافت: لقد ذهب ديفيد إلى لندن.

قالت ذلك بشكل يكاد يظهر فيه تعبير عن الشعور بالذنب، ثم تورد خداها وأخرجت من حقيبتها علبة لفافات التبغ. قدمت لفافة لراولي، ولكنه هز رأسه معتذراً ثم أخذ يبحث عن ثقاب ليشعل لها لفافتها فيما كانت تقدح -دون نجاح- قداحة صغيرة ذهبية ظاهرة الفخامة. أخذها راولي منها، وبحركة سريعة قوية اشتعلت.

خطت روزالين خطوة إلى الوراء وقالت بإعجاب: إنه رائع ذلك العجل الذي تمتلكه، هناك في الحقل الأول.

بدأ راولي -وقد أدهشه اهتمامها- يحدثها عن المزرعة. لقد فوجئ باهتمامها، ولكن بدا واضحاً أنه اهتمام أصيل وليس مصطنعاً.

وقد وجد -لدهشته- أنها كانت مُلِمّة بشؤون المزارع، وقد تحدثت عن صنع الزبدة وإنتاج الألبان بكل ألفة.

قال مبتسماً: بوسعك أن تكوني زوجة مزارع يا روزالين.

فارقت الحيوية وجهها وقالت: كانت لنا مزرعة في أيرلندا. قبل أن آتي إلى هنا، قبل...

- قبل أن تذهبي للعمل في المسرح؟

قالت باكتئاب وبقدر ضئيل -كما بدا له- من الشعور بالذنب: لم يكن ذلك منذ وقت طويل جداً. أتذكّر ذلك كله جيداً. ثم أضافت بومضة حيوية: بوسعي أن أحلب لك بقراتك يا راولي، الآن.

كانت تلك امرأة مختلفة تماماً عن روزالين التي يعرفها. هل كان من شأن ديفيد هنتر أن يوافق على هذه الإشارات العرضية للماضي الفلاحي؟ لا يظن راولي ذلك؛ فالانطباع الذي يحاول ديفيد إعطاءه هو انتماؤه -وأخته- إلى طبقة مُلّاك الأراضي الإيرلندية القديمة. وفكر راولي بأن ما يراه الآن من روزالين هو الأقرب إلى الحقيقة: حياة زراعية بسيطة، ثم إغراء المسرح، ثم المجموعة السياحية المتوجهة إلى جنوب أفريقيا والزواج والعزلة في أفريقيا الوسطى... والهرب، ثم فجوة، ثم الزواج أخيراً بمليونير في نيويورك.

نعم، لقد قطعت روزالين هنتر شوطاً طويلاً منذ أن حلبت آخر بقرة. ومع ذلك فإنه وجد من الصعب -وهو ينظر إليها- أن يصدق أنها قطعت حقاً كل ذلك الشوط؛ فقد كان يلوح في وجهها ذلك التعبير البريء الذي يشي بنقص الذكاء. كان وجهها وجه امرأة

ليس لها أي تاريخ، كما بدت صغيرة جداً، أصغر كثيراً مما تعطيها أعوامها الستة والعشرون.

كان فيها شيءٌ ما يجذب المرء؛ كان لها نفس تلك الخاصية المثيرة للشفقة التي رآها في العجول الصغيرة التي قادها إلى الجزار ذلك الصباح. نظر إليها كما نظر إلى تلك العجول عندما فكّر: "يا لهذه العجول المسكينة، من المؤسف أنها لا بد أن تُقتل"!

بدت في عيني روزالين نظرة ذعر. سألت بتململ: ما الذي تفكر فيه يا راولي؟

- أترغبين بتفقد المزرعة ومشغل الألبان؟

- آه، إنني أرغب بذلك حقاً.

صحبها -وقد سُرّ باهتمامها- في كل أنحاء المزرعة. ولكن عندما اقترح أخيراً أن يُعِدّ لها كوباً من الشاي بدا في عينيها تعبير ذعر وقالت: آه، لا؛ شكراً يا راولي. الأفضل أن أعود إلى البيت.

ثم نظرت إلى ساعتها وقالت: "آه، لَكَمْ تأخر الوقت! سيعود ديفيد في قطار الخامسة والثلث فيتساءل عن مكان وجودي. عليّ... عليّ أن أسرع". ثم أضافت بخجل: لقد استمتعتُ حقاً يا راولي.

فكر راولي بأن ذلك كان صحيحاً؛ فقد استمتعت واستطاعت أن تكون طبيعية وتتصرف على سجيتها البسيطة البعيدة عن التصنّع.

كان واضحاً أنها خائفة من أخيها ديفيد. لقد كان هو العقل المفكر في العائلة. حسناً، لقد قضت -ولو لمرة- أمسية خارج

المنزل. نعم، هكذا كان الأمر، أمسية خارج المنزل، تماماً كما يَطْلُبُ خدم المنازل! وهي هذه السيدة الثرية!

ابتسم بتجهم وهو واقف قرب البوابة يراقبها فيما هي تصعد التلة بخطى حثيثة باتجاه منزل فوروبانك، وقبل أن تصل إلى الدرج المخصص لعبور السياج ظهر رجل في أعلاه. وتساءل راولي إذا كان ذلك هو ديفيد، ولكن الرجل كان أكبر وأضخم جسماً. تراجعت روزالين لتفسح له المجال، ثم صعدت الدرج قفزاً ومضت وخطواتها تتسارع حتى تكاد تركض.

نعم، لقد قضت أمسية في إجازة. وهو -راولي- أضاع أكثر من ساعة من الوقت الثمين! حسناً، ربما لم يكن ذلك هدراً. وفكر: "لقد بدا أن روزالين سعدت بصحبته". ربما كان ذلك مفيداً يوماً ما. أمر رائع. نعم، كما أن العجول كانت رائعة أيضاً هذا الصباح... تلك الحيوانات البائسة.

وبينما كان واقفاً هناك غارقاً بأفكاره جفل إذ سمع صوتاً ورفع رأسه بحدة. كان يقف على الممشى، في الجانب الآخر من البوابة، رجل ضخم يضع قبعة عريضة من اللباد وقد علق حقيبة على كتفيه.

- هل هذه هي الطريق إلى ورمزلي فيل؟

ثم كرر سؤاله وراولي يحدق إليه. استعاد راولي -بعد جهد- أفكاره وأجاب: نعم، استمر مباشرة في هذا الدرب، عبرَ ذلك الحقل التالي، ثم استدر يساراً عندما تصل إلى الطريق، وسوف تجد نفسك في القرية في غضون ثلاث دقائق.

كان قد أجاب بنفس هذه الكلمات على السؤال نفسه مئات

المرات؛ إذ كان الناس يسلكون الطريق الترابي من المحطة ويستمرون فيه صعوداً إلى التلة، ثم يفقدون ثقتهم بالطريق عندما ينحدرون من الجانب الآخر فلا يرون أي أثر للقرية لأنها -من هنا- محجوبة عن الأنظار مرمية هناك في وادٍ خلف التلّة.

السؤال التالي لم يكن سؤالاً عادياً كسابقه، ولكن راولي أجاب عليه دون طويل تفكير: إما فندق ستاغ أو فندق بيلز آند موتلي. يمكنك اختيار ستاغ، فهما بنفس الدرجة من الجودة... أو من السوء. أظنك ستجد غرفة شاغرة بالتأكيد.

حمله السؤال على النظر بتركيز أكبر إلى محدثه؛ فالناس في هذه الأيام يحجزون الغرف مسبقاً في أي مكان يذهبون إليه في العادة. كان الرجل طويلاً، ذا وجه برونزي ولحية وعينين شديدتي الزرقة. وكان يقارب الأربعين من عمره، حسن المظهر ولكن تبدو عليه بعض القسوة والتهور. وربما لم يكن وجهه -عموماً- بالوجه الذي يُبهج الناظر إليه.

فكر راولي بأن هذا الرجل يبدو كمن جاء من بلاد بعيدة، وتساءل إن كان قد لاحظ شيئاً من لهجة أهل المستعمرات أو ساكنيها في طريقة كلامه. وكان من الغريب -بشكل ما- أن الوجه كان مألوفاً! أين عساه رأى ذلك الوجه من قبل، أو رأى وجهاً يشبهه كثيراً؟

وبينما كان حائراً في التفكير بتلك المشكلة دون جدوى فاجأه الرجل الغريب سائلاً: هل تستطيع إخباري إن كان يوجد -بالقرب من هنا- بيتٌ يدعى فوروبانك؟

أجاب راولي ببطء: نعم، هناك في أعلى التلة. لا بد أنك مررت

بجانبه... إن كنت قد سلكت الطريق الترابي من المحطة.

- نعم، لقد سلكت ذلك الطريق.

ثم التفت وحدق إلى أعلى التلة، وأضاف: إذن فذلك هو البيت... ذلك البيت الضخم الأبيض الذي يبدو جديداً.

- نعم، ذلك هو.

- بيت ضخم. لا بد أن العناية به تكلف الكثير.

وفكر راولي قائلاً لنفسه: "تكلف الكثير جداً... ومن مالنا نحن!". وثارت داخله نوبة غضب جعلته ينسى نفسه لبرهة، ولكنه سرعان ما عاد إلى نفسه ليجد الرجل الغريب ينظر إلى أعلى التلة وفي عينيه نظرة تأمل غريبة، ثم ما لبث أن سأل: من الذي يعيش هناك؟ أهي سيدة تدعى السيدة كلود؟

- نعم. أرملة الراحل غوردن كلود.

رفع الغريب حاجبيه، وبدا كمن راقت له المعلومة. ثم قال: آه، أرملة غوردن كلود. ذلك رائع بالنسبة إليها! ثم هز رأسه قليلاً وأضاف: شكراً يا صاحبي.

عدّل من وضع الحقيبة التي يحملها ومضى باتجاه ورمزلي فيل. والتفت راولي وعاد يبطء إلى مزرعته وعقله ما يزال حائراً في أمر ما.

تباً. أين عساه رأى ذلك الرجل من قبل؟

* * *

في نحو التاسعة والنصف من تلك الليلة نَحّى راولي جانباً كومةً من الاستمارات التي كانت تغطي طاولة المطبخ ونهض. نظر -وهو شارد الذهن- إلى صورة لين الموضوعة فوق حافة الموقد، ثم غادر المنزل مقطب الجبين.

بعد عشر دقائق دفع راولي باب مقهى فندق ستاغ. ابتسمت تحيةً له بياتريس ليبينكوت وهي تقف خلف طاولة خدمة الزبائن. كانت الآنسة ليبينكوت ترى في راولي كلود رجلاً حسن الهيئة.

تبادل راولي الملاحظات المعتادة مع الحاضرين في المقهى، وصدرت تعليقات تناولت الحكومة والطقس وشؤوناً أخرى مختلفة.

بعدها، اقترب راولي قليلاً بحيث أصبح قادراً على مخاطبة بياتريس بصوت منخفض وقال: هل استضفتم غريباً هنا؟ رجلاً ضخماً بقبعةٍ مُتهدِّلةِ الحاشية؟

- نعم يا سيد راولي. جاء في نحو الساعة السادسة، أهذا الذي تعنيه؟

أومأ راولي بالإيجاب، وقال: مرّ قرب مزرعتي، وسأل عن الطريق.

- نعم، يبدو أنه غريب.

- أتساءل: من عساه يكون؟

نظر إلى بياتريس وابتسم، وابتسمت بياتريس بدورها قائلة:

ذلك سهل يا سيد راولي إن كنت ترغب بمعرفته.

انحنت خلف طاولة الخدمة، ثم عادت لتقف ومعها مجلد جلدي ضخم تُسجَّل فيه أسماء القادمين للإقامة في الفندق. فتحته وقلبت إلى الصفحة التي تضم أحدث ما تم تسجيله من زوار. وكان آخر ما سجل على النحو التالي: «إينوك آردن. كيب تاون، بريطاني».

* * *

الفصل التاسع

كان الصباح رائعاً يُسمع فيه تغريد الطيور حينما نزلت روزالين لتناول إفطارها بثيابها الفلاحية الثمينة وهي تشعر بالسعادة، وبدا أن الشكوك والمخاوف التي نغّصت عليها عيشها في الآونة الأخيرة قد تلاشت. كان ديفيد ذا مزاج جيد، يمازحها ويضحك، وكانت زيارته إلى لندن في اليوم السابق قد حققت نتائج مُرضية. وقد استمتعَ الاثنان بإفطار حسن الإعداد حسن التقديم. وعندما أكملا إفطارهما وصل البريد.

كان في البريد سبع رسائل أو ثمان لروزالين، تضم فواتير ونداءات خيرية، وبعض الدعوات المحلية... ولم يكن فيه ما يثير اهتماماً خاصاً. نحى ديفيد فاتورتين صغيرتين جانباً وفتح المغلف الثالث. كانت الرسالة -شأنها شأن المغلف الخارجي- قد كتبت بأحرف كبيرة واضحة:

عزيزي السيد هنتر،

أرى من الأفضل أن أخاطبك أنت وليس أختك «السيدة كلود» خشية أن تُشكِّل محتويات هذه الرسالة نوعاً من الصدمة لها. إنني -باختصار- أمتلك معلومات عن

الكابتن روبرت أندرهي وربما كانت أختك سعيدة بسماعها. إنني أقيم في فندق ستاغ، وإذا ما زرتني هناك هذا المساء فسأكون سعيداً بمناقشة الأمر معك.

المخلص: إينوك آردن

خرج صوت ديفيد هنتر مخنوقاً من حنجرته. رفعت روزالين نظرها مبتسمة، ولكن وجهها سرعان ما تحول ليظهر فيه الذعر. قالت: ديفيد، ديفيد... ما الأمر؟

مد يده إليها بالرسالة صامتاً، فأخذتها وقرأتها، ثم قالت: ولكن... ديفيد، إنني لا أفهم. ما الذي تعنيه الرسالة؟

- بوسعك أن تقرئي، أليس كذلك؟

نظرت إليه بهلع وقالت: ديفيد، هل يعني ذلك... ما الذي ستفعله؟

كان عابساً يخطط بسرعة بعقله السريع بعيد النظر. قال: لا تهتمي يا روزالين، لا داعي لأن تقلقي. أنا سأعالج الأمر.

- ولكن، هل يعني ذلك أننا...

- لا تقلقي يا طفلتي العزيزة؛ اتركي الأمر لي. اسمعي، هذا ما ينبغي أن تفعليه: احزمي حقيبة على الفور واذهبي إلى لندن. اذهبي إلى الشقة... وابقي هناك حتى أتصل بك، أفهمت؟

- نعم، نعم؛ فهمت بالطبع، ولكن يا ديفيد...

- نفذي فقط ما أقوله يا روزالين.

ثم ابتسم. كان لطيفاً يبعث على الطمأنينة، وأضاف قائلاً: اذهبي واحزمي الحقيبة، سأوصلك إلى المحطة. بوسعك اللحاق بقطار الساعة العاشرة والدقيقة الثانية والثلاثين. أخبري البواب في مجمع الشقق بأنك لا تريدين رؤية أحد، وإذا جاء أحد وسأل عنك فليقل له إنك خارج المدينة، وأعطِه جنيهاً إكرامية له، أفهمت؟ يُفترض أن لا يدع أحداً يصعد إليك باستثنائي أنا.

قالت -منفعلة- ويداها ترتفعان إلى خديها: آه! ونظرت إليه بعينين جميلتين خائفتين.

- لا تخافي يا روزالين. إن في الأمر حيلة ما، وأنت لست بالخبيرة في التعامل مع الحيل والألاعيب. هذا شأني أنا، وأريدك أن تكوني بعيدة عن طريقي حتى أتصرف بحرية، هذا كل ما في الأمر.

- ألا يمكنني البقاء هنا يا ديفيد؟

- بالطبع لا يمكنك يا روزالين. استخدمي عقلك قليلاً. لا بد أن أملك الحرية كي أتعامل مع هذا الرجل كائناً من كان.

- هل تظن أن... أن الأمر...

- إنني لا أظن شيئاً الآن. الأمر المهم أولاً هو إبعادك عن الطريق، وبعدها أستطيع أن أعرف موقفنا. هيا، إنك فتاة طيبة مطيعة، فلا تجادلي.

التفتت وخرجت من الغرفة. قطب ديفيد جبينه وهو ينظر إلى الرسالة في يده. رسالة محايدة تماماً، خالية من أي موقف، مؤدبة، حسنة الصياغة، وتحتمل كل المعاني. ربما كانت تعبيراً عن قلق

واهتمام أصيل بموقف صعب. ربما كانت تهديداً مبطناً. تفحص عباراتها بدقة المرة تلو المرة: «أمتلك معلومات عن الكابتن روبرت اندرهي»، «من الأفضل أن أخاطبك أنت»، «سأكون سعيداً بمناقشة الأمر معك»، «أحبث السيدة كلود»... تباً، لم يُعجبه ذلك التأكيد على تسمية أخته «السيدة كلود».

نظر إلى التوقيع: «إينوك آردن». تحرك شيء ما في عقله، ذكرى شعرية ما... بيت من الشعر.

* * *

عندما دخل ديفيد قاعة فندق ستاغ في ذلك المساء لم يكن في القاعة أحد كالعادة. رأى على الجهة اليسرى باباً كُتب عليه «غرفة القهوة»، وعلى الجهة اليمنى باب كُتب عليه: «الصالة». فيما كان أبعد إلى الأمام باب كُتب عليه بأسلوب قمعي: «للضيوف النزلاء فقط». ورأى يمين الداخل ممر يفضي إلى المشرب تكاد تسمع منه همهمة أصوات خفيفة. وعلى كشك زجاجي كتبت كلمة «المكتب»، وقد ثُبّت جرس صغير يعمل بالضغط على جانب نافذة الكشك المتحركة.

كان ديفيد يعرف -بخبرته- أن على المرء أحياناً أن يقرع الجرس أربع مرات أو خمساً قبل أن يتفضل أحدهم ويأتي لخدمته. وقد كانت قاعة فندق ستاغ -باستثناء فترات قصيرة وقت تقديم الوجبات- مهجورة مقفرة تماماً كجزيرة روبنسن كروزو. أما هذه المرة فقد كان من شأن ثالث قرعة للجرس أن تجعل الآنسة بياتريس ليبينكوت تأتي من المشرب عبر الممر ويدها تربت على شعرها

الذهبي المُسرّح إلى الخلف لتُلزمه تسريحته. انسلت إلى الكشك الزجاجي وحيّت ديفيد بابتسامة مهذبة قائلة: مساء الخير يا سيد هنتر. الجو بارد قليلاً بالنسبة لهذا الوقت من السنة، أليس كذلك؟

- بلى، أحسبه كذلك. هل يقيم هنا سيد يُدعى «آردن»؟

- دعني أفكر.

قالت ذلك متظاهرة بعدم المعرفة على وجه الدقة، وهو إجراء طالما اتبعته باعتباره أسلوباً من شأنه أن يزيد من أهمية الفندق. قالت: آه، نعم. السيد إينوك آردن. الغرفة ٥، في الطابق الأول. لن تتعب في العثور عليها يا سيد هنتر. اصعد الدرج، ولا تمض باتجاه الممر، بل استدر يساراً ثم انزل ثلاث درجات.

وبعد أن اتبع تلك التعليمات المعقدة، قرع ديفيد باب الغرفة رقم ٥، فأجابه صوت يدعوه للدخول.

دخل، وأغلق الباب خلفه.

* * *

خرجت بياتريس ليبينكوت من المكتب وصاحت: "ليلي".

استجابت لندائها فتاة تكتم قهقهة سخيفة تحت عينين شاحبتين كأنهما الحصرم المغلي. قالت لها بياتريس: هل لك أن تبقي قليلاً هنا فعليّ أن أعنى بأمر بعض الشراشف؟

- آه، نعم يا آنسة ليبينكوت.

ثم أطلقت قهقهة وأضافت: إنني أرى السيد هنتر وسيماً جداً. أليس كذلك؟

قالت الآنسة ليبيكوت بلهجة من سئم الحياة: آه، لقد رأيت الكثير من أمثاله أثناء الحرب. طيارون شباب وأشباههم ممن كانوا في قاعدة الطيران. لم أكن أستطيع أبداً التأكد من صحة ما يمنحونه من وعود. لديهم طريقة في التصرف تجعل المرء يثق بهم خلافاً لكل ما تنصحه به مشاعره وغريزته. ولكنني -طبعاً- أختلف عن الآخرين في هذه القضية إذ أن ما يعنيني هو الأصل والمنزلة الاجتماعية، وهو ما أركز عليه دائماً، فالسيدُ سيدٌ حتى وإن كان يقود جراراً زراعياً.

وبهذا الإعلان الذي يجذب الأنظار تركت بياتريس زميلتها ليلي وصعدت الدرج.

* * *

في الغرفة رقم ٥ وقف ديفيد هنتر أمام الباب ونظر إلى الرجل الذي وقع رسالته باسم إينوك آردن.

كان رجلاً في أربعينيات عمره، يبدو من مظهره أنه أمضى حياة تنقّل ومغامرة، وفي شكله ما يوحي بأنه خسر مكانته أو ثروته. إنه -إجمالاً- زبون مختلف من نوع جديد. هكذا كانت فكرة ديفيد الأولى عنه. وفيما عدا ذلك، لم يكن من السهل سبر أغوار الرجل الذي بدا غامضاً.

قال آردن: مرحباً. أنت هنتر؟ حسناً، تفضل اجلس. ماذا تشرب؟ قهوة؟

لاحظ ديفيد أن الرجل يجلس مرتاحاً، فأمامه غلاّية القهوة، والنار تشتعل في الموقد في هذا المساء الربيعي البارد. لم تكن ثيابه إنكليزية التفصيل، ولكنه كان يرتديها كما يرتدي الإنكليزي ثيابه. كما أن الرجل كان بالعمر المناسب أيضاً. أجابه ديفيد: شكراً، سأشرب كوباً من القهوة.

- والسُكر؟

- ملعقة فقط.

كانا أشبه بكلبين إلى حد ما، يناور كل منهما ليحدد موقعه من صاحبه. يدوران حول بعضهما البعض وقد تصلّب ذَنَباهما وانتصب شعر ظهريهما، ووقفا مستعدين لأن يصبحا صديقين، ومستعدين أيضاً للزمجرة والنهش. قال آردن: تفضل.

شرب الاثنان من كوبيهما، وأعاداهما إلى المائدة، ثم استرخيا لحظة. انتهت الجولة الأولى. قال الرجل الذي يدعو نفسه إينوك آردن: هل فاجأتك رسالتي؟

- بصراحة أنا لم أفهمها أبداً.

- حسناً، ربما لم تفهمها.

- فهمت أنك كنت تعرف زوج أختي الأول، روبرت أندرهي.

- نعم، لقد عرفت روبرت حق المعرفة.

كان آردن يبتسم وينفخ سحباً من الدخان في الهواء وهو يسترخي بكسل. أضاف قائلاً: كنت أعرفه كأفضل ما يمكن لامرئ

أن يعرفه. ولكنك لم تقابله يا هنتر، أليس كذلك؟

- نعم؛ لم أقابله.

- آه، ربما كان ذلك أفضل.

سأله ديفيد بحدة: ماذا تعني بذلك؟

أجابه آردن ببساطة: يا صديقي العزيز، ذلك يجعل الأمور كلها أبسط بكثير. هذا كل ما في الأمر. إنني أعتذر من طلبي منك المجيء إلى هنا، ولكنني رأيت من الأفضل إبقاء... إبقاء روزالين خارج الموضوع كله. لا حاجة لأن نسبب لها ألماً هي في غنى عنه.

- هل تسمح بالدخول في الموضوع؟

- طبعاً، طبعاً. حسناً، هل سبق لك أن شككت بوجود... بوجود شيء يبعث على الريبة في موت أندرهي؟

- ماذا تعني بالله عليك؟

- حسناً، لقد كانت تراود أندرهي بعضُ الأفكار الغريبة إلى حدٍ ما. ربما كان الأمر فروسية وشهامة، وربما كانت لديه أسباب أخرى مختلفة تماماً. ولكن لنقل إنه كانت ستنشأ -في لحظة معينة قبل سنوات- منافعُ معينةٌ لمصلحة أندرهي إن تم اعتباره ميتاً. كان ماهراً في قيادة أهالي البلاد الأصليين، كان دوماً ماهراً في ذلك. لم يكن ليجد صعوبة في ترويج قصة محتملة بكل التفصيلات التي تدعم صحتها. وكل ما كان يحتاجه هو الظهور ثانية في مكان يبعد ألف ميل وباسمٍ جديد.

- يبدو هذا افتراضاً في غاية الغرابة.

- حقاً؟ أهكذا تراه حقاً؟

ابتسم آردن، ثم انحنى إلى الأمام وربت على ركبة ديفيد قائلاً: هل لك أن تفترض صحته؟ إيه، هل لك أن تفترض صحته؟

- سيكون من شأني طلب دليل قاطع على ذلك.

- حقاً؟ لا يوجد -بالطبع- دليلٌ نهائيٌ في قطعيته. ولكن يمكن لأندرهي نفسه أن يظهر هنا، في ورمزلي فيل. ما قولك بهذا الأمر دليلاً؟

قال ديفيد بجفاء: سيكون ذلك دليلاً نهائياً على الأقل.

- آه، نعم؛ نهائي ولكنه محرج قليلاً، أعني بالنسبة للسيدة كلود. لا بد أن تعترف بأن ذلك سيكون فظيعاً بعض الشيء؟

- لقد تزوجت أختي للمرة الثانية بكل الإخلاص والنزاهة.

- بالطبع يا صديقي العزيز، بالطبع. إنني لا أجادل لحظة واحدة في ذلك، ومن شأن أي قاضٍ أن يقول الشيء ذاته. لا يمكن أن يوجَّه لها أي لوم فعلي.

قال ديفيد بحدة: قاضٍ؟

قال الآخر وكأنه يعتذر: كنت أفكر بتهمة تعدد الأزواج.

سأله ديفيد بقسوة: ما الذي ترمي إليه بالضبط؟

- لا تنفعل يا صاحبي. كل ما نريده هو أن نُعمِل فكرينا معاً

لنرى أفضل ما ينبغي فعله بالنسبة لأختك بالطبع. لا أحد يرغب بالكثير من الفضائح القذرة. إن أندرهي... إن أندرهي كان دوماً من النوع الشهم.

ثم توقف قليلاً وأضاف: وهو ما زال كذلك.

سأله ديفيد بحدة: ما زال؟

- هذا ما قلته.

- هل تقول أن روبرت أندرهي حي يرزق؟ أين هو الآن؟

- هل تريد حقاً أن تعرف يا هنتر؟ أليس من الأفضل أن لا تعرف؟ لنقل إن أندرهي -بقدر ما تعرف أنت، وبقدر ما تعرف روزالين- قد توفي في أفريقيا. جيد جداً، وإن كان أندرهي حياً فإنه لا يعلم بأن زوجته تزوجت ثانية؛ لأنه لو علم حقاً لكان ظهر، فقد ورثت روزالين أموالاً طائلة من زوجها الثاني، رغم أنه ليس من حقها -طبعاً- أن ترث أياً من تلك الأموال. إن أندرهي رجل يتمتع بإحساس مرهف بالشرف وما كان ليعجبه أن ترث زوجته السابقة أموالاً من خلال ادعاءات ومظاهر كاذبة.

صمت قليلاً ثم أضاف: ولكن من الممكن أن لا يكون لأندرهي أي علم بزواجها الثاني. إن المسكين بحالة سيئة، سيئة جداً.

- ما الذي تعنيه بالحالة السيئة؟

هز آردن رأسه بجدية عابساً وقال: منهار صحياً. إنه بحاجة إلى رعاية طبية... إلى معالجة خاصة. وهي -مع الأسف- مُكلفة.

وقعت الكلمة الأخيرة وقعاً رقيقاً كما لو كانت تقع في تصنيف خاص بها. كانت هي الكلمة التي كان ديفيد هنتر ينتظرها دون وعي منه. قال: مكلفة؟

- نعم؛ إن كل شيء -مع الأسف- يكلف أموالاً، وأندرهي المسكين مُعدم عملياً، لا يملك في الواقع إلا ما يستر جسمه.

للحظة فقط جالت عينا ديفيد في أنحاء الغرفة، ولاحظ حقيبة الكتف معلقة على كرسي، ولم يلحظ وجود حقيبة سفر.

قال ديفيد بصوت عدائي: لا أدري إن كان روبرت أندرهي ذلك السيد الشهم الذي جعلته منه.

سارع الرجل للتأكيد: لقد كان كذلك ذات يوم. ولكن الحياة -كما تعلم- تجعل المرء يشكّ في الطبيعة الخيّرة للبشر.

توقف قليلاً ثم أضاف برقة: لقد كان غوردن كلود رجلاً واسع الثراء، وإنّ مرأى الثروات الضخمة يوقظ في الإنسان غرائزه الدنيا.

نهض ديفيد هنتر وقال: جوابي لك هو: اذهب إلى الجحيم!

قال آردن وهو يبتسم محافظاً على رباطة جأشه: نعم، لقد حسبت أنك ستقول ذلك.

- إنك مبتزٌ مأفون... لا أكثر ولا أقل. إن لي من العقل ما يجعلني أتحدّى زيف هدوئك الخادع.

- أهذا جزائي على ما أفضيت به إليك؟ يا لها من عاطفة تثير

الإعجاب! ولكنك لن تكون مرتاحاً إذ أن أفضيت حقاً بما لدي. وإن كنت لا تريد أن تشتري فإن لدي سوقاً آخر.

- ما الذي تعنيه؟

- عائلة كلود. افرض أنني ذهبت إليهم وقلت: "اعذروني، ولكن هل يهمكم أن تعرفوا أن الراحل روبرت أندرهي حي يرزق؟". إنهم سيقفزون فرحاً بذلك يا صاحبي!

قال ديفيد هنتر باحتقار: أنت لن تحصل منهم على شيء؛ إنهم مفلسون... مفلسون جميعاً.

- آه، ولكن يوجد شيء اسمه ترتيبات عمل. سيتوفر الكثير من الأموال النقدية يوم أن يثبت أن أندرهي حي يرزق، وأن السيدة غوردن كلود ما تزال السيدة روبرت أندرهي، وأن وصية غوردن كلود التي وضعها قبل زواجه لا زالت -لذلك- صالحة قانونياً.

جلس ديفيد صامتاً لبضع دقائق، ثم سأل فجأة بجفاء: كم تريد؟

وجاءه الجواب بنفس السرعة: عشرين ألفاً.

- مستحيل! ليس بوسع شقيقتي أن تلمس شيئاً من أصل أموال التركة، إذ ليس لها إلا فوائد الأموال مدى حياتها.

- عشرة آلاف إذن. بوسعها أن تجمع عشرة آلاف بسهولة. لديها جواهر، أليس كذلك؟

جلس ديفيد صامتاً، ثم قال فجأة: حسناً.

بدا الرجل الآخر -للحظة- حائراً، وكأن سهولة انتصاره قد فاجأته. ثم قال: ولكن لا شيكات. يُدفع المبلغ نقداً.

- ينبغي أن تعطينا بعض الوقت حتى نحصل على المال.

- سأعطيكما ثمانياً وأربعين ساعة.

- اجعلها حتى الثلاثاء القادم.

قال الرجل: "حسناً، ستجلب المال إلى هنا". ثم أضاف قبل أن يستطيع ديفيد التفوه بكلمة: أنا لن أقابلك في غابة موحشة أو على ضفة نهر مهجورة، فلا تفكر بذلك. ستجلب المال إلى هنا، إلى فندق ستاغ، في التاسعة من مساء الثلاثاء القادم.

- أنت من الرجال الشكاكين، أليس كذلك؟

- إنني أعرف طريقي جيداً، كما أعرف أمثالك.

- كما قلتَ إذن.

خرج ديفيد من الغرفة ونزل الدرج ووجهه مسود غضباً. ومن الغرفة رقم ٤ خرجت بياتريس ليبنكوت. كان يصل بين الغرفتين رقم ٤ و ٥ باب لا يمكن أن يلاحظه ساكن الغرفة رقم ٥ لأن خزانة ملابس كانت تقف أمام ذلك الباب.

كانت وجنتا الآنسة ليبينكوت ورديتين وعيناها تلمعان بنشوة الانفعال، وقد مسدت شعرها المسرح إلى الخلف بيد مضطربة.

* * *

الفصل العاشر

كان مجمع شيفرد كورت في منطقة ماي فير مجمعاً ضخماً للشقق الفاخرة. ورغم أن تلك الشقق لم يصبها الدمار بسبب غارات الأعداء، إلا أنها لم تستطع الإبقاء على نفس مستوى الرفاهية الذي كانت توفره قبل الحرب، وقد بقيت الخدمات موجودة رغم عدم تميزها. ففي حين كان يوجد بوابان يرتديان بدلة الخدمة قبل الحرب، بقي الآن بواب واحد. ورغم أن المطعم ما زال يقدم وجباته، إلا أن تلك الوجبات -باستثناء الإفطار- لم تعد ترسل إلى الشقق.

كانت الشقة التي تستأجرها السيدة كلود في الطابق الثالث. وكانت تتألف من غرفة جلوس ذات خزائن بُنيت في أصل الجدار، وغرفتيّ نوم بُنيت خزائن الملابس فيهما أيضاً في أصل الجدران، وحمامٍ مجهزٍ بأفخم التجهيزات يلمع فيه الآجر والكروم.

كان ديفيد هنتر يذرع غرفة الجلوس جيئة وذهاباً، بينما جلست روزالين على كنبة ضخمة تراقبه وقد بدا عليها الشحوب والرعب. تمتم ديفيد قائلاً: ابتزاز! ابتزاز! يا إلهي، أأنا من أولئك الذين يخضعون للابتزاز؟

هزت روزالين رأسها مذعورة قلقة، بينما كان ديفيد يقول: لو أنني أعرف، لو أنني فقط أعرف!

صدر عن روزالين شيء من النشيج البائس، فيما مضى هو قائلاً: المشكلة تكمن في أننا نعمل في الظلام، نعمل معصوبي العينين...

ثم التفت فجأة إليها وقال: هل أخذت حبات الزمرد إلى محل غريتوريكس في شارع بوند؟

- نعم.

- كم سعرها؟

كان صوت روزالين كسيراً وهي تجيبه: أربعة آلاف... أربعة آلاف جنيه. وقد قال إن عليّ إعادة التأمين عليها ما لم أبِعْها.

- نعم، لقد تضاعفت قيمة الأحجار الكريمة الثمينة. حسناً، إن بوسعنا إن نجمع المبلغ. ولكنها -إن فعلنا ذلك- ستكون البداية فقط. سيعني ذلك أننا سنخضع لعملية استنزاف حتى الموت... استنزاف، يا روزالين، حتى تنضب دماؤنا!

صاحت: آه، دعنا نغادر إنكلترا، دعنا نهرب. ألا نستطيع الذهاب إلى إيرلندا؟ إلى أمريكا؟ إلى مكان ما؟

استدار ونظر إليها وقال: أنت لست ممن يقاومون يا روزالين، أليس كذلك؟ شعارك هو: «اضرب واهرب».

قالت نائحة: إننا مخطئان. كل هذا خطأ، خطأ شرير جداً.

- لا تصبحي تقية على حسابي الآن، فأنا لا أطيق ذلك! لقد كنا نعيش على أفضل وجه يا روزالين. كنت أعيش بشكل جيد لأول مرة في حياتي، ولن أسمح لكل ذلك بأن يذهب مني، هل تسمعين؟ بودي فقط لو كان الأمر شيئاً آخر غير هذا الصراع التَعِس في الظلام. إنك تدركين -دون شك- بأن الأمر كله قد يكون مجرد خدعة... مجرد خدعة لا غير. ربما كان أندرهي راقداً في قبره بسلام في أفريقيا كما كنا نظنه دوماً.

ارتعدت وقالت: توقف يا ديفيد، إنك تخيفني.

نظر إليها فرأى الرعب في وجهها، فتغير تصرفه في الحال. اقترب منها وجلس ممسكاً يديها الباردتين بيديه، قائلاً: لا تقلقي. دعي الأمر كله لي وافعلي ما أقوله لك. إن بوسعك تدبير ذلك، أليس كذلك؟ مجرد أن تفعلي ما أقوله لك بالضبط.

- إنني أفعل ذلك دوماً يا ديفيد.

ضحك وقال: نعم، إنك تفعلين ذلك دوماً. سنخرج من هذا الوضع، لا تخافي. سأجد طريقة لوضع حدٍّ للسيد إينوك آردن.

- ألا توجد قصيدة يا ديفيد، أو شعر ما عن رجل يعود...

قاطعها قائلاً: بلى؛ هذا هو تماماً ما يقلقني، ولكني سأحقق في الأمور وأصل إلى جذورها، لا تخافي.

- أهي ليلة الثلاثاء التي ستأخذ فيها المبلغ إليه؟

هز رأسه بالإيجاب، وقال: خمسة آلاف. سأقول له إنني

لا أستطيع جمع الباقي كله فوراً. ولكن ينبغي أن أمنعه من الذهاب إلى عائلة كلود. أظن ذلك كان تهديداً لا غير، ولكنني لا أستطيع التأكد.

توقف، وأصبحت عيناه حالمتين سارحتين بعيداً. وخلف العينين كان عقله يعمل، يمحّص الاحتمالات ويستبعدها. ثم ضحك ضحكة بهيجة متهورة تستخف بالمخاطر. وقد كان من شأن رجال -هم في عداد الموتى- أن يميزوا تلك الضحكة. كانت ضحكة رجل مقدم على الفعل في مهمة محفوفة بالخطر، وكان في الضحكة شيء من الاستمتاع والتحدي. قال: إن بوسعي أن أثق بك يا روزالين، وأحمد الله أنني أستطيع أن أثق بك تماماً.

رفعت إليه عينين واسعتين متسائلتين وقالت: تثق بي؟ تثق بي لفعل ماذا؟

- لتفعلي ما أقوله لك. هذا هو يا روزالين سر أية عملية ناجحة.

ثم ضحك وأضاف: عملية إينوك آردن.

* * *

الفصل الحادي عشر

فتح راولي المغلف البنفسجي الكبير بشيء من الدهشة وتساءل: من عساه يكتب له مُستخدماً مثل هذه القرطاسية، وكيف أُتيح له الحصول على مثلها؟ إنه لمن المؤكد أن مثل هذا الورق الفخم قد نفد خلال الحرب. قرأ الرسالة:

عزيزي السيد راولي،

أرجو أن لا تظن أنني أتخطى بكتابتي إليك بهذه الطريقة حدود اللباقة، ولكن -إن كنت تسمح لي- فأنا أظن أن أموراً تجري وينبغي أن تطلع عليها، إلحاقاً بحديثنا في تلك الأمسية عندما أتيت تسألني عن شخص معين. فإذا ما استطعت القدوم إلى فندق ستاغ فسأكون مسرورة جداً بإخبارك بالأمور كلها. لقد شعرنا جميعاً هنا بمقدار الظلم الفادح في موت عمك وذهاب أمواله بالطريقة التي ذهبت بها.

آمل أن لا تكون غاضباً مني، ولكنني أعتقد حقاً أنك يجب أن تعرف ما يجري.

المخلصة: بياتريس ليبيكوت.

نظر راولي إلى الرسالة والأفكار تتضارب بشدة في رأسه. ماذا عسى هذا الأمر يكون؟ يا لتلك المرأة الرائعة. لقد عرف بياتريس طوال حياته، وكان يشتري التبغ من دكان والدها ويقضي النهار معها خلف طاولة الدكان. كانت فتاة جميلة الشكل، وهو يتذكر كيف سمع -عندما كان طفلاً- شائعات عنها أثناء فترة غيابٍ لها عن ورمزلي فيل. كانت قد غابت لمدة عام تقريباً، وقال الجميع إنها سافرت بهدف وضع طفلٍ غير شرعي. ربما كان ذلك صحيحاً أو غير صحيح، ولكن المؤكد أنها تحظى هذه الأيام باحترام بالغ. صحيح أن لديها الكثير من سلاطة اللسان والضحك السخيف، ولكنها تتمتع باستقامة في سلوكها تكاد تبلغ حد التحرز ومحاسبة الذات.

نظر راولي إلى الساعة، وقرر أن يذهب مباشرة إلى فندق ستاغ، ولتذهب إلى الجحيم كل هذه الاستمارات. أراد أن يعرف ما هو ذلك الشيء الذي تتلهف بياتريس -إلى هذا الحد- على إخباره به.

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة بقليل عندما دفع راولي باب المشرب. وبعد التحيات المعتادة، وإيماءات الرأس بالتحية للحاضرين، وعبارات «مساء الخير يا سيدي» توجه راولي إلى مائدة الخدمة وطلب كوباً من القهوة. أشرق وجه بياتريس ترحيباً به، وقالت: إنني سعيدة برؤيتك يا سيد راولي.

- مساء الخير يا بياتريس، وشكراً على ملاحظتك.

نظرت إليه بسرعة وقالت: سأكون معك بعد قليل.

هز رأسه موافقاً، وشرب قهوته متأملاً يراقب بياتريس تنهي

خدمتها للزبائن. ثم ما لبثت أن التفتت ونادت لكي تأتي زميلتها ليلي وتأخذ مكانها. ثم تقدمت من راولي وتمتمت: هل لك أن تأتي معي يا سيد راولي؟

قادته خلال ممر، ثم من خلال باب كُتبت عليه كلمة «خاص». كانت الغرفة التي أفضى الباب إليها صغيرة جداً وقد حُشرت حشراً بالأثاث والكنبات المخملية، وكان فيها مذياع يصم صوته الآذان، والكثير من نمنمات الخزف الصيني ملقاة على أحد الكراسي ودمية لمهرج بدا وكأنه تعرض لضرب مبرح.

أقفلت بياتريس ليبنيكوت المذياع وأشارت تدعو راولي للجلوس على كنبة مخملية، ثم قالت: إنني سعيدة جداً لحضورك يا سيد راولي، وأرجو أن لا تكون قد وجدت غضاضة في كتابتي إليك، ولكنني كنت أقلّب الأمر في عقلي طوال عطلة نهاية الأسبوع. كما قلت لك، شعرتُ حقاً أنك ينبغي أن تعرف ما يجري.

كانت تبدو سعيدة شاعرة بأهميتها، وبدا واضحاً أنها مسرورة من نفسها. سألها راولي بشيء من الفضول: ما الذي يجري؟

- حسناً يا سيد راولي، إنك تعرف ذلك السيد الذي يقيم هنا... السيد آردن، ذلك الذي جئتَ وسألتَ عنه.

- نعم.

- في الليلة التالية لقدومك تماماً، جاء السيد هنتر وسأل عنه.

- السيد هنتر؟

اعتدل راولي في جلسته اهتماماً.

- نعم يا سيد راولي. وقد أجبتُه أنه في غرفة رقم ٥، فهز السيد هنتر رأسه وصعد مباشرة. ولقد دُهشت لذلك، لأن السيد آردن هذا لم يقل إنه يعرف أحداً في ورمزلي فيل، ولقد سلّمتُ أنا جدلاً -كما يبدو- بأنه غريب هنا ولا يعرف أحداً في هذه المنطقة. وقد بدا السيد هنترٍ معكر المزاج كما لو أن شيئاً حدث وأزعجه، ولكنني بالطبع لم ألقِ بالاً للأمر وقتها.

توقفتْ لتأخذ نفساً. ولم يقل راولي شيئاً، بل اكتفى بالإصغاء. إنه لم يعتد أبداً استعجال الناس، وإن كانوا يحبون أن يأخذوا وقتهم فيما يروونه فلم يكن يجد في ذلك بأساً. مضت بياتريس تتحدث بشيء من الكبرياء: بعد ذلك بقليل، عرض لي ما جعلني أصعد للغرفة رقم ٤ لأطمئن لوضع المناشف وشراشف السرير. وتلك هي الغرفة الملاصقة للغرفة رقم ٥، وفي الحقيقة فإن بين الغرفتين باباً يصلهما لا يستطيع أن يراه ساكن الغرفة رقم ٥ لأن الخزانة الكبيرة تقف أمامه تماماً، وبذلك لا ينتبه لوجوده مَن في تلك الغرفة. والباب -طبعاً- مغلق دائماً، ولكنه كان في هذه المرة مفتوحاً قليلاً... مع أنني لا أعرف من الذي فتحه بالتأكيد.

ومرة أخرى لم يقل راولي شيئاً، واكتفى بأن هز رأسه. وفكر بأن بياتريس هي التي فتحت الباب؛ فقد كانت فضولية، وقد صعدت عامدة إلى الغرفة رقم ٤ لكي تعرف ما يمكنها معرفته.

- وهكذا ترى يا سيد راولي بأنه لم يكن لديّ مهرب من سماع ما كان يجري. وقد بلغ حرجي من ذلك الموقف حداً كان يمكن معه

لريشة طالما أن تطيح بي.

وفكر راولي أن ذلك كان من شأنه أن يتطلب ريشة هائلة جداً. استمع إلى تقريرها المختصر عما تناهى إلى سمعها بوجه لا يبدي أية مشاعر أو حماسة، إلى حدٍّ يكاد يعكس البلاهة. وعندما انتهت انتظرت وهي تترقب رد فعله. وقد استغرق الأمر دقيقتين قبل أن يعود راولي إلى نفسه وينهض قائلاً: شكراً يا بياتريس. شكراً جزيلاً.

وبهذه الكلمات خرج من الغرفة، وشعرت بياتريس وكأنه تم تنفيس ما كانت تحس به من أهمية وزهو. لقد كانت تظن، وهو ما حدثت به نفسها، أنه كان بوسع السيد راولي أن يقول شيئاً ما.

* * *

الفصل الثاني عشر

عندما غادر راولي الفندق قادته خطواته بشكل آلي باتجاه بيته، ولكنه توقف بعدما مشى بضع مئات من الأمتار وعاد أدراجه.

كان عقله بطيئاً في استيعاب الأمور، ودهشته الأولى مما أفضت إليه به بياتريس لم تبدأ في الانحسار إلا الآن، فاسحة المجال أمامه لإجراء تقييم حقيقي لأهمية ما سمعه. فإن كانت روايتُها لما سمعَتْهُ صحيحة -وهو لا يخامره شك في أنها كانت كذلك في جوهرها- فإن موقفاً جديداً قد نشأ ذا صلة وثيقة بكل فرد من عائلة كلود. وإن أفضل من يستطيع التعامل مع مثل هذا الأمر هو عم راولي، جيريمي؛ فمن شأن جيريمي كلود، المحامي، أن يعرف ما هي أفضل استفادة يمكن الحصول عليها من هذه المعلومات المذهلة، وما هي الخطوات التي ينبغي اتباعها.

ومع أن راولي كان يحب أن يتصرف بنفسه لو تُرِكَ الأمر له، إلا أنه أدرك -بشيء من التذمر- أنه سيكون من الأفضل كثيراً بسطُ القضية أمام مُحامٍ بارع مجرّب. وكلما أسرع خطواته نحو منزل جيريمي كان أفضلَ، ولذلك وجه راولي خطواته نحو منزل جيريمي في شارع هاي.

أخبرته الخادمة الصغيرة التي فتحت الباب أن السيد والسيدة كلود ما يزالان على مائدة العشاء. وقد كانت مستعدة لأخذه إليهما، ولكن راولي رفض ذلك قائلاً إنه سينتظر في مكتب جيريمي حتى يفرغ من عشائه. لم يكن يريد -خاصة- أن يُدخل فرانسيس في الحديث. فكلما قلّ عددُ من يعرفون بالأمر كان ذلك أفضل، وذلك حتى يقررا تبني طريقة عمل معينة.

أخذ يذرع مكتب جيريمي جيئة وذهاباً بقلق. رأى أمامه على الرفوف مجاميع من المجلدات القانونية الضخمة، وصورة لفرانسيس وهي ترتدي ثياب السهرة، وأخرى لأبيها اللورد إدوارد تريتتن بلباس الخيالة. وعلى المكتب كانت صورة شاب يرتدي الزي العسكري. أنطوني، ابن جيريمي، الذي قتل في الحرب. رمش راولي بجفنيه ودار ليجلس على كرسي، ثم أخذ يحدق إلى اللورد إدوراد تريتتن.

في غرفة الطعام قالت فرانسيس لزوجها: ترى ماذا يريد راولي؟

قال جيريمي بسأم: ربما كان يُماحك ويعالج بعض القوانين الحكومية؛ فما من فلاح يفهم أكثر من ربع تلك الاستمارات والاستبانات التي يتوجب عليهم ملؤها. وراولي رجل دقيق يتمسك بالضوابط، ولذلك يقلق.

قالت فرانسيس: إنه لطيف، ولكنه بطيء جداً. لديّ إحساس بأن الأمور لا تجري على ما يرام بينه وبين لين.

تمتم جيريمي شارداً: لين؟ آه، نعم، طبعاً. اعذريني، يبدو أنني غير قادر على التركيز. فالإجهاد...

سارعت فرانسيس إلى القول: لا تفكر بالأمر. تأكد أن الأمور ستجري على ما يرام يا جيريمي، أؤكد لك.

- إنك تخيفينني في بعض الأحيان يا فرانسيس. أنت متهورة بشكل فظيع، ولا تكادين تدركين...

- أنا أدرك كل شيء، ولست بخائفة. أتدري يا جيريمي، إنني -في الواقع- أسلي نفسي.

- وهذا يا عزيزتي هو تماماً ما يسبب لي مثل هذا القلق.

ابتسمت وقالت: هيا، ينبغي أن لا تترك ذلك الشاب الفلاح ينتظر طويلاً. اذهب وساعده في ملء الاستمارة رقم أحد عشر ألفاً وتسعة وتسعين، أو أية استمارة غيرها.

ولكن بينما كانا يخرجان من غرفة الطعام، انصفق الباب الأمامي للمنزل وهو ينغلق. وجاءت إدنا الخادمة لتخبرهما بأن السيد راولي قال إنه لن يبقى منتظراً، وإن الأمر لم يكن حقاً يستحق الذكر.

* * *

الفصل الثالث عشر

عصر ذلك الثلاثاء نفسه خرجت لين مارتشمونت في نزهة طويلة سيراً على الأقدام. فمع إحساسها بتنامي القلق وعدم الرضا داخل نفسها شعرت بحاجة لأن تفكر في تلك الأمور بمفردها، وتُخرجها من داخلها بالتفكير فيها.

لم تكن قد رأت راولي لبضعة أيام. فبعد افتراقهما العاصف نوعاً ما في ذلك الصباح حين طلبت منه أن يقرضها خمسمئة جنيه تقابل الاثنان كالعادة. وقد أدركت لين أن طلبها لم يكن معقولاً، وأن راولي كان من حقه تماماً أن يرفضه. ولكن -مع ذلك- فإن المعقولية لم تكن أبداً صفة تروق للعاشقين. كانت الأمور بينها وبين راولي كما هي في الظاهر، أما في الباطن فلم تكن لين واثقة من بقاء الأمور كما هي عليه. لقد وجدت الأيام القليلة الماضية رتيبةً لا تكاد تُحتمل، ومع ذلك لم تكن لترغب بالاعتراف أمام نفسها بأنه ربما كان لرحيل ديفيد هنتر المفاجئ مع أخته إلى لندن علاقة بتلك الرتابة. وقد اعترفت لنفسها بكآبة بأن ديفيد شخص مثير.

أما بالنسبة لأقاربها فقد شعرت في هذه اللحظة أنهم جميعاً مزعجون ومتعبون. كانت أمها في أفضل مزاج لها، وقد أزعجت

لين على مائدة الغداء في ذلك اليوم بإعلانها أنها تحاول العثور على بستاني ثان، قائلة: "إن توم العجوز لا يستطيع مواكبة الأمور هنا".

هتفت لين باستغراب: ولكننا لا نستطيع تحمل أجور بستاني ثانٍ يا عزيزتي.

- أنت مخطئة. إنني أحسب حقاً، يا لين، أنه كان من شأن غوردن أن يشعر بانزعاج شديد لو قُدِّرَ له أن يرى كيف تدهورت أحوال الحديقة. ولقد كان دوماً حريصاً جداً على منظر السياج الشجري، وعلى قص العشب بانتظام، وإبقاء الممرات منظمة. ولكن انظري كيف أصبح ذلك كله الآن؛ أشعر أن غوردن كان سيرغب بتنظيم ذلك ثانية.

- حتى إن اضطررنا لاستدانة المال من أرملته للقيام بذلك.

- لقد أخبرتك يا لين. كانت روزالين في غاية اللطف إزاء الأمر. أحسب -حقاً- أنها فهمت تماماً وجهة نظري. إن حسابي جيد الآن في المصرف بعد أن سددت كل الفواتير، وأظن حقاً أن من شأن بستاني ثان أن يكون عنصر توفير. فكري فيما يستطيع زرعه من خضراوات إضافية.

- بوسعنا أن نشتري من الخضراوات الإضافية أكثر مما يمكن زراعته مقابل مبلغ أقل بكثير من ثلاثة جنيهات أخرى ندفعها أسبوعياً لبستاني جديد.

- أظن أن بوسعنا أن نحصل على بستاني بأجر أقل من ذلك يا عزيزتي. كثير من الرجال يُسرَّحون الآن من الخدمة العسكرية

ويريدون أعمالاً... هكذا تقول الصحف.

قالت لين بجفاء: أشك في أنك ستجدينهم في قرية ورمزلي فيل الصغيرة، أو حتى في منطقة ورمزلي هيث كلها.

ورغم أن القضية انتهت عند هذا الحد، إلا أن نزوع أمها للاعتماد على روزالين كمورد إعالة منتظم بقي هاجساً يطارد لين، ويعيد لها ذكرى كلمات ديفيد الساخرة المزدرية. ولذلك، ونتيجة شعورها بالاستياء وتعكر المزاج انطلقت في مسيرتها لتبدد بالمشي مزاجها السوداوي.

لم يتحسن مزاجها إذ قابلت العمة كاثي خارج مكتب البريد. كانت العمة كاثي تبدو منفتحة عالية المعنويات، وقد بادرت بالقول: أظن يا عزيزتي لين أننا سنتلقى قريباً أخباراً سارة.

- ماذا تعنين بالله عليك يا عمة كاثي؟

هزت العمة كاثي رأسها وابتسمت متصنعة الحكمة، وقالت: لقد أجريت اتصالات مذهلة، مذهلة حقاً. ترقّبي نهاية سعيدة بسيطة لكل متاعبنا. تعرضت جهودي لانتكاسة واحدة، ولكنني بعدها حصلت على الرسالة التي تقضي بأن أحاول وأحاول وأحاول من جديد. وإلّم أتمكن من النجاح في البداية... إنني لن أفضي بأية أسرار يا عزيزتي لين، وإن آخر ما أريده هو إثارة آمال كاذبة قبل الأوان، ولكنني أؤمن أشد الإيمان بأن الأمور ستكون على ما يرام في أقرب وقت، في وقت قريب تماماً. إنني قلقة جداً بشأن خالك؛ فقد عمل بجهد مضاعف أثناء الحرب، وهو -حقاً- بحاجة إلى التقاعد، وإلى تكريس نفسه لدراساته المتخصصة، ولكنه لا يستطيع ذلك طبعاً دون

وجود دخل مناسب. تنتابه أحياناً نوبات عصبية غريبة جداً. إنني قلقة جداً عليه، فهو غريب الأطوار فعلاً.

هزت لين رأسها وهي غارقة بالتفكير. لم يكن قد فاتها إدراك التغير الذي طرأ على ليونيل كلود، ولا التبدل الغريب في حالاته المزاجية. وقد شكّت بأنه كان يلجأ بين الحين والآخر إلى المخدرات بغية تحفيز نفسه، وتساءلت إن كان قد غدا مدمناً إلى حد ما؛ إذ أن من شأن ذلك أن يفسر هياجه العصبي الشديد. وتساءلت عن مدى ما تعرفه أو تخمنه العمة كاثي، إذ كانت لين ترى أن العمة كاثي ليست بذلك الحمق الذي تبدو عليه.

وفيما هي ماضية في شارع هاي لمحت خالها وهو يدخل إلى بيته، ورأت لين أنه بدا أكبر بكثير من عمره الحقيقي في هذه الأسابيع الثلاثة الماضية وحدها. أسرعت في خطوها، وأرادت أن تخرج من ورمزلي فيل لتصل إلى التلال والأرض الخلاء. وعندما انطلقت بخطوات سريعة شعرت بالتحسن. ستذهب في رحلة طويلة على قدميها لستة أميال أو سبعة، وتفكر في أمورها فعلاً. لقد كانت دوماً، طوال حياتها، حازمة عاقدة العزم ذات عقل واضح يعرف ما يريد. وقد عرفت ما أرادته وما لم ترده، ولكنها لم ترض أبداً -حتى الآن- أن تقنع بترك نفسها للظروف تدفعها حيث تشاء.

نعم، هذا هو جوهر القضية: العيش على غير هدى، واتباع أسلوب حياة لا هدف له ولا شكل منذ أن أنهت خدمتها العسكرية!

اجتاحتها موجة من الحنين لأيام الحرب تلك، حيث كانت

الواجبات محددة واضحة المعالم، وحيث كانت الحياة مخططة منظمة، وحيث انزاح عن كاهلها عبء اتخاذ القرارات الفردية. ولكن حتى وهي تصوغ هذه الفكرة أحست بالرعب من نفسها. ترى: هل كان ذلك حقاً وفعلاً ما يشعر به الناس -سراً- في كل مكان؟ هل كان ذلك ما تفعله الحرب حتماً بالمرء؟ لم تكن المشكلة في المخاطر المادية الجسدية؛ في الألغام البحرية أو القنابل المتساقطة من الجو أو أزيز رصاصة بندقية تأتيك وأنت تقود عربة في الصحراء. لا؛ بل كانت الأهمية تكمن في الخطر الروحي المتمثل في تعلم المرء مقدار سهولة الحياة إن هو توقف عن التفكير. بعد أن دخلت الجيش لم تعد لين تلك الفتاة الحازمة الذكية صافية الذهن كما كانت في الماضي. فقد تمت لعقلها عملية تخصص، وتم توجيهه في قنوات محددة بدقة. والآن -وقد عادت ثانية لتصبح سيدة نفسها وحياتها- رؤعت عزوف عقلها عن تحديد مشكلاتها الشخصية الخاصة ومعالجتها.

وبابتسامة ممتعضة مفاجئة فكرت لين مع نفسها: إنه لغريب حقاً إن كان وصف الصحف صحيحاً لشخصية «ربة البيت» التي حققت نفسها من خلال ظروف الحرب. أولئك النسوة اللائي انتصبت في وجوههن آلاف «الممنوعات» دون أية «مسموحات» تعينهن، اللائي اضطررن للتخطيط والتفكير والابتكار، ولاستخدام كل ذرة عبقرية منحها الله لهن، وتطوير عبقرية لم يكن يعلمن أنهن يملكنها! ورأت لين الآن أن أولئك النسوة هن الوحيدات اللائي يستطعن أن يقفن شامخات دون عكازة، مسؤولات عن أنفسهن وعن الآخرين. بينما هي -المتعلمة الذكية التي أدت أدق الأعمال وأصعبها- تقف الآن فاقدة دقة التوجيه، خالية من العزم والإرادة. نعم، يا لها من عبارة

بغيضة: «ترك النفس للظروف»! وماذا عن أولئك القاعدين الذين لزموا البيت والوطن، مثل راولي.

ولكن سرعان ما انتقل عقل لين من العام الغامض المبهم إلى الشخصي المباشر الآني: هي وراولي. تلك هي المشكلة، المشكلة الحقيقية، والوحيدة. هل تريد حقاً أن تتزوج راولي؟

وشيئاً فشيئاً أخذت الظلال تتطاول وتؤذن بالأصيل والغروب. وجلست لين دون حراك وقد أسندت ذقنها إلى راحتيها عند أطراف أيكة على سفح التلة، وسرحت بنظراتها إلى الوادي أسفل منها. لقد غفلت عن تقدير الوقت، ولكنها أحست بتردد غريب في الذهاب إلى بيتها وايت هاوس. وإلى الأسفل منها، بعيداً إلى اليسار كان منزل لونغ ويلوز الذي سيكون بيتها إذا تزوجت براولي.

إذا! ها قد عاد الأمر إلى تلك الأداة... إذا، إذا، إذا!

طار طائر من الأيكة وهو يطلق صيحة جفول كصيحة طفل غاضب. انطلقت سحابة دخان من أحد القطارات وأخذت تلتف في السماء راسمة بالتفافها إشارة استفهام ضخمة: «؟؟؟»

هل أتزوج راولي؟ هل أريد الزواج براولي؟ هل سبق لي أن أردت الزواج براولي؟ هل أستطيع تحمل عدم الزواج براولي؟

نفث القطار دخانه مبتعداً في الوادي، وتمايل الدخان وتلاشى. ولكن إشارة الاستفهام لم تتلاش في عقل لين. لقد أحبت راولي قبل أن ترحل غير أنها قالت لنفسها: "ولكنني عدت إلى الوطن وقد تغيرت. لم أعد نفس الفتاة". وطاف في عقلها سطر من الشعر يقول:

«الحياة والدنيا ونفسي أنا تغيرت». لكن ماذا عن راولي؟ راولي لم يتغير. نعم، هذا صحيح. راولي لم يتغير. وقد وجدَتْهُ حيث تركته قبل أربع سنوات. هل تريد الزواج براولي؟ وإلّم تكن تريد ذلك فما الذي تريده؟

طقطقت الأغصان في الأيكة خلفها، وسُمع صوت رجل يقول: "تباً" وهو يشق طريقه. صاحت لين: ديفيد!

هتف: "لين!"، ونظر إليها مشدوهاً وهو يتقدم خلال النباتات والشجيرات الصغيرة ثم قال: ماذا تفعلين هنا بالله عليك؟

كانت أنفاسه متلاحقة بعض الشيء إذ كان يركض قبل ذلك. قالت: لا أدري. أفكر فقط، جالسة أفكر.

ضحكت حائرة وأضافت: أحسب أن.. أن الوقت أصبح متأخراً.

- أليست لديك فكرة عن الوقت؟

نظرت بشرودٍ إلى ساعة معصمها ثم قالت: لقد توقفت من جديد. إنني كثيراً ما أُخرّب الساعات.

- وتخربين ما هو أكثر من الساعات! إنها الطاقة التي في داخلك، الحيوية، الحياة.

تقدم منها فوقفت مسرعة وقد أحست بارتباك مبهم، وقالت: بدأ يحلّ الظلام؛ عليّ أن أسرع إلى البيت. كم الساعة يا ديفيد؟

- التاسعة والربع. عليّ أن أركض ركض الأرانب لأدرك قطار التاسعة والثلث إلى لندن.

- لم أعلم أنك قد عدت إلى هنا!

- اضطررت لإحضار بعض الأشياء من منزل فوروبانك. ولكن عليّ أن ألحق بهذا القطار فروزالين وحدها في الشقة وهي يطير صوابها إن بقيت وحدها ليلاً في لندن.

- حتى في شقة ضمن مُجمّع له إدارته وخدماته؟

كان في صوت لين ازدراء. أجابها ديفيد بحدة: الخوف لا يعرف منطقاً، وعندما تعانين من تجربة انفجار...

شعرت لين فجأة بالخجل والندم، وقالت: آسفة؛ لقد نسيت.

صاح ديفيد بمرارة مفاجئة: نعم سرعان ما يُنسى الأمر كله. وعودة إلى السلامة، عودة إلى التدجين والحياة الأليفة! عودة إلى حيث كنا عندما ابتدأ العرض كله! نزحف إلى حُفَرنا الصغيرة النتنة لنؤثر السلامة من جديد. وأنت يا لين، أنت مثل الباقين تماماً.

صاحت: لستُ مثلهم... لست مثلهم يا ديفيد! كنت أفكر لتوي، الآن، بك وبراولي.

أجفلتها سرعته. كانت يداه تحيطان بها، وقال: راولي كلود؟ ذلك البليد؟ بالله عليك يا لين... إنك لي أنا.

ثم تركها فجأة بالسرعة التي احتضنها فيها وكأنه يرميها بعيداً

عنه، وقال: "سيفوتني القطار"، وركض مسرعاً باتجاه أسفل التلة.

صاحت: ديفيد...

أدار رأسه وأجابها: سأتصل بك عندما أصل إلى لندن.

راقبته وهو يركض خلال العتمة التي أخذت تتجمع، خفيفاً رياضياً مفعماً بالحسن الطبيعي. ثم مشت ببطء نحو المنزل مرتبكة، وقد اضطرب قلبها على نحو غريب، ودبت الفوضى في عقلها.

ترددت قليلاً قبل دخول البيت، وأحست بالامتعاض من استقبال أمها الحار لها، ومن أسئلتها. أمها التي اقترضت خمسمئة جنيه من أناس تحتقرهم. وفكرت لين وهي تصعد الدرج بكل هدوء قائلة لنفسها: "لا حق لنا في احتقار روزالين وديفيد. إننا مثلهم تماماً، مستعدون لفعل أي شيء، أي شيء في سبيل المال".

وقفت في غرفة نومها تنظر بفضول واستغراب إلى وجهها في المرآة. رأت أن وجهها وجه إنسان غريب. وعندها... فجأة، هزها الغضب، وقالت لنفسها: لو كان راولي يحبني حقاً لكان وفر لي تلك الجنيهات الخمسمئة بطريقة ما. نعم، كان وفرها. وما كان ليتركني أهان بالاضطرار إلى أخذها من ديفيد. ديفيد؟

لقد قال ديفيد إنه سيتصل بها عندما يصل إلى لندن.

نزلت إلى الطابق السفلي تمشي حالمة، وفكرت في أن الأحلام يمكن أن تكون أموراً بالغة الخطورة.

* * *

الفصل الرابع عشر

صاحت أديلا بصوت مبتهج ينم عن الارتياح: آه، ها أنت ذي يا لين. لم أسمعك وأنت تدخلين يا حبيبتي. هل مضى على قدومك زمن طويل؟

- آه، نعم؛ طويل جداً. كنت في الطابق العلوي؟

- ليتك أخبرتني عندما عدت يا لين. إنني أبقى متوترة عصبية عندما تخرجين وحدك وتتأخرين بعد حلول الظلام.

- ما هذا يا أمي، ألا تحسبين أن بوسعي أن أعتني بنفسي؟

- لقد أوردت الصحف قصصاً مخيفة مؤخراً. كل أولئك الجنود المسرّحين... إنهم يهاجمون الفتيات.

- أحسب أن الفتيات من اللاتي يطلبن ذلك.

ثم ابتسمت ابتسامة لوت فيها شفتيها. نعم، إن الفتيات يسعين حقاً إلى الخطر. ومن ذا الذي يريد أن يكون آمناً على كل حال؟

- لين، حبيبتي، هل تصغين إليّ؟

بها وجه راولي العريض الجميل، وابتسامته البطيئة ونظرته المحبة. ولكنها فكرت متسائلة: هل يهتم بها راولي حقاً؟ لو أنه كان يهتم حقاً لكان فهم موقفها في ذلك اليوم عندما أتته وتوسلت من أجل خمسمئة جنيه. كان سيفهم موقفها بدلاً تلك العقلانية والواقعية التي أبداها والتي تكاد تدفع إلى الجنون. تتزوج راولي وتعيش في المزرعة، فلا تسافر ثانية أبداً ولا ترى بلاداً أجنبية، ولا تتحرر بعد ذلك أبداً.

رن جرس الهاتف بحدة. أخذت لين نفساً عميقاً ومشت عبر الصالة فرفعت سماعة الهاتف. وكمن تلقى صفعة، استمعَتْ إلى صوت العمة كاثي يأتي حاداً عبر الأسلاك: لين؟ أهذا أنت؟ آه، كم يسعدني ذلك. أخشى أن أكون قد أفسدت الترتيبات بشأن الاجتماع في المعهد...

ومضى الصوت الحاد المضطرب في الحديث. أصغت لين وقامت بإبداء التعليقات المعترضة والتأكيدات المناسبة، وتلقي عبارات الشكر.

- إنها لراحة عظيمة يا عزيزتي لين أن تكوني دوماً بهذا اللطف وهذه العملية. إنني لا أستطيع حقاً أن أتصور كيف أفسدتُ الترتيبات بهذا الشكل.

لم تستطع ... أيضاً تصور ذلك. إذ أن قدرة العمة كاثي على [illegible] أبسط المسائل وإفسادها تكاد تصل حدود العبقرية. أكملت [illegible] كاثي حديثها: ولكنني أقول دوماً إن الأمور تفسُدُ وتتعقد كلها في وقت واحد. خط هاتفنا معطل، وأنا مضطرة للخروج إلى هاتف عمومي. والآن وأنا هنا ليست لدي قطع نقدية تناسب الهاتف،

ولذلك فأنا مضطرة لأن أذهب وأطلب...

انتهت المكالمة أخيراً. وضعت لين السماعة وعادت إلى غرفة الجلوس. سألت أديلا مارتشمونت بحذر: مَن؟

- العمة كاثي؟

- ماذا أرادت؟

- آه، مجرد قصة من قصصها.

جلست لين ثانية وبيدها كتاب وهي تنظر إلى ساعة الجدار. نعم، ما زال الوقت مبكراً. لم يحن بعد أوان مكالمتها. في الحادية عشرة وخمس دقائق رن جرس الهاتف ثانية.

- أهذه ورمزلي فيل منزل رقم ٣٤؟ هل يمكن للآنسة لين مارتشمونت أن تتلقى مكالمة شخصية من لندن؟

أضاع قلبها دقة من دقاته. قالت: الآنسة لين مارتشمونت تتكلم.

- لحظة من فضلك.

انتظرت، وعلى الخط أصوات متشابكة، ثم ساد الصمت.

كانت خدمة الهواتف تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. انتظرت، ثم ضغطت على السماعة براحتها وقد استبد بها الغضب. بعدها جاءها صوت نسائي آخر ينم عن البرود وعدم الاهتمام: أغلقي السماعة من فضلك. سنتصل بك لاحقاً.

أعادت السماعة وعادت باتجاه غرفة الجلوس، ولكن الجرس رن مرة أخرى وهي تضع يدها على الباب. هرعت عائدة إلى الهاتف. هالو؟

جاءها صوت رجل يقول: ورمزلي فيل ٣٤؟ مكالمة شخصية من لندن للآنسة لين مارتشمونت.

- تكلم.

- لحظة من فضلك. تكلم يا لندن. الخط موصول...

ثم جاء فجأة صوت ديفيد: لين، أهذا أنت؟

- ديفيد!

- كان عليّ أن أتكلم معك.

- نعم...

- اسمعيني يا لين، أظن أن من الأفضل لي أن أسافر.

- ماذا تعني؟

- أسافر من إنكلترا كلها. آه، إنه أمر سهل تماماً. لقد تظاهرت أمام روزالين بأنها مسألة صعبة، وذلك لأنني -ببساطة- لم أرغب بترك ورمزلي فيل. ولكن ما الفائدة من الأمر كله؟ أنت وأنا... لن ينجح الأمر. إنك فتاة رقيقة رائعة يا لين، أما أنا فإنني محتال إلى حد ما، وقد كنت دوماً كذلك. ولا تُمنّي نفسك بالادعاء بأنني سأستقيم من أجلك. ربما قصدت أن أستقيم، ولكن ذلك لن ينجح. كلا، الأفضل لك أن تتزوجي راولي المكافح، فهو لن يمنحك أبداً يوماً واحداً من القلق طوال حياتك، أما أنا فسأعطيك جحيماً.

ظلت واقفة هناك ممسكة بالسماعة لا تقول شيئاً.

- لين، أما زلت معي؟

- نعم، إنني هنا.

- لم تقولي شيئاً.

- وماذا يمكن أن يقال؟

- لين؟

- نعم...؟

غريب كيف تستطيع أن تحس بوضوح -رغم كل هذا البُعد- بانفعاله وتأزم مزاجه.

تمتم بهدوء بكلمات "تباً" وأخواتها، ثم قال منفجراً: "آه، فليذهب كل شيء إلى الجحيم!"، ثم أغلق الخط.

قالت السيدة مارتشمونت وهي تخرج من غرفة الجلوس: من؟

- رقمٌ خطأ.

وصعدت بسرعة إلى الطابق العلوي.

* * *

الفصل الخامس عشر

جرت العادة في فندق ستاغ على إيقاظ النزلاء في أية ساعة يطلبون إيقاظهم فيها بطريقة بسيطة تقضي بقرع الباب بقوة والإعلان عن أنها: «الساعة الثامنة والنصف يا سيدي»، أو: «الساعة الثامنة يا سيدتي»، وحسب مقتضى الحال. ويتم تقديم شاي الصباح إن كان النزيل قد طلب ذلك، ويتم وضعه على قطعة السجاد خارج باب الغرفة، مع قرع الأواني بالملعقة إيذاناً بوجود الشاي عند الباب.

وفي صباح الأربعاء هذا قامت الشابة غلاديس باتباع هذه الترتيبات خارج باب الغرفة رقم ٥، فنادت: "الثامنة والربع يا سيدي" ثم وضعت الصينية بقوة على الأرض مصدرة صوتاً عالياً بحيث اندلق الحليب خارج إبريقه. ثم مضت لحالها توقظ نزلاء آخرين وتمضي لواجباتها الأخرى.

لم تنتبه الفتاة -حتى الساعة العاشرة- إلى أن الشاي المقدم للغرفة رقم ٥ كان باقياً على قطعة السجاد خارج باب الغرفة. قرعت بقوة بضع مرات على الباب، ولما لم تجد جواباً دخلت الغرفة.

لم يكن نزيل الغرفة رقم ٥ من ذلك النوع من الرجال الذين

يصرفهم النوم عن أمورهم، وقد تذكرت -لتوها- بأن سطح الشقة في المبنى المقابل يقع قريباً من شباك الغرفة، وفكرت غلاديس باحتمال أن يكون نزيل الغرفة قد ولى هارباً دون أن يدفع فاتورته. ولكن الرجل الذي سجّل نفسه على أنه إينوك آردن لم يكن قد هرب. كان ممدداً على وجهه وسط الغرفة، ورغم جهلها التام بالطب فإن غلاديس لم يراودها أي شك في أن الرجل كان ميتاً.

تراجعت غلاديس برأسها إلى الخلف وصرخت، ثم انطلقت خارجة من الغرفة، ثم نزلت الدرج وهي ما تزال تصرخ: يا آنسة ليبينكوت... آنسة ليبينكوت... آه!

كانت بياتريس ليبينكوت في غرفتها الخاصة والدكتور ليونيل كلود يضمد جرحاً في يدها. ترك الدكتور الضمادة والتفت بعصبية لدى اقتحام الفتاة الغرفة صائحة: آه، آنسة!

سأل الدكتور بسرعة: ما الأمر؟ ما الأمر؟

وكررت بياتريس: ماذا بك يا غلاديس؟

- إنه السيد في الغرفة رقم ٥. إنه ممدد على الأرض... ميتاً.

حدق الدكتور إلى الفتاة، ثم في الآنسة ليبينكوت التي حدقت بدورها إلى غلاديس ثم إليه. وأخيراً قال الطبيب بارتياب: هراء!

أجابت غلاديس: إنه ميت بالتأكيد. ثم أضافت بشيء من التلذذ: ورأسه مهشم!

نظر الطبيب إلى الآنسة ليبينكوت قائلاً: الأفضل أن أرى.

- نعم، أرجوك يا دكتور كلود. ولكن لا يمكن... يبدو ذلك مستحيلاً.

اندفع الثلاثة إلى الطابق العلوي تتقدمهم غلاديس. ألقى الدكتور كلود نظرة واحدة ثم ركع وانحنى فوق الجسد الممدد. رفع بصره إلى بياتريس، وقد تغير أسلوبه، وأصبح جازماً واثقاً، قال: يحسن بك أن تطلبي الشرطة.

خرجت بياتريس ليبينكوت وتبعتها غلاديس. قالت غلاديس بهمسة مرتاعة: آه، أتظنينها جريمة قتل؟

مسدت بياتريس شعرها الذهبي إلى الخلف بيد منفعلة وقالت بحدة: أمسكي لسانك يا غلاديس. إن القول عن حالة إنها جريمة قتل قبل أن تتأكدي من ذلك يُعتبر قذفاً وتشهيراً يمكن أن تُحالي بسببه إلى المحكمة. وإن انتشار الكثير من الأقاويل لن يفيد الفندق في شيء.

ثم أضافت في تنازل سخي: بوسعك أن تذهبي وتُعدّي لنفسك كوباً من الشاي. أظنك تحتاجينه.

- نعم، إنني أحتاجه حقاً. إنني أشعر بغثيان شديد! سأجلب لك أيضاً كوباً.

الأمر الذي لم تعارضه بياتريس.

* * *

الفصل السادس عشر

نظر المفوض سبنس ملياً عبر الطاولة إلى بياتريس ليبينكوت التي كانت تجلس وقد زمّت شفتيها بإحكام، ثم قال: شكراً لك يا آنسة ليبينكوت. أهذا كل ما تستطيعين تذكّره؟ سأجعلهم يطبعونه لك لتقرئيه، ثم توقعيه إذا سمحت.

- آه، يا عزيزي! أرجو أن لا أكون مضطرة لتقديم شهادة في المحكمة.

ابتسم المفوض سبنس مهدئاً ثم قال كاذباً: نأمل أن لا يبلغ الأمر ذلك.

قالت بياتريس على سبيل الرجاء: ربما كان الأمر انتحاراً.

أمسك المفوض سبنس عن القول بأن المنتحر لا يعمد عادة إلى تهشيم مؤخرة جمجمته بملقط الموقد الفولاذي. بل أجاب بنفس الأسلوب السهل: ليس من المفيد القفز إلى النتائج وإطلاق الأحكام قبل أوانها. شكراً يا آنسة ليبينكوت. لقد أحسنتِ صنعاً إذ تقدمت بهذا البلاغ بمثل هذا الاستعداد.

وعندما خرجت من الغرفة راجع بلاغها بعقله. لقد كان يعرف كل شيء عن الآنسة بياتريس ليبينكوت، ويعرف تماماً إلى أي مدى كبير يمكن الاعتماد على دقتها. وهذا كل ما يمكن قوله عن حديث تم التنصتُ عليه وتذكّره بمثل هذه البراعة. ربما كانت فيه بعض الرتوش الإضافية لغرض الإثارة، وبعض الرتوش القليلة الأخرى لأن جريمة قتل قد ارتُكبت في الغرفة رقم ٥. ولكن -إذا ما تم استبعاد تلك الرتوش- يبقى الجزء الباقي بشعاً ومليئاً بالدلالات.

نظر المفوض سبنس إلى المائدة أمامه: كانت عليها ساعة يد تهشم زجاجها، وقداحة ذهبية صغيرة حفرت عليها الأحرف الأولى لاسم صاحبها، وأحمر شفاه ذو أنبوبة ذهبية، وملقط موقد فولاذي قوي كان رأسه الثقيل ملطخاً بلون بُنيّ مُحمَرّ.

أطل الرقيب غريفز وقال إن السيد راولي كلود ينتظر. أومأ المفوض برأسه فأدخل الرقيب راولي إلى رئيسه. وكما كان المفوض يعلم كل شيء عن بياتريس ليبينكوت، فقد كان يعلم كل شيء أيضاً عن راولي كلود. وإن كان راولي قد أتى إلى مركز الشرطة، فلا بد أن لديه ما يقوله، ولا بد أن ما سيقوله سيكون صحيحاً وموثوقاً وغير خيالي، بل إنه سيكون في الواقع أمراً يستحق الإصغاء. وفي نفس الوقت فإن ما سيقوله سيتطلب وقتاً نظراً للطبيعة التي يتمتع بها راولي. ولا يملك المرء أن يستعجل مثل هذا النوع من الناس، لأنك إن استعجلتهم ارتبكوا وأخذوا يعيدون أقوالهم، واستغرق حديثهم ضعف وقته الطبيعي!

- صباح الخير يا سيد كلود، تسرني رؤيتك. أيسعك أن تلقي

ضوءاً على مشكلتنا هذه؟ مشكلة الرجل الذي قُتل في فندق ستاغ.

لكن ما أثار شيئاً من الدهشة لدى المفوض أن راولي بدأ حديثه بسؤال مفاجئ: هل حددتم هوية الرجل؟

أجاب المفوض سبنس ببطء: كلا، لا يسعني القول إننا حددناها. لقد وقّع في سجل الفندق باسم إينوك آردن. ولكن ليس بحوزته ما يدل على أنه حقاً يدعى إينوك آردن.

عبس راولي وقال: أليس ذلك... غريباً بعض الشيء؟

كان ذلك غريباً جداً، ولكن لم يكن في نية المفوض سبنس أن يناقش راولي كلود في مدى الغرابة التي يراها المفوض. ولذلك قال مازحاً: هيا يا سيد كلود، أنا مَن يطرح الأسئلة. لقد ذهبتَ لرؤية القتيل في الليلة الماضية، لماذا؟

- هل تعرف بياتريس ليبينكوت أيها المفوض؟ التي تعمل في الفندق.

- نعم، طبعاً.

ثم أردف المفوض وهو يأمل أن يختصر قوله الطريق: وقد سمعتُ قصتها؛ أخبرتني بالأمر.

بدا راولي مرتاحاً وقال: حسناً. كنت أخشى أن لا تكون راغبة في الدخول طرفاً في قضية يتابعها الشرطة؛ فهؤلاء الناس غريبون في هذه النقطة أحياناً.

هز المفوض رأسه موافقاً، وتابع راولي: حسناً إذن، لقد حكت

لي بياتريس ما سمعتهُ، وقد بدا ذلك لي -وربما لك أيضاً- أمراً يبعث على الريبة تماماً. أعني أننا... أننا أطراف ذوو مصلحة.

ومرة أخرى هز المفوض رأسه موافقاً. كان المفوض قد أولى اهتماماً شديداً لمسألة وفاة غوردن كلود، واعتبر -شأنه في ذلك شأن الرأي العام المحلي- أن أسرة غوردن قد لقيت معاملة سيئة. وكان يتفق مع الرأي الشائع القائل بأن السيدة غوردن كلود «لم تكن ليدي» وأن أخاها كان واحداً من أولئك الشباب مثيري المشكلات من عناصر القوات الخاصة السابقين، وأن أولئك العناصر -رغم فائدتهم أثناء الحرب- ينبغي النظر إليهم بعين الريبة والحذر.

- لا أحسبني بحاجة لأن أشرح لك -أيها المفوض- بأنه إن كان زوج السيدة غوردن الأول ما يزال حياً فإن ذلك يعني الكثير بالنسبة لنا كعائلة، وقد كانت قصة بياتريس تلك أول خبر أسمعه باحتمال وجود مثل هذه الحالة. لم أحلم أبداً بشيء كهذا. ظننتُ أنها كانت أرملة بكل تأكيد، وبوسعي أن أقول إن القصة هزتني كثيراً، حتى لقد استغرقتُ بعض الوقت لاستيعابها؛ فقد اضطررت إلى ترك الفكرة تختمر كما تعلم.

أومأ سبنس برأسه مرة أخرى. فقد كان بوسعه أن يتخيل اجترار راولي للقضية ببطء وتقليبه لها في عقله مراراً وتكراراً.

- فكرتُ في البداية بأن من الأفضل أن أوكل القضية لعمي، عمي المحامي.

- السيد جيريمي كلود؟

- نعم، ولذلك ذهبت إليه. ولا بد أن ذلك كان بعد الثامنة مساء بقليل. كانوا ما يزالون على مائدة العشاء، فجلست في مكتب جيريمي لأنتظره، ورحت أقلب الفكرة في عقلي.

- نعم، وبعد؟

- ووصلت أخيراً إلى نتيجة مفادها أن عليّ أن أمضي أنا في القضية وأعرف بعض الأمور الإضافية عنها قبل إطلاع عمي عليها. فقد وجدت -أيها المفتش- أن المحامين كلهم سواء؛ فهم بطيئون جداً، حذرون جداً، ويطلبون التأكد تماماً من الحقائق قبل أن يشرعوا في أية قضية. وقد جاءتني المعلومات التي حصلت بطريقة سرية بعض الشيء، فارتبت بأن جيريمي العجوز لا بد أن يتردد ويُسوِّف قليلاً بشأن الاعتماد على تلك المعلومات والتحرك على ضوئها. ولذلك قررت أن أذهب إلى فندق ستاغ وأرى ذلك الرجل بنفسي.

- وهل فعلت ذلك؟

- نعم. عدت مباشرة إلى الفندق.

- في أي وقت كان ذلك؟

فكر راولي وقال: دعني أفكر. لا بد أنني ذهبت إلى بيت جيريمي في نحو الثامنة والثلث، أو أكثر بخمس دقائق... حسناً، لن أستطيع تحديد ذلك بدقة يا سبنس، إلا أنه كان بعد الثامنة والنصف، وربما كان في التاسعة إلا ثلثاً...

- نعم يا سيد كلود، وبعد؟

- كنت أعرف أين يقيم الرجل، فقد ذكرت بياتريس رقم غرفته؛ ولذلك توجهت إليها مباشرة وقرعت الباب، فقال: "ادخل"، فدخلت.

سكت راولي قليلاً ثم مضى قائلاً: بشكل ما، لا أحسب أنني تعاملت مع الموضوع بشكل جيد. فقد ظننت عندما دخلت بأنني أنا صاحب الكلمة العليا. ولكن الرجل كان -دون شك- رجلاً ذكياً. لم أستطع أن أنتزع منه أي اعتراف محدد بنواياه. ولقد ظننت أنه سيخاف عندما لمحت إلى أنه كان يمارس شيئاً من الابتزاز، ولكن ذلك بدا وكأنه قد أفرحه وأثار استمتاعه. وقد سألني -تباً لوقاحته- إن كنت أنا أيضاً قد نزلت السوق.

قلت له: "لا يمكنك أن تلعب لعبتك القذرة معي، فليس عندي أنا ما أخفيه". فقال بوقاحة إن ذلك لم يكن ما قصده من عبارته. قال إن القضية هي أن لديه هو ما يبيعه فهل أنا مشترٍ؟ قلت له: "ما الذي تعنيه؟". فأجاب: "كم بمكنتك، أو بمكن العائلة عموماً، أن تدفع مقابل الدليل القاطع على أن روبرت أندرهي (الذي ذُكر أنه مات في أفريقيا) حيٌّ يرزق وبأحسن حال؟". وسألته لماذا عسانا ندفع أي شيء على الإطلاق؟ فضحك وقال: "لأن لدي زبوناً سيأتيني هذه الليلة ويدفع لي بالتأكيد مبلغاً هائلاً مقابل دليل يؤكد أن روبرت أندرهي ميت!". بعدها، بعدها فقدت أعصابي قليلاً وقلت له إن عائلتي لم تعتد القيام بمثل هذه الأعمال القذرة الملتوية. قلت له إنه إذا كان أندرهي حياً فلا بد أن يكون إثبات ذلك سهلاً. وعند هذه النقطة كنت أهم بالخروج عندما ضحك وقال بنبرة كانت غريبة فعلاً: "لا أظنكم تستطيعون إثبات ذلك دون تعاون مني أنا". قال ذلك بطريقة غريبة.

- وبعدها؟

- حسناً. بصراحة، ذهبت إلى البيت مشوشاً بعض الشيء. شعرت بأنني أفسدت الأمور، وتمنيت لو أنني تركت الأمر لجيريمي العجوز ليعالجه بطريقته. أعني أن المحامي معتاد على التعامل مع زبائن أشقياء محتالين.

- في أية ساعة غادرتَ الفندق؟

- لا أدري، ولكن، لحظة... لا بد أن ذلك كان قبل التاسعة تماماً لأنني سمعت دقات نشرة الأخبار من خلال إحدى النوافذ وأنا أعبر القرية.

- هل تحدّث عن هوية الشخص الذي ينتظره؟ أعني «الزبون»؟

- كلا، ولكنني سلمت جدلاً بأنه ديفيد هنتر. فمن عساه يكون غيره؟

- ألم يبد لك الرجل خائفاً قلقاً من تلك الزيارة بأي شكل؟

- لقد قلت لك إن الرجل كان مسروراً جداً، راضياً عن نفسه، وبكامل الحيوية.

أشار سبنس إلى الملقط الفولاذي الثقيل وقال: هل لاحظت وجود هذا الملقط على مشبك الموقد يا سيد كلود؟

- هذا؟ لا؛ لا أظن ذلك. لم تكن النار موقدة.

ثم قطب جبينه محاولاً تخيل المشهد وأضاف: كان في المشبك

قضبان تحريك النار. أنا واثق من ذلك، ولكنني لا أستطيع القول إنني دققت في أنواعها. أهذا الملقط هو الذي...

أومأ سبنس بالإيجاب وأكمل العبارة: هشم رأسه.

عبس راولي وقال: غريب. إن هنتر رجل رقيق البنية، وكان آردن رجلاً ضخماً قوياً.

قال المفوض بنبرة رسمية جامدة: يقول التقرير الطبي إنه ضُرب من الخلف، وإن الضربات التي سُدّدت برأس الملقط قد ضُربت من الأعلى.

قال راولي متأملاً: لقد كان ذلك الرجل -بالطبع- واثقاً بنفسه إلى حد الاستهتار. ولكن، مع ذلك، ما كنت لأدير ظهري في الغرفة لرجل أحاول امتصاص دمه ابتزازاً، خاصة إن كان قد خاض معارك قتالية ضارية في الحرب. لا شك أن آردن لم يكن رجلاً شديد الحذر.

قال المفوض بتحفظ: لو كان حذراً، لكان المرجح أن تجده حياً الآن.

هتف راولي بحماسة: تمنيت من الله لو كان حياً، فأنا أشعر أنني أفسدت الأمور كثيراً. ولو أنني، فقط، لم أشد رحالي وأخرج، لربما كنت استطعت أن أحصل منه على شيء مفيد ما. كان عليّ أن أتظاهر بأننا دخلنا فعلاً السوق، ولكن الأمر سخيف جداً. أعني: أين نحن من روزالين وديفيد حتى نضارب عليهما؟ فهما من يملك المال، وليس فينا من يستطيع جمع خمسمئة جنية من العائلة كلها.

أخذ المفوض القداحة الذهبية وقال: هل رأيت هذه من قبل؟

ظهر تغضن بين حاجبي راولي، ثم قال ببطء: لقد رأيتها في مكان ما، نعم، ولكنني لا أتذكر أين. قبل فترة بسيطة. لا، لا أستطيع تذكّر ذلك.

لم يقدم سبنس القداحة ليد راولي الممدودة، بل أعادها إلى مكانها وأخذ أحمر الشفاه وأخرجه من علبته وقال: وهذا؟

قهقه راولي وقال: هذا ليس ضمن اهتماماتي أيها المفوض.

مرر المفوض أحمر الشفاه على ظاهر يده بتؤدة، ثم مال برأسه وهو يتفحص أثره وقال: أظنه مما تستعمله السمراوات.

- غريبة هي الأشياء التي تعرفونها معشر الشرطة.

ثم نهض وقال: ألا تعلم بالضبط من كان الرجل الميت؟

- هل لديك أنت أية فكرة يا سيد كلود؟

قال راولي بتمهل: كنت أتساءل فقط. أعني أن هذا الرجل كان دليلنا الوحيد إلى أندرهي. أما الآن، وقد مات، فإن البحث عن أندرهي سيكون كالبحث عن إبرة في كومة من التبن.

- سيذيع النبأ يا سيد كلود. تذكّر أنه مع تقدم القضية سيظهر الكثير من تفصيلاتها في الصحافة. وإن كان أندرهي حياً وقرأ شيئاً حول ذلك فربما تقدم وظهر.

قال راولي بارتياب: نعم، ربما.

- ولكنك لا تظن هذا، أليس كذلك؟

- أظن أن الجولة الأولى قد انتهت لمصلحة ديفيد هنتر.

- من يدري...

وفيما خرج راولي رفع سبنس القداحة الذهبية ونظر إلى الأحرف الأولى المحفورة عليها «د. هـ.»، ثم قال للرقيب غريفز: "إنها قطعة ثمينة، وليست من تلك القداحات التي تُنتج بكميات كبيرة. يمكن التعرف عليها وعلى مصدرها بسهولة. لا بد أنها من محل غريتوريكس أو غيره من محلات شارع بوند. تولّ أنت الاستفسار عنها.

- نعم يا سيدي.

ثم نظر المفوض إلى الساعة اليدوية. كان زجاجها مهشماً وعقرباها يشيران إلى الساعة التاسعة وعشر دقائق. نظر إلى الرقيب وقال: هل تلقيت التقرير بخصوصها؟

- نعم يا سيدي، نابضها الرئيسي مكسور.

- وماذا عن آلية عقاربها؟

- إنها سليمة تماماً يا سيدي.

- ما الذي تقوله لنا هذه الساعة برأيك يا غريفز؟

تمتم غريفز باحتراس: يبدو كما لو أنها يمكن أن تدلنا على وقت وقوع الجريمة.

- آه، عندما تقضي في سلك الشرطة ما قضيته أنا من زمن، ستصبح أكثر شكاً في أي شيء جاهز سهل المنال من قبيل ساعة محطمة. ربما كان الأمر صحيحاً وكان تحطيمها حقيقياً... ولكنها حيلة قديمة معروفة؛ إذ ما عليك إلا إدارة عقارب الساعة إلى الوقت الذي يلائمك، ثم تحطمها، وتخرج بعذر غياب عن مسرح الجريمة وقت وقوعها. ولكنك لا تستطيع تضليل محقق عتيد بتلك الطريقة. إنني أتعامل بحذر فيما يخص وقت ارتكاب هذه الجريمة. الفحص الطبي يقول إنها وقعت بين الثامنة والحادية عشرة ليلاً.

تنحنح غريفز وقال: يقول إدوارد -البستاني في منزل فوروبانك- إنه رأى ديفيد هنتر يخرج من باب جانبي لذلك المنزل نحو السابعة والنصف. ولكن الخادمات لم يكنّ يعرفن أنه كان موجوداً هناك، فقد حسبن أنه كان في لندن مع السيدة غوردن. وهذا يعني -دون شك- أنه كان في المنطقة.

- نعم. سأجد متعة في سماع رواية هنتر نفسه عن تحركاته.

قال غريفز وهو ينظر إلى الحروف الأولى على القداحة: تبدو هذه قضية واضحة يا سيدي.

- نعم، ولكن ما تزال هذه بحاجة إلى تفسير.

وأشار إلى أحمر الشفاه.

- كانت متدحرجة تحت خزانة الأدراج يا سيدي. ربما كانت هناك منذ زمن بعيد.

- لقد دققتُ في ذلك. كانت آخر مرة نزلت امرأة فيها في تلك

الغرفة قبل ثلاثة أسابيع وأنا أعلم أن خدمة الفنادق ليست ممتازة هذه الأيام، ولكنني أحسب -مع ذلك- أنه لا يمكن أن تمر ثلاثة أسابيع دون أن يمرروا ممسحة تحت الأثاث. والقائمون على فندق ستناغ يبقونه نظيفاً تماماً ومرتباً بشكل عام.

- ولكن لم يرد أي ذكر لامرأة تعاملت مع آردن.

- أعرف. ولذلك فإن أحمر الشفاه هذا هو ما أسميه: «الرقم المجهول».

أحجم الرقيب غريفز عن القول: «ابحث عن المرأة» باللغة الفرنسية؛ فقد كانت لغته الفرنسية ممتازة جداً، ولكنه كان أكثر أدباً من أن يزعج المفوض سبنس بلفت انتباهه إلى تفوقه هذا، فقد كان الرقيب غريفز شاباً لبقاً.

* * *

الفصل السابع عشر

رفع المفوض سبنس بصره إلى مجمع شيفردز كورت في منطقة ماي فير قبل أن يدخل البوابة الضخمة المتناسقة. كان المجمع -الذي بُني دون التفات للمظهريات في منطقة شيفرد ماركت- يوحي بالتعقل وارتفاع السعر وعدم لفت الأنظار إليه.

وفي داخل المجمع غرقت قدما سبنس في سجاد طويل الخميلة ناعمها، وكان ثمة مقعد مخملي القماش وحوض مليء بالنباتات المزهرة، وأمامه مصعد وبضع درجات في أحد جانبيه، وإلى يمين الصالة باب كتبت عليه كلمة «المكتب». دفع سبنس الباب ودخل، فوجد نفسه في غرفة صغيرة فيها طاولة لخدمة الضيوف وخلفها طاولة صغيرة وآلة طابعة وكرسيان. كان أحد الكرسيين قرب الطاولة الصغيرة بينما وُضع الآخر -الأكثر فخامة- في وضع مائل مقابل النافذة. ولم يكن في الغرفة أحد.

رأى سبنس جرساً على طاولة خدمة الضيوف المصنوعة من خشب الماغوني، فضغط عليه. ولما لم يستجب أحد ضغط عليه ثانية، وبعد لحظات انفتح باب في الجدار المقابل له، وظهر منه

رجل متألق يرتدي زي الخدمة. وكان مظهره يوحي بأنه جنرال أجنبي أو ماريشال، ولكن لهجته كانت لهجة أهل لندن، بل لهجة الأميين من أهل لندن.

- نعم يا سيدي.

- إنني أبحث عن شقة السيدة غوردن كلود.

- في الطابق الثالث. هل أكلمها بالهاتف قبل أن تصعد؟

- إنها هنا، أليس كذلك؟ كنت أظنها في الريف.

- بل هي هنا منذ السبت الماضي.

- والسيد ديفيد هنتر؟

- والسيد هنتر كان هنا أيضاً.

- ولم يسافر؟

- نعم يا سيدي.

- هل كان هنا ليلة أمس؟

قال «الماريشال» وقد أصبح عدوانياً فجأة: حسناً، ما هذه الأسئلة؟ أتريد أن تعرف تاريخ حياة كل فرد؟

أخرج سبنس بصمت بطاقته الخاصة بالشرطة وعرضها على الرجل الذي سرعان ما استرخى ليصبح أكثر تعاوناً وهو يقول: إنني آسف بالتأكيد. كيف لي أن أخمن عملك؟

- والآن إذن، هل كان السيد هنتر هنا ليلة أمس؟

- نعم يا سيدي، كان هنا. حسب علمي على الأقل. أي أنه لم يقل إنه سيسافر.

- هل كان من شأنك أن تعرف لو أنه سافر؟

- بشكل عام: لا. لا أحسب أنه كان بوسعي أن أعرف. عادة ما يخبرني السادة والسيدات إن كانوا سيغيبون عن المجمع، إذ يوصون بتعليمات معينة بخصوص الرسائل أو بخصوص ما يريدوننا أن نقوله لمن يهاتفونهم.

- هل تمر المكالمات الهاتفية من خلال هذا المكتب؟

- كلا، فلمعظم الشقق خطوطها الهاتفية الخاصة. إلا أن بضعة ساكنين يفضلون عدم وجود خط منفصل لهم، وفي هذه الحالة فإننا نكلمهم بالهاتف الداخلي لينزلوا ويردوا على مكالماتهم من هاتف الصالة.

- ولكن لشقة السيدة كلود هاتفها الخاص، أليس كذلك؟

- بلى يا سيدي.

- وحسب معلوماتك كان الاثنان هنا ليلة أمس؟

- نعم.

- ماذا بشأن وجبات الطعام؟

- يوجد مطعم تابع للمجمع، ولكن السيدة كلود والسيد هنتر لا يرتادانه كثيراً، فهما عادة ما يخرجان لتناول العشاء في الخارج.

- والإفطار؟

- الإفطار يتم تقديمه للشقق.

- أيسعك أن تعرف إن كان قد تم تقديم إفطار لهما هذا الصباح؟

- نعم يا سيدي. أستطيع معرفة ذلك من قسم خدمة الغرف.

هز سبنس رأسه وقال: سأصعد الآن، أخبرني بذلك عند نزولي.

- حسناً يا سيدي.

دخل سبنس المصعد وضغط على زر الطابق الثالث. لم يكن في كل طابق سوى شقتين، وقرع سبنس جرس الشقة رقم ٩. وفتح ديفيد هنتر الباب، ولم يكن يعرف المفوض شكلاً، فخاطبه بجفاء قائلاً: حسناً، ما الأمر؟

- السيد هنتر؟

- نعم.

- أنا المفوض سبنس أيمكنني التحدث معك؟

- عذراً أيها المفوض، ظننتك بائعاً متجولاً. تفضل.

قاده إلى غرفة عصرية جميلة. كانت روزالين كلود تقف قرب

النافذة، والتفتت لدى دخولهما. وقال ديفيد هنتر معرفاً: المفوض سبنس... روزالين. تفضل بالجلوس أيها المفوض. أتشرب شيئاً؟

- كلا، شكراً يا سيد هنتر.

كانت روزالين قد أحنت رأسها قليلاً، والآن جلست وظهرها إلى النافذة، وقد أطبقت راحتيها بإحكام فوق حضنها.

قدم ديفيد لفائف تبغ وقال: هل تدخن؟

أخذ سبنس لفافة وقال: "شكراً"، ثم انتظر. وراقب ديفيد وهو يدس يده في جيبه، ثم يخرجها ويقطب جبينه، ثم ينظر حوله، ثم يأخذ علبة ثقاب وقع عليها نظره. أشعل عود ثقاب وأشعل به لفافة المفوض، ثم أشعل لفافته بدوره وقال بهدوء: حسناً، ما الخطأ الذي حدث في ورمزلي فيل؟ هل تبين أن طباختنا تتعامل بالسوق السوداء؟ إنها تقدم لنا طعاماً رائعاً، وقد كنتُ أتساءل دوماً إن كانت خلف الموضوع قصة شريرة.

أجاب المفوض قائلاً: الأمر أخطر قليلاً من ذلك. لقد مات رجل في فندق ستاغ الليلة الماضية. لعلك قرأت ذلك في الصحف؟

هز ديفيد رأسه بالنفي وقال: لا، لم ألاحظ ذلك. وماذا بشأنه؟

- إنه لم يمت فحسب، بل إنه قُتل. كان رأسه مهشماً!

صدرت عن روزالين شهقة استغراب حاولت كتمها، فقال

ديفيد بسرعة: أرجوك أيها المفوض أن لا تتوسع في التفصيلات، فأختي رقيقة جداً ولا تتحمل ذلك، وإن سمعت ذكر الدماء فقد يُغمى عليها.

- آه، إنني آسف. لم تكن في المسألة أية دماء تذكر، ومع ذلك فقد كانت جريمة قتل بكل تأكيد.

ارتفع حاجبا ديفيد، وقال برقة: إنك تثير اهتمامي. وأين موقعنا نحن من ذلك؟

- كنا نأمل أن تخبرنا بشيء عن هذا الرجل يا سيد هنتر.

- أنا؟

- لقد ذهبت لرؤيته مساء يوم السبت الماضي. كان اسمه إينوك آردن، أو هكذا سجل نفسه في الفندق.

- نعم، بالطبع؛ تذكرت الآن.

كان ديفيد يتكلم بهدوء ودون حرج.

- حسناً يا سيد هنتر؟

- أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك أيها المفوض، فأنا لا أكاد أعرف شيئاً عن الرجل.

- هل كان اسمه إينوك آردن حقاً؟

- أشك كثيراً في ذلك؟

- ولماذا ذهبت لرؤيته؟

- مجرد واحدة من قصص الحظ العاثر المعتادة. فقد ذكر أماكن معينة من أيام الحرب وأناساً... كانت مجرد محاولة لطلب المال كما أظن، وكان ما تبقى أقرب إلى الأعذار الزائفة.

- وهل أعطيته أية أموال يا سيد هنتر؟

أجاب ديفيد بعد لحظة صمت قصيرة جداً: خمسة جنيهات فقط، لجلب الحظ. كان صحيحاً أنه اشترك في الحرب.

- وهل ذكر أسماء معينة تعرفها أنت؟

- نعم.

- هل كان أحد تلك الأسماء الكابتن روبرت أندرهي؟

والآن حصل أخيراً على التأثير الذي يريده، فقد تصلب ديفيد، وأطلقت روزالين من خلفه شهقة خوف بسيطة.

سأل ديفيد أخيراً: ما الذي يجعلك تظن ذلك أيها المفوض؟

كانت عيناه حذرتين تتفرسان. وأجاب المفوض ببرود يخفي مشاعره: معلومات تلقيناها.

ساد صمت قصير كان المفوض يحس خلاله بعيني ديفيد تدرسانه وتقوّمانه، أما هو فقد انتظر بهدوء. وأخيراً سأل ديفيد: هل لديك، أيها المفوض، أية فكرة عمن يكون روبرت أندرهي؟

- أحسب أن عليك أنت أن تخبرني.

- لقد كان روبرت أندرهي الزوج الأول لأختي، وقد مات في أفريقيا منذ عدة سنين.

سأل سبنس بسرعة: ألنت متأكد تماماً من ذلك يا سيد هنتر؟

- متأكد تماماً. هذا ما حدث، أليس كذلك يا روزالين؟

التفت إليها. قالت بسرعة وبأنفاس متلاحقة: آه، بلى؛ لقد مات نتيجة الحمى، حمى البول الأسود. كان ذلك محزناً جداً.

- تنتشر أحياناً قصص لا تكون صحيحة يا سيدة كلود.

لم تقل شيئاً. لم تكن تنظر إليه، بل إلى أخيها. ثم قالت بعد لحظات: روبرت ميت.

قال المفوض: لقد فهمتُ من المعلومات المتوفرة لدي بأن هذا الرجل -إينوك آردن- ادعى أنه صديق للفقيد روبرت أندرهي، وفي نفس الوقت أخبرك يا سيد هنتر بأن روبرت أندرهي على قيد الحياة.

هز ديفيد رأسه نافياً وقال: هذا هراء، هراء تماماً.

- هل تجزم تحديداً بأن اسم روبرت أندرهي لم يُذكر؟

ابتسم ديفيد ابتسامة ساحرة وقال: آه، لقد تم ذكره. كان ذلك الرجل المسكين قد عرف أندرهي.

- ألم تكن في الأمر قضية... ابتزاز، يا سيد هنتر؟

- ابتزاز؟ إنني لا أفهمك أيها المفوض.

- أحقاً لا تفهمني يا سيد هنتر؟ بالمناسبة، ومن باب المحافظة

على الشكليات: أين كنت ليلة أمس... لنقل: بين الساعة السابعة والحادية عشرة؟

- ولنفترض -من باب الشكليات- أنني رفضتُ الإجابة؟

- ألست تتصرف بشيء من الطفولية يا سيد هنتر؟

- لا أظن. إنني أكره، وقد كرهت دوماً، أن يستأسد عليّ أحد.

شعر المفوض أن ذلك ربما كان صحيحاً. لقد سبق له أن عرف شهوداً من أمثال ديفيد هنتر. شهوداً كانوا يعرقلون التحقيقات لمجرد حبهم لعرقلتها، وليس -أبداً- نتيجة إخفائهم لحقائق معينة. كان يبدو أن مجرد الطلب منهم أن يفسروا غُدوّهم ورواحهم كفيل بأن يثير في نفوسهم كبرياء وعناداً متصلباً، بحيث يضعون جُلّ اهتمامهم في إثارة كل ما يستطيعونه من مشكلات في مجرى العدالة. ورغم أن المفوض سبنس يفخر بنفسه لتمتعه بعقل منصف متفتح، إلا أنه -مع ذلك- جاء إلى هذا المجمع وفي ذهنه قناعة راسخة بأن ديفيد هنتر قاتل. والآن يشعر للمرة الأولى بأنه غير واثق من ذلك. وقد أيقظت الشكوكَ لديه الصبيانيةُ نفسُها التي ميزت تمرد ديفيد وتحديه.

نظر سبنس إلى روزالين كلود التي استجابت فوراً وقالت لأخيها: ديفيد، لماذا لا تخبره؟

أضاف المفتش تعقيباً على كلامها: صحيح يا سيدة كلود؛ لا نريد إلا توضيح الأمور.

انفجر ديفيد غاضباً: لا بد أن تكف عن التقوّي على أختي،

اسمعت؟ وماذا يهمك مكان وجودي إن كان هنا، أو في ورمزلي فيل، أو في أقصى الدنيا؟

قال سبنس محذراً: سوف يتم استدعاؤك لاستجواب المحكمة يا سيد هنتر، وهناك ستضطر للإجابة على الأسئلة.

- سأنتظر الاستجواب إذن! والآن -أيها المفوض- هلاّ غربت عن وجهي؟

نهض المفوض هادئاً رابط الجأش وقال: حسن جداً يا سيدي، ولكن لديّ سؤال للسيدة كلود قبل ذلك.

- لا أريد إزعاج أختي.

- بالتأكيد. ولكنني أريدها أن تلقي نظرة على الجثة وتخبرني إن كان بوسعها التعرف إلى الرجل، وأنا أتحدث هنا ضمن حقوقي. هذا أمر لا بد أن يتم عاجلاً أم آجلاً، فلماذا لا تدعها تأتي معي الآن وتنتهي من الموضوع؟ لقد سمع أحد الشهود السيد آردن يقول إنه كان يعرف روبرت أندرهي، ولذلك فربما كان يعرف السيدة أندرهي أيضاً، وربما كانت السيدة أندرهي تعرفه. وإذا لم يكن اسمه إينوك آردن فمن المفيد أن نعرف ما هو اسمه حقاً.

نهضت روزالين على غير توقع وقالت: سوف آتي بالطبع.

توقع سبنس موجة غضب جديدة من ديفيد، ولكن ما أدهشه أن ديفيد ابتسم وقال: ذلك جيد يا روزالين، وعليّ أن أعترف بأنني شخصياً فضوليٌّ لمعرفة الأمر؛ إذ يمكنك -في نهاية المطاف- أن تضعي اسماً لذلك الرجل.

قال لها سبنس: ألم تشاهديه أنت في ورمزلي فيل؟

هزت رأسها قائلة: أبداً؛ فأنا هنا منذ يوم السبت الماضي.

- وقد وصل آردن ليلة الجمعة. نعم.

سألت روزالين: أتريد أن أذهب الآن؟

طرحت سؤالها بشيء من خنوع طفلة صغيرة، وقد أثر ذلك إيجابياً على المفوض رغماً عنه؛ فقد كان فيها من الطواعية والاستعداد ما لم يكن يتوقعه. قال لها: سيكون ذلك لطفاً كبيراً منك يا سيدة كلود، فكلما توصلنا إلى إثبات الحقائق نهائياً بشكل مبكر كان ذلك أفضل. ولكن ليس معي سيارة شرطة.

عبر ديفيد الغرفة باتجاه الهاتف قائلاً: سأتصل بمكتب تأجير السيارات. ربما كان استئجار السيارة خارج صلاحياتك القانونية، ولكني أحسب أنك تستطيع ترتيب ذلك أيها المفوض.

- أحسب أن ذلك ممكن يا سيد هنتر.

ثم نهض وقال: سأكون في انتظاركما في الطابق السفلي.

نزل بالمصعد وفتح ثانية باب المكتب. كان «الماريشال» في انتظاره، فسأله: حسناً، ماذا وجدت؟

- لقد تم استخدام كلا السريرين في الليلة الماضية يا سيدي، وكذلك الحمامات والمناشف، وقُدم لهما الإفطار في الشقة في الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

- ألا تعرف في أية ساعة عاد السيد هنتر ليلة أمس؟

- أخشى أنني لا أملك أية معلومات إضافية يا سيدي.

رأى سبنس أن مهمته مع «الماريشال» قد انتهت. وتساءل إن كان من سبب لرفض ديفيد الكلام غير ذلك التحدي الصبياني البحت. إن عليه أن يدرك بأن تهمة قتل تحوم حوله، وعليه -بالتأكيد- أن يفهم بأن إسراعه في الإدلاء بشهادته إنما هو أفضل له؛ إذ ليس من الحكمة في شيء أن يستعدي المرء الشرطة عليه. ولكنه أحس بأن استعداء الشرطة هو بالضبط ما يجد فيه ديفيد هنتر متعة كبيرة.

لم يتكلم الثلاثة إلا قليلاً أثناء الطريق وعندما وصلوا إلى المشرحة كانت روزالين كلود شاحبة تماماً ويداها ترتجفان. وبدا ديفيد قلقاً عليها، وأخذ يحدثها كما لو كانت طفلة صغيرة: لن يستغرق الأمر إلا دقيقة أو اثنتين يا عزيزتي. لا شيء مزعج أبداً، فلا تقلقي. اذهبي مع المفوض وسأنتظركما. لا يوجد أي داع للقلق؛ ستجدينه هادئاً أشبه بالنائم.

أومأت له برأسها ومدت له يدها التي ضغط عليها مشجعاً وقال: كوني فتاة شجاعة يا عزيزتي.

وفيما هي تتبع المفوض قالت بصوتها الرقيق: لا تحسبني جبانة جداً أيها المفوض. ولكن عندما يموت جميع من في البيت، يموتون جميعاً باستثنائي أنا. يا لتلك الليلة الفظيعة في لندن!

قال ملاطفاً: إنني أفهم يا سيدة كلود. أعلم أنك مررت بتجربة مريرة أثناء الغارات الألمانية عندما قتل زوجك، ولكن الأمر لن يستغرق -حقاً- إلا لحظات قليلة.

وبإشارة من سبنس تم رفع الغطاء عن رأس الجثة، ووقفت روزالين كلود تنظر إلى الرجل الذي سمى نفسه إينوك آردن، فيما وقف سبنس جانباً دون تدخل وهو يراقبها بكل انتباه.

نظرت إلى الميت بفضول أقرب إلى الحيرة. لم تبدُ عليها أية مفاجأة أو أي مؤشر لعاطفة أو تعرّف على الميت، بل مضت تنظر إليه لفترة طويلة وهي متعجبة. ثم قالت بكل هدوء وواقعية: ليرحمه الله. إنني لم أرَ هذا الرجل في حياتي، ولا أعرف من هو.

فكر سبنس مع نفسه قائلاً: إما أن تكوني من أفضل الممثلات اللاتي عرفتهن أو أنك تقولين الحقيقة.

وفيما بعد اتصل سبنس براولي كلود وقال له: لقد أخذتُ الأرملة إلى المشرحة وهي تجزم بأنه ليس روبرت أندرهي، وأنها لم تره أبداً من قبل، وهذا ينهي القضية.

ساد الصمت قليلاً، ثم قال راولي ببطء: هل ينهيها حقاً؟

- أحسب أن من شأن أية هيئة محلفين أن تصدقها، في غياب ما يناقض ذلك بالطبع.

قال راولي: "نعم"، ثم أقفل السماعة.

بعدها التقط راولي -وهو يقطب جبينه- دليل الهاتف الخاص بلندن، وليس الدليل المحلي، ثم مضت أصابعه بسرعة إلى الحرف «ب»، وسرعان ما وجد ضالته.

* * *

الكتاب الثاني

الفصل الأول

طوى هيركيول بوارو بعناية آخر صحيفة من الصحف التي أرسل خادمه جورج لإحضارها. كانت المعلومات التي أوردتها تلك الصحف قليلة؛ فقد ذُكر في التقرير الطبي أن جمجمة الرجل قد تم اختراقها بسلسلة من الضربات القوية. وقد تم تأجيل الاستجواب لمدة أسبوعين، وطُلب من كل من يستطيع الإدلاء بمعلومات عن رجل يدعى إينوك آردن -يُعتقد أنه وصل مؤخراً من كيب تاون- أن يتصل برئيس شرطة أوستشير.

وضع بوارو الصحف على شكل رزمة مرتبة وأسلم نفسه للتأمل. كان مهتماً بالموضوع. ربما كان من شأنه أن لا يقف طويلاً عند الفقرة الصغيرة الأولى لولا الزيارة الأخيرة للسيدة ليونيل كلود. ولكن تلك الزيارة قد ذكرته -بكل وضوح- بأحداث ذلك اليوم في النادي خلال الغارة الجوية. تذكر -على نحو واضح- صوت الميجر بورتر وهو يقول: "ربما رأيتني أظهر باسم «إينوك آردن» في مكان ما على بعد ألف ميل للبدء بحياة جديدة". وشعر أنه يريد الآن -جاهداً- أن يعرف المزيد عن هذا المدعو «إينوك آردن» الذي خر صريعاً قتيلاً في ورمزلي فيل.

تذكر أنه يعرف المفوض سبنس من شرطة أوستشير معرفة عابرة، كما تذكر أيضاً بأن الشاب ميلون يعيش على مقربة من ورمزلي هيث، وأنه يعرف جيريمي كلود. وفيما هو يفكر في إجراء مكالمة هاتفية مع ميلون دخل خادمه جورج وأعلن أن شاباً يدعى راولي كلود يرغب برؤيته.

هتف بوارو بارتياح: آه، أدخله.

دخل شاب وسيم قلق القسمات، بدا حائراً كيف يبدأ حديثه، فقال بوارو مشجعاً: حسناً يا سيد كلود، بماذا أستطيع مساعدتك؟

كان راولي كلود يتأمل بوارو بشيء من الريبة: الشاربان الكثان الضخمان، وأناقة الملابس، والواقيات البيضاء على الحذاء كيلا يتسخ، ثم الحذاء الجلدي المدبب... كل ذلك ملأ نفس هذا الشاب القروي ضيق الأفق بمشاعر محددة من الريبة وعدم الثقة. ولقد أدرك بوارو تماماً ما كان في خلد الشاب، وشعر بشيء من السرور لذلك.

بدأ راولي حديثه بشيء من الهم: أخشى أنني مضطر لشرح من أنا وما إلى ذلك. إنك لا تعرف اسمي، و...

قاطعه بوارو: لا، إنني أعرف اسمك تماماً؛ فقد جاءت عمتك لمقابلتي الأسبوع الماضي.

- عمتي؟

فغر راولي فمه، ونظر إلى بوارو بدهشة بالغة، وبدا واضحاً لبوارو أن ذلك كان -حقاً- خبراً جديداً لراولي، بحيث استبعد بوارو حدسه الأول بأن الزيارتين مرتبطتان ببعضهما البعض. بدا له الأمر

-لوهلة- مصادفة كبرى؛ أن يعمد اثنان من عائلة كلود إلى استشارته خلال فترة زمنية قصيرة كهذه، ولكنه سرعان ما أدرك بأنه لم تكن في الأمر مصادفة، وهو لا يعدو أن يكون تسلسلاً طبيعياً ناتجاً عن قضية واحدة.

قال بوارو: أحسب أن السيدة ليونيل كلود هي فعلاً عمتك.

بدا وكأن دهشة راولي زادت عما كانت عليه، وقال غير مصدق: العمة كاثي؟ لا شك أنك... لا شك أنك تعني السيدة جيريمي كلود، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه بالنفي، فقال راولي: ولكن، ماذا عسى العمة كاثي تريد؟

تمتم بوارو كمن يفضي بسر: لقد توجهتْ إليّ -كما فهمت- عن طريق هدي روحي.

- آه، يا إلهي!

ارتاح راولي وبدا كمن أعجبه ذلك، ثم قال وكأنه يُطمئِن بوارو: إنها كذلك، ولكنها غير مؤذية أبداً.

- لا أدري.

- ماذا تعني بذلك؟

- هل من أحد غير مُؤذٍ أبداً؟

حدق راولي إليه، فتنهد بوارو وقال بحزم مهذب: لقد جئت إليّ لتطلب مني شيئاً، أليس كذلك؟

عادت النظرة القلقة إلى وجه راولي وقال: إنها قصة طويلة بعض الشيء، وأخشى...

كان بوارو أيضاً يخشى سماع القصة، إذ كانت لديه فكرة حادة مفادها أن راولي كلود لم يكن ممن يصلون إلى لب الموضوع بسرعة. ولذلك فقد استرخى على كرسيه وأغمض عينيه نصف إغماضة فيما بدأ راولي حديثه: لقد كان عمي غوردن كلود...

قال بوارو مساعِداً: إنني أعرف كل شيء عن غوردن كلود.

- حسناً. لا حاجة -إذن- للشرح. لقد تزوج قبل بضعة أسابيع من وفاته، تزوج أرملة شابة تدعى السيدة اندرهي. ومنذ وفاته تعيش في ورمزلي فيل، هي وأخوها. وقد فهمنا -جميعاً- أن زوجها الأول كان قد توفي نتيجة الحمى في أفريقيا. ولكن يبدو الآن أن الأمر قد لا يكون كذلك.

اعتدل بوارو في جلسته وقال: آه، وما الذي قادك إلى هذا التخمين؟

شرح راولي قضية مجيء السيد إينوك آردن إلى ورمزلي فيل ثم قال: ربما تكون قد قرأت عن ذلك في الصحف؟

ساعده بوارو ثانية، قائلاً: نعم؛ قرأت.

ومضى راولي في حديثه، فوصف انطباعه الأول عن ذلك الرجل، آردن، وزيارته لفندق ستاغ، والرسالة التي استلمها من بياتريس ليبينكوت، وأخيراً الحديث الذي سمعته بياتريس في الغرفة

رقم ٥، ثم قال: لا يمكن -بالطبع- أن يتأكد المرء مما سمعته فعلاً بدقة. ربما بالغتْ قليلاً في الأمر كله... أو حتى فهمته خطأ.

- وهل روت قصتها للشرطة؟

هز راولي رأسه بالإيجاب قائلاً: لقد أخبرتُها أن ذلك أفضل.

- أرجو أن تعذرني، ولكنني لا أستطيع أن أفهم تماماً لماذا جئت إليّ يا سيد كلود؟ هل تريد مني أن أحقق في... جريمة القتل هذه؟ لأنني أحسب أنها جريمة قتل فعلاً.

- آه، لا. لا أريد شيئاً من ذلك، فهذا من شأن الشرطة. ما من شك في أنه قُتل قتلاً. كلا، ما أريده هو التالي: أريدك أن تكتشف لي هوية ذلك الرجل.

ضاقت عينا بوارو وقال: ومن تظنه كان يا سيد كلود؟

- حسناً. إن إينوك آردن ليس اسماً. تباً، إنه مقتبس مأخوذ من الشاعر تينيسون؛ لقد ذهبتُ وبحثتُ حتى أخرجت ذلك. وهو نص يتحدث عن رجل عاد ليجد زوجته وقد تزوجت رجلاً آخر.

قال بوارو بهدوء: إذن فأنت تظن أن إينوك آردن كان هو روبرت أندرهي نفسه؟

أجاب راولي بتمهل: حسناً، ربما كان الأمر كذلك. أعني أن العمر والشكل يوحيان بهذا. لقد راجعت القصة مع بياتريس مراراً وتكراراً بالطبع. ومن الطبيعي أنها لا تستطيع تذكر ما قاله الاثنان

بالضبط. لقد قال الرجل إن روبرت أندرهي فقدَ كل ما يملك، وهو في حالة صحية سيئة ويحتاج إلى المال. وربما كان يتحدث عن نفسه. أليس كذلك؟ ويبدو أنه قال شيئاً يفيد بأنه ليس من مصلحة ديفيد هنتر أن يظهر أندرهي في ورمزلي فيل... ويكاد ذلك يشي بأنه هو الذي كان هناك، مستخدماً اسماً مستعاراً.

- ما هي وثائق التعريف التي تم إبرازها خلال الاستجواب؟

هز راولي رأسه بالنفي وقال: لم يتم إبراز وثائق محددة؛ فقط مجرد شهادة العاملين في فندق ستاغ بأنه هو الرجل الذي جاءهم وسجل نفسه باسم إينوك آردن.

- وماذا عن أوراقه ووثائقه؟

- ليست لديه أية وثائق.

- ماذا؟

اعتدل بوارو في جلسته مدهوشاً وقال: لم تكن لديه أية وثائق؟

- أبداً.

- هذا مثير جداً. نعم، مثير جداً.

مضى راولي قائلاً: وقد جاء ديفيد هنتر (وهو شقيق روزالين) لزيارته في الليلة التي أعقبت وصوله. ويقول هنتر في إفادته للشرطة إنه استلم رسالة من الرجل تقول إنه كان صديقاً لروبرت أندرهي وإنه مُعدم فقير. ويضيف أنه ذهب إلى الفندق بناء على طلب أخته وقابل

الرجل وأعطاه خمسة جنيهات. تلك هي روايته، وأراهن أنه ينوي الإصرار عليها! وبالطبع يتكتم الشرطة على ما سمعته بياتريس.

- وهل يقول ديفيد هنتر إنه لم يكن يعرف الرجل من قبل؟

- هذا ما يقوله. ولكنني فهمت -على أية حال- أن هنتر لم يسبق له أن التقى بأندرهي.

- وماذا عن روزالين كلود؟

- طلب منها الشرطة أن تعاين الجثة لترى إن كانت تعرف الرجل، وقد أخبرتهم أنه غريب تماماً بالنسبة لها.

- حسناً، هذا -إذن- يجيب عن سؤالك.

قال راولي فجأة: هل يجيب حقاً؟ لا أظن ذلك. إن كان القتيل هو حقاً أندرهي، فإن روزالين لم تكن أبداً زوجة عمي، وليس لها حق في قرش واحد من أمواله. هل تظن أن من شأنها أن تقرّ بتعرفها إليه في ظل تلك الظروف؟

- أنت لا تثق بها؟

- أنا لا أثق بأي منهما.

- لا بد من وجود كثير من الناس الذين يستطيعون أن يجزموا فيما إذا كان ذلك القتيل هو أندرهي أو غيره؟

- لا يبدو الأمر بهذه السهولة، وهذا ما أريد منك أن تفعله؛ أن تجد شخصاً يعرف أندرهي. من الواضح أنه لا أقارب له على قيد الحياة في هذا البلد، وقد كان دوماً من النوع الانطوائي المنعزل.

ولكنني أفترض أنه لا بد من وجود خدم سابقين أو أصدقاء. لا بد من وجود شخص ما. ولكن الحرب قد قصمت كل العُرى وألقت بالناس في كل ناحية. ما كنت لأعرف كيف يمكن البدء بمعالجة هذه القضية، كما أنني لا أملك الوقت لذلك على أية حال؛ فأنا مزارع، وليس ثمة من يعينني.

- ولماذا أنا؟

بدا راولي محرجاً، والتمعت عينا بوارو قليلاً ثم تمتم قائلاً: هدي روحي؟

قال راولي مرعوباً: يا إلهي، كلا! في الحقيقة سمعت صديقاً أعرفه يتكلم عنك. قال إنك ساحر في مثل هذه الأمور. لا أعلم شيئاً عن مقدار أجورك، وأحسبها باهظة، ونحن عائلة معدمة بعض الشيء، ولكنني أظن أن بوسعنا أن ندبر لك أجورك بالاشتراك فيما بيننا. هذا إن كنتَ ستتولى القضية.

أجابه بوارو متمهلاً: نعم، أظن أنه ربما أمكنني مساعدتكم.

عادت ذاكرته -وهي الذاكرة القوية الدقيقة- إلى الماضي. إلى ذلك الشخص المملّ في النادي، وإلى الصحف المنصوبة أمام الوجوه، والصوت الرتيب. ماذا كان اسمه؟ لقد ذكر الاسم وقتها. سيتذكره حالاً، وإلّم يتذكره فإن بوسعه دوماً أن يسأل ميلون. لا، لقد تذكره. بورتر... الميجر بورتر.

نهض هيركيول بوارو واقفاً وقال: هل لك أن تعود إليّ بعد ظهر اليوم يا سيد كلود؟

- لا أدري. نعم، أظن ذلك ممكناً. ولكن لا يعقل أن تتمكن من القيام بشيء في هذا الوقت القصير؟

نظر إلى بوارو بخشية وارتياب. ولم يملك بوارو أن يقاوم إغراء التبجح، فقال بجدية: لديّ وسائلي يا سيد كلود.

بدا واضحاً أن تلك العبارة كانت العبارة المناسبة، إذ ظهر على قسمات راولي الاحترام بأقصى درجاته وسارع إلى القول: نعم، طبعاً؛ إنني -حقاً- لا أعرف كيف يمكنكم القيام بمثل هذه الأشياء.

لم يقدم بوارو أي شرح بخصوص هذه النقطة. وعندما ذهب راولي جلس بوارو وكتب رسالة قصيرة، ثم أعطاها لخادمه جورج وأوصاه أن يأخذها إلى نادي كورنيشن وأن يأتي بإجابتها من هناك.

كانت الإجابة مُرضية تماماً. فقد أرسل الميجر بورتر تحياته إلى السيد هيركيول بوارو معرباً عن ترحيبه باستقبال بوارو وصديقه في ٧٩، شارع إيدجوي، كامبدن هيل»، في الساعة الخامسة عصراً.

* * *

في الرابعة والنصف عاد راولي كلود.

- هل حالفك الحظ يا سيد بوارو؟

- نعم يا سيد كلود. سنذهب الآن إلى صديق قديم للكابتن روبرت أندرهي.

- ماذا؟

فغر راولي فمه دهشة، ونظر إلى بوارو كطفل يرى ساحراً يخرج الأرانب من قبعته.

- هذا لا يصدق! لا أفهم كيف يمكنك القيام بهذه الأمور، فلم تمض إلا بضع ساعات!

لوح بوارو بيد مستنكرة وحاول أن يبدو متواضعاً. لم يكن في نيته كشف البساطة التي ميزت حيلته السحرية، وقد أشبع غروره ما أحدثه من تأثير على راولي البسيط الساذج.

خرج الاثنان معاً، ولوحا لسيارة أجرة أقلتهما إلى كامبدن هيل.

* * *

كان الميجر بورتر يسكن الطابق الأول من بيت صغير سيء التصميم. استقبلتهما امرأة بهيجة لا يبدو عليها الترتيب وصعدت بهما. دخلا غرفة مربعة تحيط بها رفوف الكتب مع بعض الصور الرياضية الرديئة. وكانت على الأرض سجادتان من نوعية جيدة، لونهما غامق جميل، ولكن أبلاهما الاستعمال. لاحظ بوارو أن وسط أرضية الغرفة كان مُغطى بطبقة سميكة جديدة من الورنيش، بينما كان الورنيش عند الحواف محكوكاً. وأدرك -عندها- أنه قد كانت هناك -حتى عهد قريب- سجادات أخرى جيدة، سجادات تساوي أموالاً كثيرة في تلك الأيام. رفع بوارو نظره إلى الرجل الذي وقف منتصباً قرب الموقد ببدلته التي أصابها البلى رغم حسن تفصيلها. وخمّن بوارو بأن الميجر بورتر ضابط الجيش المتقاعد يعيش حياة فقر

وعوز؛ فقد كانت الضرائب وارتفاع تكاليف المعيشة تضرب قدماء المحاربين بشكل أشد ضراوة. كما خمن بوارو بأن الميجر يتمسك بأمور معينة حتى النهاية، ومنها اشتراكه في النادي مثلاً.

كان الميجر بورتر يتحدث بعبارات سريعة متقطعة: لا أذكر أنني التقيتك يا سيد بوارو. هل قلت في النادي؟ منذ عامين؟ إنني أعرف اسمك بالطبع.

قال بوارو: أقدم لك السيد راولي كلود.

هز الميجر بورتر رأسه تشرفاً بالتعارف، وقال: مرحباً.

وبعد أن صب لهم أكواب الشاي، أخرج علبة لفائف وعرض عليهما التدخين. أخذ بوارو لفافة، وأشعلها له الميجر بورتر ثم قال مخاطباً راولي: أنت لا تدخن. هل تمانعان إن أشعلت غليوني؟

ثم أشعله بكثير من سَحْب النفس ونفخه. وعندما انتهت طقوس تلك المستلزمات الأولية قال الميجر: والآن، ما هو الأمر؟

ثم نقّل نظره بين الاثنين، فأجابه بوارو: ربما قرأت في الصحف عن مقتل رجل في ورمزلي فيل؟

هز الميجر رأسه بالنفي وقال: ربما، ولكنني لا أظن ذلك.

- كان اسمه آردن... إينوك آردن.

استمر الميجر بورتر في هز رأسه بالنفي، فأكمل بوارو: لقد عثروا عليه في فندق ستاغ ومؤخرة رأسه مهشمة.

قطب بورتر جبينه وقال: انتظر. نعم، لقد رأيت ذكراً لذلك كما أظن منذ بضعة أيام.

قال بوارو: نعم. وإن لديّ هنا صورة، صورة من صحيفة، وهي ليست واضحة تماماً. وما نودّ معرفته -أيها الميجر بورتر- هو إن كنت قد رأيت هذا الرجل قط من قبل؟

سلّمه أفضل نسخة استطاع الحصول عليها من الصورة التي نشرتها الصحف. أخذها الميجر بورتر وأمعن فيها النظر، ثم قال: "انتظر لحظة". أخرج نظارته ووضعها فوق أنفه ودرس الصورة بإمعان أكبر، ثم جفل فجأة وقال: رحماك يا رب! يا إلهي!

- هل تعرف الرجل أيها الميجر؟

- بالطبع أعرفه. إنه أندرهي... روبرت أندرهي.

قال راولي وفي صوته رنّةُ انتصار: أأنت واثق من ذلك؟

- إنني واثق بالطبع. إنه روبرت أندرهي، وأنا مستعد لأن أقسم على ذلك في أي مكان.

* * *

الفصل الثاني

رن جرس الهاتف فمضت إليه لين. جاءها صوت راولي: لين؟

- راولي؟

بدا صوتها مكتئباً محبطاً. قال لها: ما الذي تفعلينه؟ إنني لا أراك أبداً هذه الأيام؟

- آه. مشاغل البيت الروتينية: أطوف هنا وهناك حاملةً سلّتي، أنتظر لشراء السمك، وأقف في الصفوف لمجرد الحصول على قطعة كعك رديئة. وما إلى ذلك من أمور... مشاغل البيت.

- أريد رؤيتك. لديّ ما أخبرك به.

- عن ماذا؟

فهقه وقال: أخبار سارة. قابليني عند غيضة رولاند. إننا نفلح الأرض هناك.

أعادت لين سماعة الهاتف وأخذت تفكر. أخبار سارة؟ ما عسى الأخبار السارة تكون بالنسبة لراولي كلود؟ أهي أخبار

مالية؟ هل باع ذلك العجل الصغير بسعر أعلى مما كان يأمله؟ قالت في نفسها: "لا، إن الأمر أبعد من ذلك". وفيما كانت تقطع الحقل وصولاً إلى الغيضة ترك راولي جرّاره الزراعي وجاء لمقابلتها.

- مرحباً يا لين.

- آه راولي، إنك تبدو... مختلفاً بعض الشيء.

ضحك وقال: أظن أنني كذلك فعلاً. لقد انقلب حظي يا لين!

- ما الذي تعنيه؟

- هل تذكرين ما أشار إليه العم جيريمي حول رجل يدعى هيركيول بوارو؟

قطبت حاجبيها وقالت: هيركيول بوارو؟ نعم، أتذكر فعلاً شيئاً من ذلك.

- كان ذلك منذ زمن بعيد أثناء الحرب. كان الاثنان في نادي جيريمي ذاك، الأشبه بالقبر، وكانت غارة جوية.

سألت لين وقد نفد صبرها: حسناً، وبعد؟

- ذلك الرجل ذو الملابس الغريبة وما إلى ذلك، الفرنسي أو البلجيكي. رجل غريب ولكنه عبقري تماماً.

قطبت لين حاجبيها وقالت: ألم يكن من رجال التحري؟

- بلى، بالضبط. حسناً، أنت تعلمين قصة الرجل الذي قُتل في فندق ستاغ. إنني لم أخبرك، ولكن راودتني فكرة بأنه قد يكون

زوج روزالين الأول.

ضحكت لين وقالت: لمجرد أنه أطلق على نفسه اسم إينوك آردن كما في قصيدة تينيسون؟ يا لها من فكرة ساذجة!

- ليست ساذجة إلى هذا الحد يا فتاتي. لقد اصطحب المفوض سبنس روزالين إلى المشرحة لتلقي نظرة عليه. وقد أكدت بكل عزم أنه لم يكن زوجها.

- هذا -إذن- ينهي الموضوع.

- كان يمكن أن ينهيه... لولاي!

- لولاك؟ ما الذي فعلته؟

- ذهبت إلى هذا الرجل، هيركيول بوارو، وأخبرته أننا نريد شهادة طرف آخر، إن كان بوسعه أن يجد لنا شخصاً كان يعرف روبرت أندرهي فعلياً. والعجيب أن ذلك الرجل ساحر بكل معنى الكلمة.. كمن يخرجون الأرانب من القبعة! فخلال بضع ساعات أحضر رجلاً كان أعز أصدقاء أندرهي، عجوزاً اسمه بورتر.

توقف راولي. ثم قهقه ثانية بمثل ذلك الانفعال والحماس الذي أدهش لين وأجفلها، ثم قال: والآن، احفظي الأمر سراً يا لين. لقد استحلفني المفوض أن ألتزم السرية، ولكنني أرغب في إطلاعك أنت: إن القتيل هو روبرت أندرهي.

- ماذا؟

- إنه روبرت أندرهي نفسه. ليس لدى بورتر أدنى شك في ذلك، وهكذا ترين يا لين...

ثم ارتفع صوته انفعالاً وهو يقول: لقد فزنا! فزنا في نهاية المطاف. لقد هزمنا هذين المحتالين!

- أي محتالين؟

- هنتر وأخته. لقد هُزما، وخرجا من الحلبة. إن روزالين لا تحصل على أموال غوردن، بل نحصل نحن عليها. لقد أصبحت أموالنا! إن وصية غوردن التي كتبها قبل زواجه بروزالين سارية المفعول، وهي توزع التركة بيننا، وأنا أحصل على حصة الربع. أفهمت؟ إذا كان زوجها الأول على قيد الحياة عندما تزوجت غوردن فهذا يعني قانوناً أنها لم تتزوج على الإطلاق!

- هل أنت... هل أنت واثق مما تقوله؟

حدق إليها. وبدا للمرة الأولى شيء من الحيرة على وجهه، ثم قال: طبعاً واثق! فالأمر واضح بسيط. أصبح كل شيء على ما يرام الآن. تماماً كما أراد غوردن للوضع أن يكون، كما لو أن هذين المخلوقين لم يدخلا حياتنا أبداً.

وفكرت لين مع نفسها: "كل شيء على ما يرام، ولكنك لا تستطيع أن تمحو على هذا النحو شيئاً وقع. لا يمكنك أن تتظاهر بأنه لم يحدث". قالت ببطء: وماذا سيفعلان؟

- ماذا؟

رأت أن راولي لم يفكر حتى تلك اللحظة بهذا السؤال. قال: لا أدري، أحسب أن عليهما أن يعودا من حيث أتيا. أعتقد أنه...

كان بوسعها أن ترى أنه يحاول الآن أن يفكر بحل للسؤال. مضى قائلاً: نعم، أظن أن علينا أن نفعل شيئاً من أجلها. أعني أنها تزوجت غوردن بنيّة صادقة. لقد فهمتُ أنها اعتقدَتْ -حقاً- أن زوجها ميت، فالذنب ليس ذنبها. نعم، علينا أن نفعل لها شيئاً، أن نعطيها نفقة محترمة، تنفق عليها جميعاً.

- إنها تعجبك، أليس كذلك؟

فكر قليلاً ثم قال: بلى، تعجبني نوعاً ما. إنها طفلة رائعة، وهي ذات خبرة بتربية الماشية.

- أما أنا فلا خبرة لديّ.

أجابها بلطف: آه، ستتعلمين.

- وماذا عن... ديفيد؟

عبس راولي وقال: ليذهب ديفيد إلى الجحيم! إنها لم تكن أمواله على أية حال، بل جاء وعاش عالة على أخته.

- كلا يا راولي، لم يكن الأمر على هذا النحو؛ لم يكن كذلك. إنه ليس طفيلياً. ربما كان... مغامراً.

- وقاتلاً مأفوناً.

قالت متقطعة الأنفاس: ما الذي تعنيه؟

- حسناً، من الذي تحسبينه قتل أندرهي؟

صرخت قائلة: لا أصدق ذلك، لا أصدق ذلك!

- لقد قتل أندرهي بالطبع! من عساه يقتله غيره؟ لقد كان هنا في ذلك اليوم. جاء إلى هنا بقطار الخامسة والنصف. كنتُ أستقبل جماعة في المحطة ولمحته عن بعد.

قالت لين بحدة: لقد عاد إلى لندن في تلك الليلة.

أجابها راولي بلهجة المنتصر: نعم، بعد أن قتل أندرهي.

- ينبغي أن لا تقول أشياء كهذه يا راولي. متى قُتل أندرهي؟

- لا أعلم بالضبط. لا أحسب أننا سنعرف ذلك حتى موعد الاستجواب غداً. أظنه قُتل في وقت ما بين التاسعة والعاشرة.

- لقد استقلّ ديفيد قطار التاسعة والثلث عائداً إلى لندن.

- اسمعي يا لين، كيف عرفت ذلك؟

- لقد... لقد قابلته. كان يركض للحاق بالقطار.

- وكيف لك أن تتأكدي من أنه لحق به فعلاً.

- لأنه اتصل بي من لندن في وقت لاحق.

نظر راولي إليها غاضباً وقال: ولماذا -بالله عليك- يتصل بك؟ اسمعي يا لين، إني لن أقبل بالتأكيد أن...

- آه، وما أهمية ذلك يا راولي؟ إن ذلك يُظهر -على أية حال-

أنه استقل ذلك القطار.

- كان لديه متسع من الوقت لقتل أندرهي ثم الجري للّحاق بالقطار.

- إلا إذا كان قد قُتل بعد الساعة التاسعة.

قال: "حسناً، ربما قُتل قبل التاسعة بقليل". ولكن صوته كان يشوبه شيء من الشك.

أغمضت لين عينيها نصف إغماضة وسرحت بأفكارها: أكانت تلك هي حقيقة الأمر؟ عندما ظهر ديفيد من تلك الغيضة لاهثاً يسب ويشتم، أكان ذلك الذي طوقها بذراعيه وقتها قاتلاً أنهى لتوه ارتكاب جريمته؟ تذكرت انفعاله الغريب ومزاجه الطائش المتهور. أكانت تلك علامات تأثير جريمة القتل عليه؟ ربما، عليها أن تعترف بذلك. أكان هناك بون شاسع بين ديفيد وبين القتل؟ هل يمكن أن يقتل رجلاً لم يؤذه أبداً، رجلاً بمثابة شبح من الماضي؟ رجلاً كانت جريمته الوحيدة أنه يقف حائلاً بين روزالين وبين إرث ضخم... وبين ديفيد وبين تمتعه بأموال روزالين؟

تمتمت قائلة: ولماذا عساه يقتل أندرهي؟

- يا إلهي، أوَتسألين عن ذلك يا لين؟ لقد أخبرتك لتوي! إن وجود أندرهي حياً يعني أن نحصل نحن على أموال غوردن! كما أن أندرهي كان يبتزه.

آه، هذا من شأنه أن يلائم الافتراض بشكل أكبر؛ إذ أن من شأن ديفيد أن يقتل مبتزاً. ألم تكن -في الحقيقة- الطريقةَ الوحيدة

التي يمكن لديفيد أن يتصرف بها إزاء ميتز؟ نعم، هذا كله يناسب الافتراض ويعطيه معنى. استعجال ديفيد، وانفعاله... وإظهاره للحب بتلك الطريقة المفاجئة، بل الغاضبة، ومن ثم تبرؤه منها لاحقاً، وقوله: "من الأفضل لي أن أسافر". نعم، يبدو الأمر منطقياً.

ومن مسافة بعيدة بعيدة سمعت صوت راولي يسألها: ما الأمر يا لين؟ ألنت على ما يرام؟

- نعم بالطبع.

- حسناً، لا تكوني -بالله عليك- مكتئبة بهذا الشكل.

ثم التفت ونظر إلى منزل لونغ ويلوز في أسفل التلة وقال: الحمد لله، بوسعنا الآن أن نُحسّن من وضع البيت قليلاً، ونُحضر بعض الأجهزة التي توفر الجهد والعناء، لكي نجعله مريحاً لك. لا أريد أن تعيشي حياة ضنك يا لين.

كان من المقرر أن يكون ذلك المنزل بيتها. بيتها مع راولي.

وذات صباحٍ ما، في الساعة الثامنة صباحاً، سوف يُعلَّقُ ديفيد من رقبته حتى يموت شنقاً.

* * *

الفصل الثالث

وضع ديفيد يديه على كتفي روزالين وفي وجهه شحوب وعزم، وفي عينيه يقظة واحتراس، وقال: سيكون الأمر على ما يرام. ولكن ينبغي أن تحافظي على هدوئك وتتصرفي كما أقول لك تماماً.

- وماذا لو أخذوك؟ أنت قلت... أنت قلت إنهم ربما أخذوك.

- هذا احتمال قائم، نعم، ولكن ذلك لن يدوم طويلاً، وخاصة إذا حافظت على هدوئك.

- سأفعل ما تطلبه مني يا ديفيد.

- هذه هي الفتاة المطيعة التي أعرفها! كل ما عليك فعله يا روزالين هو أن تتمسكي بإفادتك. أصرّي على أن الشخص المقتول ليس زوجك، روبرت أندرهي.

- سيستدرجونني بحيث أقول أشياء لا أقصد قولها.

- كلا، لن يفعلوا. أؤكد لك أن الأمر سيكون على ما يرام.

- لا؛ إنه ظلم. لقد كان ظلماً منذ البداية؛ أن نأخذ مالاً ليس

منذ. إنني أضطجع أرقة طوال الليل أفكر بالموضوع يا ديفيد، أفكر بأخذنا ما ليس لنا. إن الله يعاقبنا على ظلمنا.

نظر إليها عابساً: كانت تتصدع وتنهار. نعم، كانت تتصدع بالتأكيد. لقد كانت لديها -دوماً- تلك النفسية الهشة، ولم يسبق لضميرها أن شعر أبداً بالهدوء والسكينة. والآن لا بد أن تنهار تماماً ما لم يكن هو محظوظاً جداً. حسناً، بقيت -إذن- طريقة واحدة. قال بلطف: اسمعي يا روزالين، هل تريدين أن أشنق؟

- آه، ديفيد. لا يمكن. لا يمكنهم...

- شخص واحد فقط بوسعه أن يشنقني؛ وهو أنت. فمجرد اعترافك -بنظرة أو إشارة أو كلمة- بأن القتيل ربما كان أندروهي، يعني أنك تضعين الحبل حول عنقي! هل تفهمين ذلك؟

نعم، بدا أنها استوعبت الدرس جيداً. نظرت إليه بعينين واسعتين مذعورتين وقالت: إنني غبية جداً يا ديفيد.

- لا، لست غبية. والأمر لا يتطلب منك ذكاء على كل حال. سيكون عليك أن تقسمي بحزم على أن الرجل القتيل ليس زوجك. وأظنك تستطيعين ذلك.

هزت رأسها بالإيجاب، فمضى قائلاً: لك أن تُظهري الغباء إذا شئت. أظهري أنك لا تفهمين تماماً ما يطرحونه عليك من أسئلة، فهذا لا يضر. ولكن تمسكي بالنقاط التي راجعتُها معك. سوف يعتني غيثورن بك، وهو محامي جنايات كفء جداً، ولذلك اخترته. سيكون موجوداً في الاستجواب، وسوف يحميك من محاولات

إحراجك بالأسئلة، ولكن تمسكي بإفادتك حتى معه. بالله عليك لا تحاولي التذاكي، ولا تظني أن بوسعك مساعدتي بتصرف من محض تفكيرك.

- سأفعل ذلك يا ديفيد؛ سأفعل تماماً ما تقوله لي.

- أحسنت. وعندما ينتهي الأمر كله سنسافر، إلى جنوب فرنسا، إلى أمريكا... وفي هذه الأثناء اعتني بصحتك، ولا تبقي مؤرقة في الليالي تغضبين وتستهلكين نفسك. خذي تلك الحبوب المنومة التي وصفها لك الدكتور كلود. خذي واحدة كل ليلة، ارتاحي وفرّجي عن نفسك، وتذكري أن أوقاتاً جيدة ستأتي!

ثم نظر إلى ساعته وقال: والآن، حان وقت الذهاب للاستجواب. إنها تقترب من الحادية عشرة.

قلّب نظره في غرفة الجلوس الطويلة الجميلة: الجمال، والراحة، والثروة... لقد تمتع بها جميعاً. بالإضافة إلى منزل فوروبانك الجميل. ربما كان ذلك هو الوداع.

لقد وضع نفسه في ورطة، هذا أمر مؤكد. ولكنه -حتى في تلك اللحظة- لم يندم، وتذكر القول المأثور «إما أن تركب التيار حين يخدمنا المد، أو تخسر الرهان».

نظر إلى روزالين. كانت تراقبه بعينين واسعتين مناشدتين، وعرف غريزياً ما الذي كانت تريده، فقال لها بلطف: أنا لم أقتله يا روزالين، أقسم أنني لم أفعل.

* * *

الفصل الرابع

جرى الاستجواب في كورن ماركت. كان المحقق، السيد بيمارش، رجلاً ضئيل الجسم ذا عناية بالتوافه، وكان يضع نظارات ويتم مظهره عن إحساس كبير بأهميته الشخصية. وبجانبه جلس المفوض سبنس بجسمه الضخم. وفي مقعد ناءٍ لا يلفت الانتباه جلس رجل ضئيل الجسم أجنبي الهيئة ذو شاربين أسودين ضخمين. أما آل كلود: جيريمي كلود بزوجته، وليونيل كلود وزوجته، وراولي كلود، والسيدة مارتشمونت ولين، فقد حضروا جميعاً. وقد جلس الميجر بورتر بمفرده، متململاً متضايقاً.

تنحنح المحقق ونظر إلى هيئة المحلفين المؤلفة من تسعةٍ من الوجهاء المحليين، ثم بدأ إجراءات التحقيق: الشرطي بيكوك، الرقيب فين، الدكتور ليونيل كلود... لقد كنتم تعالجون أحد المرضى أصولياً في فندق ستاغ عندما جاءتكم غلاديس إيتكن. ما الذي قالته؟

أجاب الدكتور ليونيل كلود: لقد أخبرتني بأن نزيل الغرفة رقم٥ كان ملقى على الأرض ميتاً.

- ونتيجة لذلك صعدت إلى الغرفة رقم ٥؟

- نعم.

- هل لك أن تصف لنا ما وجدته هناك؟

وصف الدكتور كلود كل ما وجده: جثة رجل، الوجه منكب على الأرض، جروح في الرأس، مؤخرة الجمجمة، ملقط الموقد...

- لقد كنت ترى أن الملقط المذكور هو الذي سبب تلك الجروح، أليس كذلك؟

- بعض تلك الجروح كان سببها الملقط بلا جدال.

- وأنه تم توجيه العديد من الضربات؟

- نعم. إنني لم أجرِ فحصاً تفصيلياً، إذ اعتبرت أنه ينبغي حضور الشرطة قبل أن يلمس أحد الجثة أو يغير وضعها.

- تصرف سليم. وهل كان الرجل ميتاً؟

- نعم، كان قد مات منذ بضع ساعات؟

- كم كان قد مضى على وفاته برأيك؟

- ليس بإمكاني الجزم بوقت محدد دقيق. إحدى عشرة ساعة على الأقل، ويحتمل تماماً أن تكون ثلاث عشرة أو أربع عشرة. لنقل إن الوفاة وقعت بين السابعة والنصف والعاشرة والنصف من الليلة السابقة.

شكر المحقق الدكتور كلود، ثم جاء دور الطبيب الشرعي الذي أعطى وصفاً فنياً كاملاً للجروح، وقال إنه كان على الفك الأسفل كشط وورم، كما قال إن خمس ضربات أو ستاً قد وُجهت إلى قاعدة الجمجمة، بعضها تم توجيهه بعد حدوث الوفاة.

- إذن فقد كان اعتداء بالغ الوحشية؟

- بالضبط.

- هل كان توجيه تلك الضربات يتطلب قوة كبيرة؟

- لا، ليس قوة بالضبط؛ فالملقط الذي تمسك به أطراف الكماشة يمكن أن يُضرب به بسهولة دون حاجة لممارسة قوة كبيرة، والكرة الفولاذية التي تشكل رأس الملقط تجعل منه سلاحاً رهيباً؛ ومن شأن شخص رقيق ضعيف أن يسبب تلك الجروح، هذا إذا كانت عملية الضرب قد تمت في نوبة انفعال وغضب.

- شكراً يا دكتور.

تبعت ذلك تفصيلات عن حالة الجثة، فقد كانت لرجل حسن التغذية صحيح الجسم في نحو الخامسة والأربعين من عمره، ولا علامات على أي مرض لديه، وكان القلب والرئتان بأحسن حال.

أدلت بياتريس ليبينكوت بشهادتها عن وصول الفقيد إلى الفندق، قائلة إنه سجل نفسه باسم إينوك أردن، من كيب تاون.

- هل أبرز لكِ الفقيد بطاقة؟

- لا يا سيدي.

- هل طلبتِها منه؟

- لم أطلبها بدايةً؛ إذ لم أكن أعلم كم سيبقى في الفندق.

- ولكنكِ طلبتِها لاحقاً؟

- نعم يا سيدي. لقد وصل يوم الجمعة، وقلت له يوم السبت إن عليه أن يعطيني بطاقته إن كان يعتزم البقاء لأكثر من خمسة أيام.

- وبماذا أجابك؟

- قال إنه سيحضرها لي.

- ولكنه لم يفعل ذلك عملياً؟

- نعم.

- ولم يقل إنه أضاعها؟ أو إنه لا يملك بطاقة؟

- نعم؛ لقد اكتفى بالقول: "سوف أبحث عنها وأحضرها".

- آنسة ليبينكوت، هل سمعت يوم السبت ليلاً حديثاً ما؟

وبعد كثير من الشرح الطويل المعقد للضرورة التي دفعتها للصعود إلى الغرفة رقم ٤، حكت بياتريس ليبينكوت قصتها. وقد ساعدها المحقق في ذلك بدهاء، ثم قال بعد ذلك: شكراً لك، هل ذكرت هذا الحديث الذي تناهى إلى سمعك لأي شخص؟

- نعم، لقد أخبرتُ به السيد راولي كلود.

- ولماذا أخبرتِ السيد كلود؟

قالت وقد احمرّ وجهها: حسبت أنه ينبغي أن يعرف.

ثم نهض رجل طويل نحيل هو السيد غيثورن وطلب السماح له بطرح سؤال: خلال مجرى الحديث بين القتيل وبين السيد ديفيد هنتر هل ذكر القتيل في أي وقت بأنه هو نفسه روبرت أندرهي؟

- لا، لا؛ لم يذكر ذلك.

- أي أنه تكلم عن روبرت أندرهي كما لو كان روبرت أندرهي شخصاً آخر تماماً، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ هكذا تحدث.

- شكراً لك سيدي المحقق، هذا كل ما أردت استيضاحه.

نزلت بياتريس عن المنصة، وتم استدعاء راولي كلود.

أكد راولي أن بياتريس كررت له قصة الحديث الذي سمعته، ثم استعرض مجريات لقائه مع القتيل. سأله المحقق: كانت آخر كلماته لك هي: «لا أحسب أنك ستستطيع إثبات الأمر دون تعاون مني أنا»، والمقصود بكلمة «الأمر» هنا حقيقة أن روبرت أندرهي ما زال على قيد الحياة، أليس كذلك؟

- بلى؛ هذا ما قاله، وقد ضحك.

- ضحك، أليس كذلك؟ وبماذا فسرت أنت تلك الكلمات؟

- ظننت أنه يدفعني لتقديم عرض، ولكنني فكرت لاحقاً...

- نعم يا سيد كلود، ولكنّ ما فكرتَ به لاحقاً لا يكاد يتصل

بموضوع القضية. هل يمكننا القول إنه -نتيجة لتلك المقابلة- بدأتَ أنت تحاول العثور على شخص ما ذي معرفة بالفقيد روبرت أندرهي وأنك نجحت في ذلك بعد تلقيك مساعدة معينة؟

هز راولي رأسه بالإيجاب وقال: هذا صحيح.

- كم كانت الساعة عندما تركتَ القتيل؟

- أقرب وقت يمكنني تحديده هو التاسعة إلا خمس دقائق.

- ما الذي جعلك تركز على هذه الساعة؟

- لأنني سمعت -وأنا أمشي في الشارع- دقات الساعة التاسعة من خلال نافذة مفتوحة.

- هل ذكر القتيل الساعة التي يتوقع فيها وصول ذلك الزبون؟

- قال إنه على وشك الحضور «في أية لحظة».

- ألم يذكر أي اسم؟

- نعم؛ لم يفعل.

سُمح لراولي بمغادرة المنصة، واستُدعي الشاهد الجديد بصوت عالٍ: ديفيد هنتر!

سرت في القاعة همهمة خافتة فيما التفت سكان ورمزلي فيل لينظروا إلى الشاب الطويل النحيل الذي تبدو عليه المرارة وهو يقف متحدياً في مواجهة المحقق.

مضت أسئلة التعريف الأولية بسرعة، ومضى المحقق ليسأل: لقد ذهبتَ لرؤية القتيل في ليلة السبت؟

- نعم، استلمت رسالة منه يطلب فيها المساعدة، ويذكر أنه كان يعرف زوج أختي الأول في أفريقيا.

- هل تحتفظ بتلك الرسالة؟

- كلا، فأنا لا أحتفظ عادة بالرسائل.

- لقد سمعتَ ما ذَكَرتْه بياتريس ليبينكوت عن حديثك مع القتيل. هل كان ما قالته صحيحاً؟

- لم يكن صحيحاً على الإطلاق. لقد تحدث القتيل عن معرفته بصهري المرحوم، وشكى من حظه العاثر ومما أصابه من عوز وفاقة، واستجدى بعض العون المالي.

- هل أخبرك بأن روبرت أندرهي ما زال حياً؟

ابتسم ديفيد وقال: كلا بالتأكيد. فقد قال: "لو كان روبرت حياً فإنني أعرف أنه كان سيساعدني".

- هذا مختلف تماماً عما تخبرنا به بياتريس ليبكوت.

- إن مسترقي السمع عادة ما يسمعون جزءاً فقط مما يجري، وغالباً يسيؤون فهم ما سمعوه بسبب إقدامهم على ملء الثغرات والتفصيلات الناقصة من خيالهم الخصب.

انتفضت بياتريس بغضب وهتفت: حسناً. إنني لا...

ولكن المحقق قاطعها بقوة قائلاً: الصمت رجاءً.

ثم وجه كلامه إلى ديفيد: والآن يا سيد هنتر، هل زرت القتيل ثانية ليلة الثلاثاء؟

- كلا، لم أزره.

- لقد سمعتَ السيد راولي كلود يقول بأن القتيل كان يتوقع زائراً؟

- ربما كان يتوقع زائراً، وإن كان الأمر كذلك فأنا لم أكن ذلك الزائر. لقد أعطيته خمسة جنيهات من قبل، ورأيت ذلك كافياً تماماً؛ فلم يكن لديه أي دليل على أنه كان يعرف روبرت أندرهي حقاً. وقد أصبحتْ أختي -منذ أن ورثت دخلاً ضخماً من زوجها- هدفاً لكل كاتب عرائض متسول ولكل طفيلي في المنطقة.

وبهدوء ترك عينيه تستعرضان عائلة كلود المجتمعة.

- سيد هنتر، هل لك أن تخبرنا أين كنت مساء الثلاثاء؟

- حاول أن تكتشف ذلك!

قرع المحقق على الطاولة وقال: سيد هنتر! هذا قولٌ بالغ الحماقة والطيش.

- لماذا أخبرك أين كنت وماذا كنت أفعل؟ إن لديّ متسعاً من الوقت لذلك عندما تتهمني بقتل الرجل.

- إن كنت تصر على هذا الموقف فستصل إلى ذلك بأسرع مما

تظن. هل تعرف ما هذا يا سيد هنتر؟

انحنى ديفيد وأخذ من المحقق القداحة الذهبية. بدت الحيرة على وجهه، ثم أعادها للمحقق وقال ببطء: نعم، إنها قداحتي.

- متى كانت بحوزتك آخر مرة؟

قال: "لقد أضعتها..."، ثم توقف.

قال المحقق بصوت مهذب: نعم، وبعد يا سيد هنتر؟

تململ غيثورن وبدا وكأنه على وشك الكلام، ولكن ديفيد كان أسبق لذلك: كانت معي يوم الجمعة الماضي. لا أذكر أنني رأيتها منذ ذلك الوقت.

نهض غيثورن وقال: بعد إذنك سيادة المحقق. لقد زرتَ القتيل -سيد هنتر- ليلة السبت. أليس من الممكن أن تكون قد تركت القداحة وقتها؟

- أحسب أن ذلك ممكن. إنني -بالتأكيد- لا أتذكر أنني رأيتها بعد يوم الجمعة. أين عُثِرَ عليها؟

قال المحقق: سنأتي على ذلك لاحقاً. بوسعك العودة إلى مكانك الآن يا سيد هنتر.

عاد هنتر ببطء إلى مقعده. أحنى رأسه وهمس شيئاً لروزالين.

- الميجر بورتر.

صعد الميجر بورتر وهو يتنحنح قليلاً، ووقف هناك جسماً عسكرياً منتصباً كما لو كان في استعراض عسكري. وحدها طريقته في ترطيب شفتيه هي التي دلت على العصبية الشديدة التي كان يعاني منها.

- أأنت جورج دوغلاس بورتر، القائد السابق لسلاح «حملة البنادق» الملكي في أفريقيا؟

- نعم.

- إلى أي مدى كنت تعرف روبرت أندرهي؟

وبصوت جهوري استعراضي ذكر الميجر بورتر الأسماء والتواريخ.

- هل عاينتَ جثة القتيل؟

- نعم.

- هل بوسعك التعرف بصاحبها؟

- نعم، إنها جثة روبرت أندرهي.

سرت في المحكمة همهمة انفعال وإثارة.

- أتؤكد ذلك تماماً، ودون أدنى شك؟

- نعم.

- ألا يوجد احتمال في أن تكون مخطئاً؟

- أبداً.

- شكراً يا ميجر بورتر. السيدة روزالين كلود.

نهضت روزالين، وعبرت الميجر بورتر الذي نظر إليها بشيء من الفضول، أما هي فلم تلق إليه حتى نظرة واحدة.

- سيدة كلود، لقد أخذتْكِ الشرطة لمعاينة جثة القتيل؟

ارتعشت وقالت: نعم.

- وقد صرّحتِ بشكل نهائي بأنها جثة رجل لا تعرفينه أبداً؟

- نعم.

- في ضوء الشهادة التي أدلى بها تواً الميجر بورتر، هل تودين سحب أو تعديل إفادتك؟

- لا.

- أما زلت تؤكدين أن الجثة ليست جثة روبرت أندرهي؟

- إنها ليست جثة زوجي، بل جثة رجل لم أره أبداً في حياتي.

- هيا يا سيدة كلود، لقد ميّزها الميجر بورتر بلا تردد على أنها جثة صديقه روبرت أندرهي.

أجابت روزالين بوجهٍ خالٍ من أي تعبير: الميجر بورتر مخطئ.

- أنتِ لا تدلين بشهادتك بعد أداء اليمين في هذه المحكمة يا سيدة كلود، ولكن يحتمل أن تمثلي قريباً أمام محكمة تؤدين فيها

يميناً؛ فهل أنت مستعدة -عندها- لأداء يمين تؤكدين فيه أن الجثة ليست جثة روبرت أندرهي، بل جثة غريب لا تعرفينه؟

- إنني مستعدة لأن أقسم بأنها ليست جثة زوجي، بل جثة رجل غريب لا أعرفه.

كان صوتها واضحاً جازماً، والتقت عيناها بعيني المحقق بكل ثبات. تمتم المحقق قائلاً: بوسعك النزول عن المنصة.

ثم انتزع نظارته، ولخّص القضية لهيئة المحلفين. فالمطلوب منهم اكتشاف الطريقة التي لقي بها هذا الرجل مصرعه، وهو الأمر الذي لا يحتاج كثيراً من التساؤلات؛ إذ لا يمكن افتراض حدوث الوفاة نتيجة حادث أو انتحار، كما لا يوجد ما يشير إلى أن الأمر كان قتلاً دون عمد. ولذلك يبقى رأي واحد، وهو القتل العمد. وفيما يخص هوية القتيل فإن تلك الهوية لم يتم تحديدها بوضوح.

ولقد استمع المحلفون إلى أحد الشهود، وهو رجل ذو شخصية مستقيمة وأمانة بحيث يمكن الاعتماد على كلمته، يقول إن الجثة كانت لصديق سابق له هو روبرت أندرهي. وفي الجهة المقابلة فإن وفاة روبرت أندرهي نتيجة الحمى في إفريقيا قد تم إثباتها -كما هو واضح- بشكل أقنع السلطات المحلية، ولم تتم إثارة أية أسئلة وقتها. وعلى النقيض من شهادة الميجر بورتر، فإن أرملة روبرت أندرهي، المدعوة الآن بالسيدة غوردن كلود، صرّحت مؤكدةً أن الجثة لم تكن جثة روبرت أندرهي. وقد كانت هاتان الإفادتان متناقضتين تماماً. وإذا ما تم تجاوز مسألة هوية القتيل، فإن على المحلفين أن يقرروا إن كان يوجد أي دليل يشير إلى اليد التي قتلته.

وربما ظن المحققون بأن الدليل يشير إلى شخص معين. ولكن يُحتاج إلى الكثير من الأدلة قبل أن يكون ممكناً استكمال قضية وإقامة دعوى، إذ يجب توفر الدليل والدافع والفرصة لارتكاب الجريمة. ولا بد أن أحداً ما قد شاهد الشخص المعني قرب مكان الجريمة في الموعد المناسب. فإذا لم تتوفر مثل هذه الأدلة يكون أفضل حكم يمكن إصداره هو اعتبار القضية قضية قتل عمد دون دليل كاف يشير إلى فاعلها. هذا الحكم سيترك حرية للشرطة في متابعة تحرياتهم الضرورية.

بعدها أذِنَ المحقق لأعضاء هيئة المحلّفين بالخلوة لاتخاذ حكمهم، وقد استغرق ذلك منهم ثلاثة أرباع الساعة.

عادت هيئة المحلفين بالحكم: «ديفيد هنتر مُدان بارتكاب جريمة القتل العمد».

* * *

الفصل الخامس

قال المحقق وكأنه يعتذر: كنت أخشى إقدامهم على إصدار ذلك الحكم. إنهما الهوى والتحيز المَحلّيان المستندان إلى المشاعر أكثر من استنادهما إلى المنطق.

كان المحقق ورئيس الشرطة والمفوض سبنس وهيركيول بوارو جميعاً يعقدون جلسة تشاور بعد التحقيق.

قال رئيس الشرطة: لقد بذلتَ كل ما تستطيعه من جهد.

علق سبنس عابساً: أقل ما يمكن أن يقال عن هذا الحكم إنه سابق لأوانه، وهو يعيق حركتنا. هل تعرف السيد هيركيول بوارو؟ إنه هو الذي يقف خلف إحضار بورتر للاستجواب.

قال المحقق بلباقة: لقد سمعت عنك يا سيد بوارو.

قام بوارو بمحاولة فاشلة لإظهار التواضع، فيما قال سبنس ضاحكاً: إن السيد بوارو مهتم بالقضية.

أجاب بوارو: هذا صحيح بالفعل. فقد كنتُ في هذه القضية -إن صح التعبير- حتى قبل أن تصبح قضية.

واستجابةً لنظراتهم المتسائلة روى لهم بوارو قصة المشهد الغريب في النادي عندما سمع لأول مرة ذكر روبرت أندرهي.

قال رئيس الشرطة متأملاً: هذه نقطة إضافية تدعم شهادة بورتر عندما تعرض القضية أمام المحكمة؛ فقد خطط أندرهي -عملياً- لموتٍ مزعوم، وتحدث عن استخدام اسم إينوك آردن.

ثم تمتم قائلاً: ولكن هل سيتم قبول ذلك دليلاً؟ مجرد كلمات نطقها رجل هو الآن ميت؟

قال بوارو وهو يفكر: قد لا يُقبل دليلاً، ولكنه يفتح المجال أمام خطٍّ في التفكير بالغِ الأهمية والدلالة.

قال سبنس: إن ما نريده ليس الدلالة، بل بعض الحقائق الصلبة الملموسة. نريد شخصاً رأى ديفيد هنتر فعلياً في فندق ستاغ أو قريباً منه ليلة الثلاثاء.

علّق رئيس الشرطة وهو مقطب الجبين: ينبغي لذلك أن يكون سهلاً.

قال بوارو: لو كانت الجريمة هناك في بلدي، لوجدت مقهى صغيراً يتناول فيه الجميع قهوتهم المسائية. أما في محافظات إنكلترا...

ثم فتح ذراعيه إشارة إلى قِلّة الحيلة. هزّ المفوض رأسه موافقاً وقال: بعض الناس تراهم في الحانات، ومن شأنهم أن يبقوا هناك حتى تغلق الحانات أبوابها، أما باقي الناس فيكونون داخل بيوتهم يستمعون إلى أخبار الساعة التاسعة. ولو قُدِّرَ لك أن تمشي في الشارع

الرئيسي هنا بين الثامنة والنصف والعاشرة ليلاً لرأيت الشارع مهجوراً تماماً، لا أحد فيه.

علق رئيس الشرطة قائلاً: وقد اعتمد القاتل على تلك الحقيقة.

قال سبنس: ربما.

لم تكن تعابير وجهه تنبئ بالسعادة. وسرعان ما غادر رئيس الشرطة والمحقق. وبقي سبنس وبوارو بمفردهما. سأل بوارو زميله متعاطفاً: أنت لا تحب هذه القضية، أليس كذلك؟

- ذلك الشاب يُقلقني؛ فهو من النوع الذي يحيرك التعامل معه. إنه من نوع الشباب الذين يتصرفون تصرف المذنب عندما يكونون براء تماماً من عمل ما، وعندما يكونون مذنبين تجد أنك مستعد لحلف أغلظ الأيمان على أنهم ملائكة البراءة!

- وهل ترى أنت أنه مذنب؟

أجابه سبنس: ألا ترى أنت ذلك؟

فتح بوارو ذراعيه حيرة وقال: إنني مهتم بأن أعرف مقدار ما تمتلكه من قرائن وشكوك ضده.

- لا أظنك تعني القرائن القانونية؟ أظنك تعني الاحتمالات التي أراها لتورطه؟

هز بوارو رأسه بالإيجاب، فقال سبنس: توجد القداحة.

- أين وجدتموها؟

- تحت الجثة.

- هل كانت عليها بصمات؟

- كلا، أبداً.

- آه.

- نعم، أنا أيضاً استوقفني ذلك. كما أن ساعة القتيل قد توقفت عند الساعة التاسعة وعشر دقائق. وهو توقيت يتناسب تماماً مع توقيت الوفاة كما حدده الفحص الطبي، ومع إفادة راولي كلود التي أكد فيها أن أندرهي كان ينتظر زبونه في أية لحظة. ويمكن الافتراض أن موعد ذلك الزبون قد أزف وقتها.

هز بوارو رأسه موافقاً وقال: نعم، الأمر كله مُرتّب تماماً.

- والأمر الذي لا يمكن للمرء تجاهله -كما أرى يا سيد بوارو- هو أن ديفيد هو الشخص الوحيد (وأعني هو وأخته) الذي يتوفر لديه شيء من الدافع للجريمة. إما أن يكون ديفيد هنتر قد قتل أندرهي، أو أن أندرهي قُتل على يد شخص خارجي غريب تعقبه إلى هنا لسبب لا نعرفه... وذلك يبدو احتمالاً بعيداً جداً.

- آه، نعم. أوافقك الرأي.

- ما من أحد في ورمزلي فيل يمكن أن يكون له دافع لهذه الجريمة. إلا إذا افترضنا -مصادفة- وجود شخص يعيش هنا (غير الأخوين هنتر) وكانت له صلة مع أندرهي في الماضي. إنني لا أستبعد حدوث الصدف أحياناً، ولكننا لم نر أية إشارة أو إيحاء

بوجود مثل هذا الاحتمال، فقد كان القتيل غريباً بالنسبة للجميع ما عدا ديفيد هنتر وأخته.

هز بوارو رأسه موافقاً، ومضى سبنس ليقول: أما أفراد عائلة كلود فقد كان من شأنهم أن يعتبروا روبرت أندرهي أغلى من بؤبؤ العين ويحرصوا على حياته بكل طريقة ممكنة؛ فوجوده حياً معافى يعني حتمية حصولهم على ثروة ضخمة توزع بينهم.

- نعم يا صديقي، إنني أتفق معك في ذلك أيضاً. فوجود روبرت أندرهي حياً معافى هو ما تحتاجه عائلة كلود.

- وهكذا نعود إلى حيث كنا: روزالين وديفيد هما الشخصان الوحيدان اللذان يتوفر لديهما الدافع. وقد كانت روزالين في لندن، ولكن ديفيد -كما تعلم- كان في ورمزلي فيل في ذلك اليوم، فقد وصل في الساعة الخامسة والنصف إلى محطة ورمزلي هيث.

- إذن فإن لدينا الآن الدافع، وهو واضح كالشمس، ولدينا حقيقة أن ديفيد كان قريباً من موقع الجريمة منذ الخامسة والنصف وحتى ساعة معينة غير محددة.

- بالضبط. والآن لنأخذ -مثلاً- إفادة بياتريس ليبينكوت. إنني أصدق إفادتها؛ فقد سمعَتْ -بالفعل- ما قالت إنها سمعته، رغم أنها ربما أضافت من لدنها بعض الرتوش، وهو أمر من طبيعة البشر.

- نعم، إن ذلك من طبيعة البشر كما تقول.

- بصرف النظر عن معرفتي بالفتاة فإنني أصدقها؛ إذ توجد في إفادتها بعض الأشياء التي لا يمكن أن تكون قد اخترعتها. إنها

-مثلاً- لم تسمع بروبرت أندرهي أبداً من قبل. ولذلك فأنا أصدق إفادتها عما حدث بين الرجلين، ولا أصدق إفادة ديفيد هنتر.

- وكذلك أنا. لقد رأيتُ فيها شاهدةً صادقة تماماً.

- ولدينا ما يؤكد صحة إفادتها. إذ لماذا ذهب الأخوان هنتر إلى لندن برأيك؟

- هذا أحد الأمور التي أثارت اهتمامي إلى أبعد مدى.

- حسناً. بالنسبة للأوضاع المالية فإن الحال هو كالتالي: إن لروزالين حقاً في الاستفادة من ممتلكات غوردن كلود طوال حياتها، ولكنها لا تستطيع التصرف بأصول تلك الممتلكات... إلا بحدود ألف جنيه كما أعتقد. أما الحلي وما في حكمها فهي ملك لها. وكان أول ما فعلته عند سفرها للندن هو أخذ بعضٍ من أثمن قطع الحلي إلى شارع بوند وبيعها. لقد أرادت مبلغاً ضخماً من الأموال النقدية، وبسرعة. أي أنها كانت مضطرة للدّفع لمبتزٍّ.

- هل تعتبر ذلك دليلاً ضد ديفيد هنتر؟

- ألا تعتبره أنت كذلك؟

هز بوارو رأسه وقال: إنه دليل على وجود عملية ابتزاز، نعم. أما أن يكون دليلاً على نية القتل، فلا. لا يمكنك -يا صديقي- أن تؤمن بهذين الافتراضين معاً. إما أن ذلك الشاب كان عازماً على الدفع، أو أنه كان يخطط للقتل. وها أنت تقدم دليلاً على أنه كان يخطط للدفع.

- نعم، نعم. ربما كان الأمر كذلك، ولكن ربما غير رأيه.

هز بوارو كتفيه في حركة تنم عن التساؤل، أما المفوض سبنس فقد قال وهو يفكر: إنني أعرف أمثال ديفيد هنتر. إنه نوع من الرجال الذين أبلوا بلاء حسناً خلال الحرب، وتجد لديهم ما شئت من الشجاعة الجسدية، والجرأة، والاستهتار الطائش بالسلامة الشخصية. إنه نوع يُقدم على مواجهة أية احتمالات، ويُرجّح أن يحصل على أوسمة البطولة... مع أنها تكون غالباً أوسمة تعطى بعد مقتل أصحابها. عادة ما ينتهي المطاف بأمثال هؤلاء في السجن. إنهم يحبون الإثارة، ولا يستطيعون العيش بهدوء واستقامة، ولا يأبهون أبداً بالمجتمع. وليس لديهم -أخيراً- أي احترام لحياة الإنسان.

هز بوارو رأسه موافقاً. فكرر المفوض قوله: نعم، إنني أعرف أمثال هؤلاء.

ساد الصمت لبضع دقائق. ثم قال بوارو أخيراً: حسناً، إننا متفقان على أن لدينا هنا نوعية مَنْ يمكن أن يقتل، ولا شيء أكثر من ذلك. وهذا لا يشكل أي تقدم لمساعينا.

نظر إليه سبنس بفضول وقال: إنك مهتم كثيراً بهذه القضية، أليس كذلك يا سيد بوارو؟

- بلى.

- هل لي أن أسأل: لماذا؟

فتح بوارو ذراعيه حيرة وقال: إنني -بصراحة- لا أعرف تماماً لماذا. ربما لأنني عندما كنت جالساً قبل عامين أعاني من الغثيان وألم

المعدة (ذلك أني لا أحب الغارات الجوية، ولست بالغ الشجاعة رغم سعيي إلى التظاهر بعكس ذلك) أقول: وقتها، حين كنت جالساً وشعور الغثيان في معدتي هنا، وذلك في غرفة التدخين في النادي، كان «ثقيل» النادي، الميجر بورتر الطيب، يبدد الوقت بحديثه الرتيب ويعيد سرد قصة طويلة لم يكن أحد يصغي إليها سواي: لأنني كنت أتمنى أن أصرف نفسي وانتباهي عن القنابل، ولأن الحقائق التي كان يسردها بدت لي موحية مثيرة للاهتمام. وفكرت مع نفسي بأنه ربما حدث يوماً ما تطورٌ لتلك القصة التي كان يرويها. وها قد حدث تطور الآن.

- حدث ما ليس بالحسبان، أليس كذلك؟

صحح له بوارو: بالعكس. إن ما هو بالحسبان هو الذي وقع! وهو أمر بحد ذاته لافت للنظر.

سأله سبنس بارتياب: هل توقعت وقوع جريمة قتل؟

- كلا، لا! ولكن زوجة تتزوج من جديد، مع احتمال أن يكون زوجها الأول حياً، ثم يتبين أنه حي! واحتمال أن يظهر على مسرح الأحداث، ثم يظهر فعلاً! واحتمال وقوع عملية ابتزاز، وتحدث فعلاً عملية ابتزاز! ولذلك يبقى احتمال أن يتم إسكات المبتز إلى الأبد، والعجيب أنه تم إسكاته فعلاً!

قال سبنس وهو يتأمل بوارو بارتياب: حسناً، أظن أن هذه الأمور تسير وفق نهج معروف، فهو نوع شائع من الجرائم حيث يؤدي الابتزاز إلى القتل.

- أترى أنه ليس في ذلك ما يثير الاهتمام؟ هذا صحيح في الأحوال الاعتيادية. ولكن هذه القضية تثير الاهتمام؛ لأنها كلها خطأ.

- كلها خطأ؟ ماذا تعني بقولك؟

- كيف أعبّر عن ذلك؟ ما من عنصر فيها يأخذ شكله الصحيح.

نظر سبنس إليه وقال: لقد كان المفتش جاب يقول دوماً إن لك عقلاً يهوى الوعورة والتعذيب. أعطني مثالاً على ما تقول إنه خطأ؟

- حسناً، الرجل القتيل مثلاً: إنه خطأ كله.

هز سبنس رأسه حيرة، فسأله بوارو: أنت لا تشعر بذلك؟ حسناً، ربما كنتُ أنا متوهماً. إليك -إذن- هذه النقطة: يصل أندرهي إلى فندق ستاغ، فيكتب رسالة إلى ديفيد هنتر. ويستلم هنتر الرسالة في صباح اليوم التالي... في وقت الإفطار، أليس كذلك؟

- بلى، صحيح. لقد اعترف باستلام الرسالة من آردن وقتها.

- إذن كان ذلك أول إشارة لوصول أندرهي إلى ورمزلي فيل، أليس كذلك؟ فما هو أول شيء فعله هنتر؟ لقد أرسل أخته على عجل إلى لندن!

- هذا أمر مفهوم تماماً؛ إذ أراد أن يكون طليق اليد ليتعامل مع الحالة بطريقته الخاصة. وربما كان خائفاً من أن تضعف المرأة. تذكّر

أنه هو الأمر الناهي، وأن السيدة كلود كانت طوع بنانه تماماً.

- آه، نعم. ذلك واضح تماماً. إذن فقد أرسلها إلى لندن وقام بزيارة ذلك الرجل إينوك آردن. ولدينا تقرير واضح تماماً عن حديثهما من بياتريس ليبينكوت، والشيء الذي يلفت الانتباه -من على بعد أميال كما يقال- هو أن ديفيد هنتر لم يكن واثقاً فيما إذا كان محدثه هو روبرت أندرهي أم لا. لقد شك بالأمر ولكنه لم يكن يعرف.

- ولكن لا غرابة في ذلك يا سيد بوارو. لقد تزوجت روزالين هنتر بأندرهي في كيب تاون، وذهبت معه مباشرة إلى نيجيريا. ولم يلتق ديفيد هنتر أبداً مع أندرهي. ولذلك فرغم أن ديفيد قد شك -كما قلت- بأن آردن ما هو إلا أندرهي، إلا أنه لم يكن بوسعه التحقق من ذلك، لأنه لم يسبق له أن رأى أندرهي أبداً.

نظر بوارو إلى المفوض سبنس وهو يمعن التفكير ثم قال: إذن فلا يوجد ما يثير انتباهك بوصفه... فريداً؟

- أعرف ما ترمي إليه. لماذا لم يقل أندرهي مباشرة إنه أندرهي؟ أنا أظن أن ذلك أمر يمكن فهمه أيضاً؛ فالناس المحترفون الذين يقدمون على أعمال ملتوية يودون المحافظة على المظاهر. يحبون وضع الأمور بطريقة تتيح لهم أن يبقوا في الجانب السليم.. إن كنت تدرك ما أعنيه. لا، لا أظن أن هذه النقطة تثير الكثير من الانتباه؛ لا بد من أخذ الطبيعة البشرية بعين الاعتبار.

- نعم، الطبيعة البشرية. ذلك هو -كما أظن- سبب اهتمامي بهذه القضية. لقد كنتُ أقلّب نظري في محكمة الاستجواب ناظراً

إلى كل الموجودين، وناظراً، بشكل خاص، إلى أسرة كلود. كانوا -جميعاً- مرتبطين بمصلحة مشتركة، كانوا مختلفين جداً في شخصياتهم وفي أفكارهم ومشاعرهم. وقد اعتمدوا جميعاً ولسنوات طويلة على الرجل القوي، مركز الثقل بالعائلة، وأعني غوردن كلود! ربما لا أقصد بذلك الاعتماد المباشر، إذ كان لديهم جميعاً وسائل مستقلة للبقاء، ولكن تطور الأمرُ بهم (ولا بد أن هذا ما حصل) إلى الاتكاء -عن وعي أو غير وعي- على غوردن كلود، فما الذي حدث؟ سأسألك هذا السؤال أيها المفوض: ما الذي يحدث لشجرة اللبلاب المتسلقة عندما يتم قطع السنديانة التي تلتف حولها؟

- إنه سؤال لا يكاد ينسجم مع ما نحن بصدده.

- أهذا ما تراه؟ إنني أراه منسجماً. إن الشخصية -يا عزيزي- لا تقف ثابتة. إن بوسعها أن تستجمع القوة، كما أن بوسعها أن تتدهور. إن الطبيعة الحقيقية للشخص لا تظهر إلا عند الاختيار، أي عندما تأتيها تلك اللحظة التي يقف فيها المرء على قدميه هو أو يسقط.

بدا سبنس حائراً وقال: لا أعرف ما الذي ترمي إليه يا سيد بوارو. إلا أن عائلة كلود هي الآن على ما يرام، أو أنها ستصبح كذلك بمجرد انتهاء الشكليات القانونية.

ذكّره بوارو بأن ذلك قد يستغرق بعض الوقت وقال: ما زال أمامهم تفنيد إفادة السيدة غوردن كلود. فلا بد للمرأة -في نهاية المطاف- أن تعرف شكل زوجها عندما تراه.

ثم مال برأسه جانباً ونظر إلى المفوض الضخم متسائلاً.

قال المفوض: تُرى، أليس مجدياً لامرأة أن لا تتعرف على زوجها إن كان ذلك سيفقدها مبلغ مليوني جنيه؟ وفوق ذلك: فلماذا قُتل الرجل إلَم يكن هو روبرت أندرهي؟

تمتم بوارو قائلاً: ذلك -حقاً- هو السؤال.

* * *

الفصل السادس

غادر بوارو مركز الشرطة مقطب الجبين مفكراً، فيما أخذت خطواته تتباطأ مع تقدمه في المسير، وفي ساحة السوق توقف قليلاً ينظر حوله. كان هناك بيت الدكتور كلود وعلى بابه اللوحة النحاسية القديمة التي تحمل اسمه، وبعده كان مركز البريد. وفي الجانب الآخر كان منزل جيريمي كلود. وأمام بوارو إلى الخلف قليلاً من الشارع كانت الكنيسة الكاثوليكية ببنائها المتواضع مقارنة بكنيسة سينت ماري الضخمة التي احتلت وسط الساحة موحية بسيطرة الكنيسة البروتستانتية.

وبوحي من دافع مباغت دخل بوارو بوابة الكنيسة الكاثوليكية وقطع الممشى وصولاً إلى بابها الداخلي. ثم خلع قبعته ودخل ليجلس متأملاً على أحد المقاعد، إلا أن صوت نشيج مخنوق كسير القلب قطع عليه تأمله.

أدار رأسه ليرى -عبر الممر- امرأة ترتدي السواد وقد ركعت ودفنت رأسها بين يديها، ثم سرعان ما نهضت ومضت باتجاه الباب وهي ما تزال تنشج بصوت مكتوم. نهض بوارو وقد اتسعت عيناه اهتماماً وتبعها، إذ عرف أنها روزالين كلود.

وقفت في الرواق تجاهد كي تتمالك نفسها، وهناك تكلم معها بوارو بلطف شديد: سيدتي هل أستطيع مساعدتك؟

لم تظهر أية إشارة للدهشة، بل أجابته ببساطة طفل بائس: كلا. لا أحد يستطيع مساعدتي.

- إنك في مشكلة صعبة جداً، أليس كذلك؟

- لقد أخذوا ديفيد... إنني وحيدة تماماً. يقولون إنه قتل، ولكنه لم يقتل! لم يقتل!

ثم نظرت إلى بوارو وقالت: لقد كنتَ هناك اليوم، في الاستجواب، أليس كذلك؟ لقد رأيتك!

- بلى؛ إن كان بوسعي أن أساعدك يا سيدتي فسيسرني القيام بذلك.

- إنني خائفة. لقد قال ديفيد إنني سأكون بخير طالما هو بجانبي يعتني بي، ولكنهم أخذوه الآن... إنني خائفة. لقد قال إنهم جميعاً يريدون موتي. إن ذلك فظيع جداً، ولكن ربما كان صحيحاً.

- دعيني أساعدك يا سيدتي.

هزت رأسها بالرفض وقالت: كلا، لا أحد يستطيع مساعدتي. إنني مضطرة لتحمل عبء خطيئتي وحدي. لقد انقطعت عني سُبل رحمة الله.

- إن رحمة الله لا تنقطع عن أحد، وأنت تعلمين ذلك جيداً يا طفلتي.

مرة أخرى نظرت إليه مذعورة بائسة، وقالت: يتعين عليّ أن أعترف بذنوبي. أن أعترف، إن استطعت الاعتراف...

- ألا تستطيعين الاعتراف؟ لقد جئتِ إلى هذا المكان لهذا الغرض، أليس كذلك؟

- لقد جئت طلباً للراحة. ولكن أية راحة لي، أنا المذنبة.

- نحن جميعاً نُذنب.

- ولكن على المرء أن يتوب. سيكون عليّ أن أتكلم، أن أقول...

ارتفعت يداها إلى وجهها وقالت: آه، يا للكذب الذي كذبته، يا للكذب الذي كذبته!

- هل كذبتِ بشأن زوجك؟ بشأن روبرت أندرهي؟ لقد كان روبرت أندرهي هو الذي قُتل، أليس كذلك؟

التفتت إليه بحدة وعيناها مليئتان بالشك والعدائية وصاحت: لقد أخبرتكم أنه لم يكن زوجي، ولم يكن يشبهه في شيء!

- القتيل لا يشبه زوجك في شيء؟

قالت متحدية: كلا.

- أخبريني: كيف كان شكل زوجك؟

حدقت إليه، ثم قست قسمات وجهها ليبدو عليه الذعر، وغدت عيناها معتمتين خوفاً وصاحت: لن أتحدث معك أكثر.

ثم تجاوزته بسرعة وركضت عبر الممر، وعبرت البوابة خارجة إلى ساحة السوق. لم يحاول بوارو متابعتها، بل هز رأسه بكثير من الرضا وقال لنفسه: "آه، هكذا الأمر إذن"! ثم مشى ببطء إلى الساحة، وبعد تردد بسيط تابع طريقه حتى وصل فندق ستاغ الذي كان آخر بناء يمتد بعده الريف.

وقرب باب الفندق قابل بوارو راولي كلود ولين مارتشمونت. نظر بوارو إلى الفتاة باهتمام، ورأى فيها فتاة جميلة وذكية أيضاً. لم تكن من النوع الذي يعجبه هو شخصياً، إذ كان يفضل النساء الأكثر رقة وأنوثة. وفكر في نفسه بأن لين مارتشمونت تمثل النموذج العصري، رغم أن بمقدور المرء أن يرى فيها أيضاً -وبنفس القدر من الدقة- نموذجاً للنوع الإليزابيثي من النساء؛ نساء كن مستقلات التفكير، متحررات في لغتهن، أكثر ما يعجبهن في الرجال روحُ المجازفة والجرأة.

قال راولي: إننا ممتنون لك جداً يا سيد بوارو. أُقسم أن الأمر كان أشبه بخدعة سحرية.

وفكر بوارو أن ذلك كان فعلاً خدعة سحرية! فعندما يسألك امرؤ سؤالاً تعرف جوابه فإنك لن تجد أية صعوبة في تمثيل خدعة مع كل زخارفها المطلوبة. وقد قام بالتعظيم من شأن ذلك الإنجاز أمام راولي البسيط، إذ أن العثور على الميجر بورتر واستخراجه على غير توقع كان يبعث من الدهشة ما يبعثه استخراج أي عدد من الأرانب من قبعة ساحر.

قال راولي: تحيرني طريقة قيامك بمثل هذه الأمور.

لم يقدّم بوارو أي توضيح، فهو لم يكن -في نهاية المطاف- سوى بشر يستهويه الإطراء. والساحر لا يُخبر مشاهديه بطريقة قيامه بخدعته.

مضى راولي قائلاً: على كل حال، أنا ولين ممتنان لك إلى أقصى حد.

فكر بوارو بأن لين مارتشمونت لم تكن تبدو ممتنة على نحو خاص. بدت حول عينيها خطوط إرهاق وضغط، وكانت يداها تقومان بحركة عصبية من تشابك الأصابع ثم افتراقهما. قال راولي: سيؤثر هذا كثيراً على حياتنا الزوجية المستقبلية.

قالت لين بحدة: وكيف لك أن تعرف؟ إنني واثقة أن أمامنا ما لا يحصى من الإجراءات الرسمية وغيرها من الأمور.

سأل بوارو بأدب: هل ستتزوجان؟ متى؟

- في حزيران.

- ومنذ متى وأنتما مخطوبان؟

- منذ ما يقرب من ست سنوات. لقد سُرّحت لين مؤخراً فقط من سلاح البحرية.

- وهل الزواج ممنوع في سلاح البحرية؟

أجابت لين باختصار: كنت في بلاد بعيدة.

لاحظ بوارو تقطيبة راولي السريعة، وما لبث الأخير أن قال

بسرعة: هيا يا لين، ينبغي أن نذهب. أظن أن السيد بوارو يريد العودة إلى المدينة.

قال بوارو مبتسماً: ولكنني غير عائد إلى المدينة.

- ماذا؟

قالها راولي ثم توقف فجأة دون حراك، وقد بدا عليه تصلب غريب.

- سأبقى هنا، في فندق ستاغ، لفترة قصيرة.

- ولكن... ولكن لماذا؟

أجابه بوارو ببساطة: المناظر خلابة هنا.

قال راولي بارتياب: نعم، طبعاً. ولكن، ألست... ألست مشغولاً؟

أجابه بوارو مبتسماً: لقد قمت بترتيباتي. لا حاجة لأن أشغل نفسي دون داع لذلك. أستطيع أن أتمتع بأوقات فراغي وأقضيها حيث يشتهي خيالي، وخيالي متعلق بورمزلي فيل.

رأى لين مارتشمونت ترفع رأسها وتنظر إليه بإمعان، أما راولي فقد رأى بوارو أنه انزعج قليلاً. قال راولي: أظن أنك تلعب الغولف، أليس كذلك؟ يوجد فندق أفضل بكثير في ورمزلي هيث، أما هذا الفندق فهو صغير سيء التجهيز.

أجابه بوارو: إن اهتماماتي تتركز كلياً في ورمزلي فيل.

قالت لين: هيا يا راولي.

تبعها راولي بشيء من التردد. وعند الباب توقفت لين قليلاً ثم عادت بسرعة، وتحدثت مع بوارو بصوت منخفض تماماً: لقد اعتقلوا ديفيد هنتر بعد الاستجواب. فهل تظنهم... هل تظنهم كانوا محقين في ذلك؟

- لم يكن لديهم بديل بعد صدور الحكم يا آنستي.

- أعني... هل تظن أنه فعلها؟

- وهل أنت تظنين؟

ولكن كان راولي قد عاد ليقف جانبها. تصلب وجهها حتى لم يعد ينم عن شيء وقالت: وداعاً يا سيد بوارو... آمل أن نلتقي ثانية.

قال بوارو في نفسه: عجباً!

وفي الفندق رتب بوارو مع بياتريس ليبينكوت مسألة حجز غرفة له ثم خرج ثانية، لتقوده خطاه إلى بيت الدكتور ليونيل كلود. فتحت العمة كاثي الباب وهتفت: "آه!"، ثم تراجعت خطوة أو خطوتين، وأضافت: السيد بوارو!

أجابها بوارو منحنياً: في خدمتك يا سيدتي؛ جئتكم زائراً.

- لطف منك أن تزورنا. نعم، حسناً. تفضل بالدخول؛ اجلس رجاءً. سأنادي السيدة بلافاتسكي لنشرب كوباً من الشاي، ولكن الكعك غير طازج. أردت الذهاب إلى محلات بيكوك لأشتري بعض

الكعك، ولكن جلسة الاستجواب تفسد روتين الحياة المنزلية، أليس كذلك؟

أجابها بوارو بأنه يرى ذلك مفهوماً تماماً. كان قد خُيِّل لبوارو أن راولي كلود قد انزعج من إعلانه نيته البقاء في ورمزلي فيل، وها هو أسلوب العمة كاثي يبدو -دون أي شك- أبعد ما يكون عن الترحيب؛ فقد كانت تنظر إليه وفي وجهها ما يكاد يبلغ حد الرعب. انحنت وقالت بصوت أجش هامس وبلهجة احتيالية: لا أظنك ستخبر زوجي بأنني جئت واستشرتك بخصوص... بخصوص موضوعنا إياه؟

- شفتاي مختومتان.

- أعني... لم يخطر لي طبعاً في ذلك الوقت بأن روبرت أندرهي كان عملياً في ورمزلي فيل، يا للمسكين! أمر مأساوي جداً. إن ذلك يبدو لي أكثر المصادفات غرابة!

وافقها بوارو قائلاً: لو أن لوح تحضير الأرواح وجّهك إلى فندق ستاغ مباشرة لكان ذلك أبسط بكثير.

تهلل وجه العمة كاثي قليلاً لدى ذكر لوح تحضير الأرواح وقالت: إن طريقة حدوث الأشياء في عالم الأرواح تبدو عصية على التقدير والتخمين، ولكنني أشعر حقاً يا سيد بوارو بأن في هذا الأمر كله غرضاً؛ ألا تشعر بذلك في الحياة؟ أي بأن هناك دوماً غرضاً ما؟

- بلى، أشعر بذلك حقاً يا سيدتي. حتى في جلوسي هنا الآن في غرفة جلوسك يوجد غرض.

- آه، حقاً؟

بدا وكأن السيدة كلود قد فوجئت قليلاً، أضافت قائلة: أيوجد حقاً غرض؟ نعم، أظن ذلك. أنت عائد إلى لندن بالطبع، أليس كذلك؟

- ليس الآن؛ سأبقى لبضعة أيام في فندق ستاغ.

- في فندق ستاغ؟ آه، في ستاغ! ولكنه المكان الذي... آه، أتظن قرارك هذا حكيماً يا سيد بوارو؟

أجابها بوارو بجدية: لقد هُديتُ إلى فندق ستاغ.

- هديت؟ ما الذي تعنيه؟

- لقد هديتني أنت.

- آه، ولكني لم أقصد أبداً... أعني أنني لم أكن أعرف أبداً... إن الأمر كله فظيع جداً، ألا ترى ذلك؟

هز بوارو رأسه بحزن وقال: لقد كنت أتحدث مع السيد راولي والآنسة مارتشمونت. سمعت أنهما سيتزوجان قريباً جداً؟

وعلى الفور نسيت العمة كاثي الموضوع السابق وبدأت تقول: العزيزة لين. إنها فتاة رائعة جداً، وهي جيدة جداً في الحسابات. لم تعد لي الآن ذاكرة للحسابات... لم تعد لي أية ذاكرة. إن عودة لين إلينا نعمة بكل معنى الكلمة. تراها إذا ما وقعتُ في ورطة فظيعة تتقدم دوماً وتسوي لي الأمور. فتاتي العزيزة! آمل أن تكون سعيدة. راولي شخص رائع بالطبع، ولكنه ربما كان... وربما كان جامداً مملاً بعض الشيء. أعني أنه جامد بالنسبة لفتاة شاهدت الكثير في هذا العالم

مثل لين. لقد بقي راولي في مزرعته طوال سنوات الحرب، ولكن بشكل شرعي طبعاً. أعني أن الحكومة أرادت منه ذلك، والأمر -من هذه الناحية- لا غبار عليه؛ إذ لم يكن مسألة جبن أو ما شابه، كما حدث في حرب البوير. ولكن ما أعنيه هو أن ذلك قد جعله محدود التفكير إلى حد ما.

- إن ست سنوات من الخطبة تُعتبر اختباراً جيداً للحب.

- آه، صحيح! ولكنني أظن أن هؤلاء الفتيات يصبحن -عندما يعدن إلى الوطن- قلقات بعض الشيء، وإذا ما وُجد شخص بالقرب منهن، شخص كانت حياته حياة مغامرة.

- مثل ديفيد هنتر؟

أجابت العمة كاثي بلهفة وسرعة: ليس بينهما أي شيء، على الإطلاق. إنني واثقة تماماً من ذلك! ولو صح ذلك لكان أمراً فظيعاً بعدما تبين أنه قاتل، وقاتل لصهره أيضاً! آه، لا يا سيد بوارو، أرجوك أن لا تخرج بفكرة وجود أي تفاهم بين لين وديفيد. والواقع أن ما كان يغلب على لقاءاتهما كلما التقيا هو العراك والمشاجرة أكثر من أي شيء آخر. ما شعرته هو أن... آه، أظن أن هذا زوجي قادم. تذكر يا سيد بوارو، لا أريد ذكر أية كلمة عن لقائنا الأول، هل يمكن ذلك؟ إن زوجي المسكين ينزعج كثيراً إذا رأى أن... آه، عزيزي ليونيل. أقدم لك السيد بوارو الذي قام -بذكائه- بإحضار ذلك الميجر بورتر لمعاينة الجثة.

بدا الدكتور كلود منهكاً متعباً. قلّب عينيه الزرقاوين الشاحبتين

وبؤبؤيهما الصغيرين في الغرفة بذهول وقال: مرحباً يا سيد بوارو، أأنت عائد للمدينة؟

فكر بوارو قائلاً لنفسه: "يا إلهي، ها هو شخص آخر يدفع بي دفعاً إلى لندن!". ثم قال بصبر: لا، إنني باق في فندق ستاغ ليوم أو يومين.

- فندق ستاغ؟

عبس ليونيل كلود وأضاف: آه؟ أيريد الشرطة أن يستبقوك هنا قليلاً؟

- كلا، إنه خياري أنا.

- حقاً؟

وبدت على الطبيب فجأة نظرة ذكاء سريعة وقال: إذن فأنت غير مقتنع؟

- لماذا تظن ذلك يا دكتور كلود؟

- هيا يا رجل، اعترف بأنها الحقيقة، أليس كذلك؟

تمتمت السيدة كلود بكلمات حول إعداد الشاي وغادرت الغرفة فيما مضى الطبيب قائلاً: لديك شعور بوجود خطأ ما، أليس كذلك؟

فوجئ بوارو، وقال: إنه لمن الغريب أن تقول ذلك، فهل تشعر أنت -إذن- بذلك الشعور؟

تردد كلود قليلاً وقال: كلا، لا يكاد الأمر يصل إلى هذا الحد. ربما كان ذلك مجرد شعور بعدم الواقعية. ففي الروايات يُقتل المُبتز، ولكن هل يحدث ذلك في الحياة الواقعية؟ يبدو واضحاً أن الجواب هو: «نعم»، ولكن ذلك يبدو غير طبيعي.

- هل كان في الجانب الطبي من القضية شيء غير مُقنع؟ وأنا هنا أسأل بصفة غير رسمية طبعاً.

أجاب الدكتور كلود وهو يفكر: كلا، لا أظن ذلك.

- بلى... يوجد شيء ما... بوسعي أن أرى ذلك.

كان يمكن لبوارو -عندما يرغب بذلك- أن يُكسِبَ صوته ميزة تكاد تجعله ينوّم مغنطيسياً.

عبس الدكتور كلود قليلاً، ثم قال متردداً: ليست لدي خبرة بقضايا الشرطة طبعاً، والدليل الطبي ليس -على أية حال- أمراً باتاً قاطعاً لا يقبل الخطأ كما يظن المبتدئون أو عامة الناس؛ فنحن نرتكب أخطاء، وعلم الطب ليس معصوماً. ما هو التشخيص؟ إنه تخمين يستند إلى معرفة قليلة جداً، وإلى بعض المؤشرات غير النهائية التي تشير إلى أكثر من اتجاه. ربما كنتُ أنا بارعاً في تشخيص مرض الحصبة، لأنني رأيت خلال حياتي المئات من حالات الحصبة وأعرف تشكيلة واسعة جداً من علامات هذا المرض وأعراضه، وأنت لا تكاد تجد أبداً ما تخبرك كتب الطب التقليدية بأنه «الحالة النموذجية» للحصبة، ولكنني شهدت بعض الأمور الغريبة في حياتي: لقد رأيت امرأة كانت -عملياً- على طاولة العمليات استعداداً لاستئصال زائدتها الدودية، عندما تبين -في الوقت المناسب تماماً-

أنها تعاني من الحمى شبه التيفوئيدية! شاهدت طفلاً ذا مشكلات جلدية وقد حكم طبيب شاب حي الضمير بأن لديه نقصاً حاداً في الفيتامينات، فيما جاء الطبيب البيطري المحلي لأم الطفل وذكر لها بأن القطة التي يحتضنها الطفل مصابة بمرض القوباء الحلقية، وأن الطفل قد أصابته العدوى منها! إن الأطباء هم -ككل الناس- ضحايا للأفكار المسبقة. فها هو رجل من الواضح أنه قُتل، وهو ممدد وبجانبه ملقط موقد ملطخ بالدماء، سيكون من السخف القول إنه قد ضرب بأي شيء آخر، ومع ذلك، ورغم أنني أتكلم وأنا أفتقر تماماً للخبرة في مجال الرؤوس المهشمة، إلا أنني كنت سأشك في شيء ما مختلف بعض الشيء، شيء ليس بهذه المَلاسَة والاستدارة، شيء... آه، لا أدري، ولكنه شيء ذو حافة أكثر حدة، كقطعة آجر أو شيء من هذا القبيل.

- ولكنك لم تقل ذلك في التحقيق؟

- نعم، لأنني لا أدري حقاً. لقد كان جينكينز، الطبيب الشرعي، مقتنعاً، وهو الرجل الذي يؤخذ بكلامه. ولكن تبقى الفكرة المسبقة: السلاح المرمي قرب الجثة. أيمكن أن يكون الجرح قد حدث نتيجة ذلك السلاح؟ نعم، ممكن. ولكنك -لو رأيتَ الجرح وسُئلت ما الذي أحدثه- فلا أدري إن كنت ستجيب كما أجاب الطبيب الشرعي، لأنه ليس في ذلك حقاً أي معنى. أعني: إن وُجد شخصان، واحد يضربه بآجر والآخر بالملقط.

توقف الطبيب، وهز رأسه علامة على عدم الاقتناع، وردد قائلاً: ليس في ذلك أي معنى، أليس كذلك؟

- أيمكن إن يكون قد سقط على شيء حاد؟

هز الدكتور كلود رأسه بالنفي وقال: لقد كان ممدداً وسط الغرفة ووجهه إلى الأرض... فوق سجادة فاخرة ثخينة قديمة.

ثم توقف عندما دخلت زوجته الغرفة، وقال: ها هي كاثي جاءتنا بأكل القطط.

كانت العمة كاثي تحمل صينية مليئة بالأواني الفخارية، وبنصف رغيف من الخبز وبعض المربى الرديء في قعر آنية زجاجية. قالت وهي ترفع غطاء إبريق الشاي وتنظر داخله: أظن أن الشاي كان يغلي في الإبريق.

همهم الدكتور كلود ثانية وتمتم قائلاً: "أكل القطط"، وبهذه العبارة الغاضبة خرج من الغرفة.

قالت العمة كاثي: مسكين ليونيل، أعصابه في حالة يرثى لها منذ أيام الحرب. إنه يعمل كثيراً إلى حد الإرهاق. كثير من الأطباء تركوا المنطقة، وهو لا يستريح أبداً، بل يعمل من الصباح إلى الليل، وإني لأعجب من عدم انهياره كلياً، لقد كان يتطلع -بالطبع- إلى التقاعد فور حلول السلام، وتم ترتيب ذلك كله مع غوردن. إن هوايته هي علم النبات، مع تركيز خاص على الأعشاب الطبية التي استخدمت في العصور الوسطى، وهو يكتب كتاباً عن ذلك. كان يتطلع إلى حياة هادئة يقوم فيها بأبحاثه الضرورية. ولكن بعدها، عندما توفي غوردن على ذلك النحو... أنت تعلم -يا سيد بوارو- كيف هي الأمور الآن، مع وجود الضرائب والتكاليف الأخرى. لم يعد بوسعه أن يتقاعد، وذلك يجعله يحس بمرارة شديدة. إن الأمر

يبدو مجحفاً حقاً... أن يموت غوردن كلود هكذا، دون وصية. لا أملك إلا أن أشعر بأن ذلك كان خطأ.

تنهدت ثم استعادت شيئاً من البهجة وقالت: ولكنني أحصل على بعض التأكيدات المطمئنة الرائعة من الجانب الآخر: «شجاعة وصبراً وسيتم العثور على مخرج»... وبالفعل، عندما وقف ذلك الميجر بورتر الرائع اليوم وقال بتلك الطريقة الجازمة الشجاعة بأن القتيل المسكين هو روبرت أندرهي. عندها رأيت أنه تم العثور فعلاً على مخرج! أليس من الرائع -يا سيد بوارو- أن تنقلب الأمور هكذا نحو الأفضل؟

علق بوارو قائلاً: حتى جريمة القتل!

* * *

الفصل السابع

دخل بوارو فندق ستاغ منشغل الذهن، يرتجف قليلاً نتيجة الريح الشرقية الباردة. كانت الصالة فارغة مهجورة. فتح باب البهو إلى يمينه ليجد رائحة دخان في البهو، والنار توشك على الانطفاء. مشى بوارو على رؤوس أصابعه إلى الباب الآخر عند نهاية الصالة، والذي تعلوه عبارة «للنزلاء فقط». وعندما فتح الباب الآخر وجد ناراً مضطرمة في الموقد كما يشتهي، ولكن أمام النار، وعلى كرسي ضخم، جلست بارتياح امرأة هائلة الحجم تستمتع «بتدفئة» أصابع قدميها. حدقت المرأة إلى بوارو بضراوة جعلته يعود أدراجه كمن يعتذر عن ذنب ارتكبه.

وقف لحظة في الصالة ينظر من خلال المكتب الزجاجي الفارغ إلى الباب الذي كُتبت عليه بأحرف راسخة قديمة الطراز عبارة «غرفة القهوة». كان بوارو يعرف -من خبرته في فنادق الأرياف- بأن الوقت الوحيد الذي تُقدَّمُ فيه القهوة -وبشيء من المَرَّ أيضاً- هو وقت الإفطار، وحتى عند الإفطار يكون العنصر الغالب في تلك القهوة هو الحليب الحار المغشوش بالماء. أما الفناجين الصغيرة من ذلك السائل الدبسي العكر المسمى «قهوة سوداء» فلم تكن تُقدمُ في

غرفة القهوة بل في البهو. وبوسع النزيل أن يتناول حساء ويندسور، وشرائح اللحم المسماة فيينا ستيك مع البطاطا، والفطائر المُدخَّنة، مما يشكل بمجمله وجبة العشاء، بوسعه أن يتناول ذلك في غرفة القهوة في الساعة السابعة تماماً. وحتى ذلك الحين كان الهدوء العميق يخيم على منطقة الغرف السكنية في فندق ستاغ.

صعد بوارو الدرج وهو غارق في التفكير. وبدل الالتفاف يساراً إلى حيث توجد غرفته ذات الرقم ١١، انعطف يميناً ووقف أمام الغرفة رقم ٥، نظر حوله، فلم يجد غير الصمت والفراغ، ففتح الباب ودخل.

كان الشرطة قد أنهوا عملهم في تفتيش الغرفة، وبدا واضحاً أنه تمّ تلميعها وتنظيفها مؤخراً. لم تكن هناك سجادة على الأرض، والظاهر أن السجادة الفاخرة التي تحدث عنها الدكتور ليونيل قد أُرسلت إلى محل التنظيف، أما البطانيات فقد كانت مطوية وموضوعة على السرير كرزمة مرتبة.

أغلق بوارو الباب خلفه وتجول في الغرفة التي كانت نظيفة، خالية -على نحو غريب- من أية مسحة إنسانية. استعرض بوارو أثاث الغرفة: طاولة كتابة وخزانة وأدراج صغيرة من خشب الماغوني القديم جداً، وخزانة ملابس عمودية من نفس الخشب (يُفترض أنها هي التي تغطي الباب الفاصل بين هذه الغرفة والغرفة رقم٤)، وسرير نحاسي ضخم مزدوج، ومغسلة كبيرة أقرب إلى الحوض مزودة بالماء الحار والبارد (كمؤشر للحداثة ونقص الخدم)، وثمة كرسي مُنجّد ذو ذراعين لا يبدو مريحاً رغم ضخامته، وكرسيان

صغيران. أما الموقد فقد كان قديماً فيكتوري الطراز، وإلى جانبه قضيب معدني لإذكاء النار، وجاروف مدبب حاد لحمل الفحم. وبدا أن القضيب والجاروف كلاهما من نفس مجموعة الملقط. وكان حول الموقد إطار رخامي ضخم، مع حاجز رخامي متين للنار داخل الموقد ذي زوايا مربعة.

كان ذلك الحاجز الرخامي داخل الموقد وزواياه المربعة هو ما انكب بوارو عليه ليدقق فيه. بلل بوارو أصبعه وحك الزاوية اليمنى لحاجز النار ثم نظر إلى أصبعه ليرى النتيجة، فوجده قد اسودّ قليلاً. ثم كرر العملية بأصبع آخر على الزاوية اليسرى من حاجز النار. ولكنه -هذه المرة- وجد أصبعه نظيفاً تماماً.

حدث نفسه وهو غارق في التفكير: "نعم، نعم". نظر إلى المغسلة الضخمة، ثم مشى إلى النافذة. كانت النافذة تطل على سطح معدني ما، ظنه بوارو سطح مَرْأب سيارات، وتحته ممر خلفي صغير. طريق سهل يستطيع الشخص أن يأتي منه ويذهب دون أن يُرى من الغرفة رقم ٥. ولكن رغم ذلك، كان من السهولة أيضاً صعود الدرج بشكل عادي إلى الغرفة رقم ٥ دون أن يثير ذلك أي انتباه، ولقد فعلها بوارو لتوّه.

انسحب بوارو بهدوء، وأقفل الباب خلفه دون أي ضجة، ثم مضى إلى غرفته ليجد أنها باردة جداً. ولذلك عاد أدراجه إلى الطابق السفلي، وهناك تردد قليلاً، ثم دفعه زمهرير تلك الأمسية إلى التجرّؤ على ولوج باب «للنزلاء فقط»، حيث سحب كرسياً قرب الموقد وجلس.

كانت العجوز الهائلة أكثر إثارة للرعب عندما ينظر إليها الناظر عن قريب. كانت ذات شعر أشيب بلون الحديد، وشاربٍ كث، وصوت عميق يثير الفزع كما بدا حين تكلمت قائلة لبوارو: هذا البهو محجوز لنزلاء الفندق.

أجابها بوارو: أنا نزيل في الفندق.

فكرت العجوز لحظات قبل أن تعاود هجومها، ثم قالت كمن يوجه تهمة: أنت أجنبي.

- نعم.

- برأيي أن عليكم أن تعودوا جميعاً.

سأل بوارو: إلى أين نعود؟

أجابت العجوز بثبات: "إلى المكان الذي جئتم منه."، ثم أضافت كحاشية استدراكية قالتها جانبياً: "أجانب!"، وشخرت.

قال بوارو بشيء من الإذعان: سيكون ذلك صعباً.

- هراء! لقد خضنا الحرب لهذا السبب، أليس كذلك؟ خضناها لكي يعود الناس إلى بيوتهم وأوطانهم ويبقوا هناك.

لم يدخل بوارو في جدال مع العجوز؛ فقد تعلم بأن لكل شخص رأياً مختلفاً في موضوع «لماذا خضنا الحرب؟».

ساد جو من الصمت العدائي إلى حد ما، قطعته العجوز بقولها: لا أدري ما الذي ستؤول إليه الأمور... حقاً لا أدري. إنني

آتي وأنزل في هذا الفندق كل عام. فقد مات زوجي هنا منذ ستة عشر عاماً، وهو مدفون هنا. إنني آتي لأقيم هنا شهراً في كل عام.

قال بوارو بأدب: حج مبرور.

- وفي كل عام تزداد الأمور سوءاً على سوء. خدمة سيئة، والطعام لا يؤكل! ويسمونه «فيينا ستيك» أيضاً! إما أن تكون شرائح الستيك الحقيقية من أرداف البقرة أو من خاصرتها... لا أن يحضروا لك حصاناً مُقدَّداً!

هزّ بوارو رأسه بأسف، ومضت العجوز قائلة: الأمر الجيد الوحيد هو أنهم أغلقوا القاعدة الجوية، فقد كانت مشينة، مع مجيء كل أولئك الطيارين الشباب إلى هنا بصحبة أولئك الفتيات الفظيعات. يا لهن من فتيات! لا أدري ما الذي تفكر به أمهاتهن في هذا الزمن إذ يتركنهن يتسكعن على ذلك النحو. إنني ألوم الحكومة التي ترسل النساء ليعملن في المصانع، ولا تعفيهن من ذلك إلا عندما يكون لديهن أطفال صغار. أطفال صغار... هذا هو الهراء بعينه! إن بوسع أي امرئ أن يعتني بطفل صغير! فالطفل لا يخرج راكضاً خلف الجنود. إن الفتيات بين الرابعة عشرة والثامنة عشرة هن من يحتاج إلى العناية والرعاية ويحتجن أمهاتهن! لا أحد يعرف ما تفكر به الفتاة كأمها. الجنود والطيارون! هذا هو كل ما يفكرن به. أمريكيون! زنوج! رعاع بولنديون!

وصل السخط بالعجوز في هذه النقطة إلى حد جعلها تسعل. وعندما أكملت نوبة السعال مضت في حديثها لتورط نفسها في نوبة غضب مضحكة، مستخدمة بوارو هدفاً لغضبها: لماذا يضعون أسلاكاً

شائكة حول معسكراتهم؟ لمنع الجنود من الوصول إلى الفتيات؟ كلا، بل لمنع الفتيات من الوصول إلى الجنود! هكذا هُنّ، مَشبيّات العقول بالرجال! انظر إلى طريقة لبسهن. يلبسن البناطيل! وبعض الحمقاوات منهن يلبسن الشورتات... ما كن ليقدمن على ذلك لو أدركن كيف تبدو أشكالهن من الخلف!

- إنني أتفق معك يا سيدتي، أتفق معك تماماً.

- وما الذي يلبسنه فوق رؤوسهن؟ هل يلبسن قبعات مناسبة؟ كلا، بل يضعن خرقة مطوية هكذا إلى الأعلى، والوجوه مغمورة بالأصباغ والمساحيق. وتلك القذارة على شفاههن والصباغ على أظافر أيديهن!

سكت الصوت المدوي للعجوز، ونظرت إلى بوارو مترقبة، فتنهد وهز رأسه أسفاً، فيما مضت هي تقول: وحتى في الكنائس لا يضعن قبعات. بل إنهن أحياناً لا يضعن حتى تلك الشالات السخيفة، بل يدخلن بشعرهن الأشعث البشع الممموج دائماً. الشعر؟ ما عاد أحد يعرف ما هو الشعر في هذه الأيام. عندما كنت شابة كان بوسعي أن أجلس على شعري.

استرق بوارو نظرة إلى خصلات شعرها الأشيب بلون الحديد. بدا له مستحيلاً أن هذه العجوز الرهيبة قد كانت يوماً ما شابة أبداً!

مضت العجوز قائلة: أطلّت إحداهن برأسها هنا قبل أيام، نعم، وقد لفّت نفسها بوشاح برتقالي وكلها أصباغ ومساحيق. نظرتُ إليها فقط، فسارعت بالخروج! لم تكن من النزلاء. ويسرني أنه لا توجد نزيلات من طرازها هنا! ما الذي كانت تفعله عندما خرجت من

غرفة نوم أحد الرجال؟ إنه أمر مُقزز، تحدثتُ بشأنه مع تلك الفتاة ليبينكوت، ولكنها لا تَقِلّ سوءاً عن الأخريات، وربما سعت أميالاً خلف أي لابس بنطال.

استيقظ في عقل بوارو اهتمام باهت خفيف، فتساءل: خرجت من غرفة رجل؟

عادت العجوز لتكمل موضوعها بحماسة: هذا ما قلته. لقد رأيتها بأم عيني... الغرفة رقم ٥.

- في أي يوم كان ذلك يا سيدتي؟

- في اليوم الذي سبق كل تلك الضجة حول مقتل رجل هنا. من المشين أن يحدث شيء كهذا هنا! لقد كان هذا الفندق فيما مضى مكاناً محترماً من النوع القديم. أما الآن...

- في أي ساعة من النهار كان ذلك؟

- النهار؟ لم يكن نهاراً أبداً، بل في الليل، وفي وقت متأخر من الليل أيضاً. أمر معيب تماماً. بعد العاشرة ليلاً. إنني أذهب إلى النوم في الساعة العاشرة والربع. وقد خرجتْ هي من الغرفة رقم ٥ بمنتهى الوقاحة، ونظرت إليّ، ثم دخلت ثانية إلى الغرفة وهي تضحك وتتحدث مع الرجل هناك.

- هل سمعتِ الرجل نفسه يتكلم؟

- ألست أقول لك ذلك؟ انسلّت هي داخلةً فصاح فيها قائلاً: "آه، هيا، اخرجي من هنا. يكفي...". يا لها من طريقة لطيفة في

التحدث مع فتاة. ولكنهن يستأهلن ذلك! عديمات الخلق!

- ألم تذكري ذلك للشرطة؟

جمدته بنظرة قاتلة منها ثم نهضت متمايلة عن كرسيها، ووقفت هناك تنظر إليه من الأعلى وتقول: لم يسبق لي أبداً أن كان لي شأن مع الشرطة. هه، الشرطة! أنا أقف في محكمة الشرطة؟

ثم غادرت الغرفة وهي تهتز غضباً بعد أن رمت بوارو بنظرة ضغينة. جلس بوارو لبضع دقائق يداعب شاربه مفكراً، ثم ذهب ليبحث عن بياتريس ليبنكوت، التي قالت رداً على استفسار بوارو: آه، نعم يا سيد بوارو، أتعني السيدة ليدربتر العجوز؟ إنها أرملة كانون ليدربتر، وهي تأتي إلى هنا كل عام، ولكنها طبعاً -وليبق هذا بيننا- مُرهِقة مُتعِبة، وهي حقاً شديدة الوقاحة أحياناً مع الناس، ويبدو أنها لا تريد أن تفهم أن الأمور قد تغيرت هذه الأيام. لقد قاربت الثمانين من عمرها بالطبع.

- ولكنها صافية الذهن، وتعرف ما تقوله، أليس كذلك؟

- آه، بلى؛ إنها عجوز حادة الذكاء تماماً، بل أذكى مما هو مطلوب في بعض الأحيان.

- هل تعرفين من هي الشابة التي زارت القتيل ليلة الثلاثاء؟

بدت بياتريس مدهوشة وقالت: لا أذكر مجيء شابة لزيارته في أي وقت. كيف كان شكلها؟

- كانت ترتدي شالاً برتقالياً حول رأسها، وأظن أنها كانت

تضع الكثير من المساحيق والأصباغ على وجهها. كانت في الغرفة رقم ٥ تتكلم مع آردن عند الساعة العاشرة والربع من ليلة الثلاثاء.

- ليست عندي أية فكرة عن ذلك يا سيد بوارو.

مضى بوارو وهو منشغل الذهن ليبحث عن المفوض سبنس. أصغى سبنس صامتاً لقصة بوارو، ثم اتكأ إلى الخلف في كرسيه وهز رأسه ببطء وقال: أمر غريب، أليس كذلك؟ كم يعود المرء إلى الحكمة القديمة نفسها: «ابحث عن المرأة».

ألقى سبنس هذه الحكمة بالفرنسية، وقد كان فخوراً بلغته الفرنسية رغم أنها لم تكن بمستوى فرنسية الرقيب غريفز. نهض سبنس وعبر الغرفة ليعود وهو يمسك شيئاً في يده. كان ذلك أحمر الشفاه، وقد وُضع في علبة كرتون ذهبية. وقال: كان لدينا طوال الوقت هذا المؤشر على إمكانية تورط امرأة في هذا الأمر.

أخذ بوارو أحمر الشفاه ومسح به برفق على ظاهر يده، ثم قال: إنه من نوعية جيدة، أحمر قاتم بلون الكرز. ربما كان يستعمل من قبل امرأة سمراء.

- نعم. لقد عثروا عليه على أرضية الغرفة رقم ٥، وقد تدحرج تحت خزانة الأدراج، وربما كان هناك منذ زمن طبعاً. ما من بصمات عليه. طبعاً، لا توجد هذه الأيام تلك التشكيلة الواسعة من أحمر الشفاه كالسابق؛ فقط بضعة ألوان أساسية.

- هل أنت واثق من أنك قمت بتحرياتك بهذا الشأن؟

ابتسم سبنس وقال: نعم، لقد قمنا بتحرياتنا كما أسميتها.

إن روزالين تستخدم هذا النوع من أحمر الشفاه، وكذلك لين مارتشمونت. أما فرانسيس فإنها تستخدم لوناً أفتح. السيدة ليونيل كلود لا تضع أحمر شفاه، والسيدة مارتشمونت تستخدم لوناً بنفسجياً باهتاً. أما بياتريس ليبينكوت فيبدو أنها لا تستخدم شيئاً غالي الثمن إلى هذا الحد، وكذلك خادمة الغرف غلاديس.

ثم صمت، فقال له بوارو: لقد تعمّقتَ في تحرياتك.

- لم أتعمق بما فيه الكفاية، إذ يبدو الآن كما لو أن امرأة غريبة متورطة في الموضوع. ربما كانت امرأة يعرفها أندرهي في ورمزلي فيل.

- وكانت معه في العاشرة والربع من ليلة الثلاثاء؟

- نعم.

ثم أضاف سبنس متنهداً: هذا يجعل ديفيد هنتر خارج الموضوع.

- أيجعله حقاً؟

- نعم. لقد وافق، سعادته، على الإدلاء أخيراً بإفادته، وذلك بعد أن تعب محاميه في إقناعه بالتصرف بمنطقية. وها هو تقريره عن تحركاته.

أخذ بوارو مذكرة مطبوعة بشكل أنيق وقرأ فيها: «غادر لندن في قطار الساعة ٤,١٦ إلى ورمزلي هيث، وصل هناك الساعة ٥,٣٠. مشى إلى منزل فوروبانك عبر الطريق الترابي».

تدخل المفوض سبنس قائلاً: كان سبب قدومه إلى هنا -كما قال- هو أخذ بعض الأشياء التي تركها: رسائل وأوراق ودفتر شيكات، ولرؤية ما إذا كانت بعض القمصان قد عادت من محل تنظيف الملابس... تلك القمصان التي لم تكن قد عادت بالطبع! يا إلهي، إن محلات تنظيف الملابس مشكلة هذه الأيام. لقد انقضت أربعة أسابيع منذ أن مروا آخر مرة ببيتنا. لم تبق لدينا منشفة نظيفة واحدة، وزوجتي تغسل كل ملابسي بنفسها الآن.

بعد هذا الإقحام الإنساني جداً عاد المفوض إلى مسار حركات ديفيد: «غادر فوروبانك الساعة ٧,٢٥، ويقول إنه ذهب للتجول مشياً على الأقدام بعد أن فاته قطار الساعة ٧,٢٠ ولم يكن ثمة قطار حتى الساعة ٩,٢٠».

سأل بوارو: في أي اتجاه مشى؟

راجع المفوض أوراقه وقال: يقول إنه مشى قرب غيضة داون، ثم باتز هيل، ثم لونغ ريدج.

- إنها -في الحقيقة- دورة كاملة حول منزل وايت هاوس!

- يا إلهي، ما أسرع ما أتقنت جغرافية المنطقة يا سيد بوارو!

ابتسم بوارو وهز رأسه نافياً وقال: لا، أنا لا أعرف الأماكن التي ذكرتها، بل كنت أخمن.

- آه، تخمين، أليس كذلك؟

ثم أمال المفوض رأسه إلى الجانب وقال: ثم يقول ديفيد إنه

عندما وصل إلى لونغ ريدج أدرك بأنه قد مضى الوقت بسرعة، فركض قاصداً محطة ورمزلي هيث عبر الحقول. وقد لحق بالقطار في آخر لحظة، ووصل إلى محطة فيكتوريا في لندن الساعة ١٠,٤٥ ثم مشى إلى شقة أخته في شيفردز كورت حيث وصل إلى هناك في الحادية عشرة، وهذا الجزء الأخير من الإفادة تؤكده السيدة روزالين كلود.

- وماذا تملك من أدلة قطعية بخصوص باقي التحركات؟

- القليل القليل... ولكن توجد بعض الشواهد. فقد رآه راولي كلود وآخرون وهو يصل إلى ورمزلي هيث. وقد كانت خادمات فوروبانك في إجازة (وكان لديه مفتاحه الخاص طبعاً) ولذلك لم يشاهدنه، ولكنهن وجدن عقب لفافة تبغ في المكتبة مما أثار فضولهن كما فهمت، كما وجدن الكثير من الاضطراب في خزانة البياضات. ثم إن أحد البستانيين كان يعمل هناك حتى وقت متأخر، وقد لمحه البستاني هناك، كما قابَلَته الآنسة مارتشمونت قرب ماردون وود عندما كان يركض للحاق بالقطار.

- هل رآه أحد وهو يستقل القطار؟

- كلا. ولكنه اتصل هاتفياً بالآنسة مارتشمونت من لندن فور وصوله في الساعة الحادية عشرة وخمس دقائق.

- وهل تم التحقق من صحة ذلك؟

- نعم، لقد أجرينا تحقيقاً حول المكالمات من ذلك الرقم، وقد وجدنا مكالمة في الساعة ١١,٠٤ إلى رقم ٣٤ في ورمزلي فيل، وهو رقم عائلة مارتشمونت.

تمتم بوارو قائلاً: هذا مثير جداً جداً.

ولكن سبنس استمر في حديثه بمنهجية وحرص: لقد ترك راولي كلود القتيل آردن في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق، وهو يؤكد تماماً أن الوقت لم يكن قبل ذلك. وفي نحو التاسعة وعشر دقائق رأت لين مارتشمونت ديفيد هنتر قرب ماردن وود. فإذا افترضنا -جدلاً- أنه ركض الطريق كله من فندق ستاغ، فهل كان يمتلك من الوقت ما يسمح له بمقابلة آردن، والتشاجر معه وقتله والوصول إلى ماردن وود؟ إننا نتحقق من ذلك، ولكنني لا أحسب ذلك ممكناً. ولكننا نبدأ الآن من جديد على أية حال. فعلى العكس من الفرضية القائلة إن آردن قُتل في الساعة التاسعة، ها نحن نعلم أنه كان حياً عند الساعة العاشرة وعشر دقائق... هذا إن لم تكن عجوزك تحلم. أي أنه إما أن يكون قُتل على يد المرأة التي سقط منها أحمر الشفاه، ذات الشال البرتقالي، أو على يد شخص ما جاء بعد مغادرة المرأة. وقد قام ذلك الشخص -كائناً من كان- بإعادة عقارب الساعة عمداً إلى التاسعة وعشر دقائق.

- وهو أمر كان من شأنه أن يشكل موقفاً بالغ الحرج بالنسبة لديفيد هنتر لو لم يصادف لين مارتشمونت في مكان غير متوقع أبداً.

- نعم، صحيح. إن قطار التاسعة والثلث هو آخر قطار يغادر ورمزلي هيث. وكان الظلام يشتد شيئاً فشيئاً، ودائماً ما يغادر لاعبو غولف عائدين إلى المدينة على متن ذلك القطار، ولذلك ما كان أحد ليلاحظ وجود هنتر. والحقيقة أن مستخدمي المحطة لا يعرفونه

بالشكل، وهو لم يستقل سيارة أجرة هناك في المدينة، ولذلك فليس لدينا ما يثبت وصوله إلى شقة أخته في شيفردز كورت في الوقت الذي يدعيه باستثناء شهادة أخته.

كان بوارو صامتاً، فسأله سبنس: بماذا تفكر؟

- رحلة طويلة على الأقدام حول وايت هاوس، ثم لقاء في ماردن وود، ثم مكالمة هاتفية لاحقاً (ولين مارتشمونت مخطوبة لراولي كلود)... إنني أحب كثيراً أن أعرف ما قيل في تلك المكالمة الهاتفية.

- إن الجانب الإنساني هو ما يثير اهتمامك، أليس كذلك؟

- بلى، إنه دوماً الجانب الإنساني.

* * *

الفصل الثامن

كان الوقت متأخراً، ولكن بوارو أراد القيام بزيارة أخرى إضافية، ولذلك فقد توجه إلى بيت جيريمي كلود.

وهناك قادته خادمة صغيرة عليها ملامح الذكاء إلى مكتب جيريمي كلود. وإذ تُرِكَ وحيداً نظر بوارو إلى ما حوله؛ رأى أن كل ما يحيط به قانوني وجاف، وأن جيريمي كلود نَقَلَ طبيعةَ عمله إلى منزله. وُضعت على المكتب صورة ضخمة لغوردن كلود، وصورة أخرى باهتة للورد إدوارد تريتن. وعندما دخل جيريمي كان بوارو يتفحص تلك الصورة الأخيرة، فأعاد الصورة المؤطرة إلى المكتب بشيء من الارتباك قائلاً: آه، عفواً.

قال جيريمي وفي صوته أثر بسيط من التبجح والرّضا عن الذات: إنه والد زوجتي، يمتطي أحد أفضل خيوله، وقد حقق المرتبة الثانية في سباق ديربي عام ١٩٢٤. أَلَكَ اهتمام بسباق الخيل؟

- كلا، مع الأسف.

قال جيريمي بواقعية: هواية تكلف أموالاً طائلة. لقد أفلس

اللورد إدوارد بسببها، واضطر إلى العيش في الخارج. نعم، إنها رياضة باهظة التكاليف.

ولكن نبرة الفخر كانت ما تزال في صوته. وقدّر بوارو أن جيريمي نفسه يفضل رمي أمواله في الشارع بدل استثمارها في سباقات الخيل، ولكنه يكنّ إعجاباً واحتراماً في دخيلة نفسه تجاه أولئك الذين يُقدِمون على مثل تلك المجازفة.

مضى جيريمي كلود قائلاً: بماذا أستطيع خدمتك يا سيد بوارو؟ إننا -العائلة- نشعر أننا مدينون لك بالعرفان؛ لعثورك على الميجر بورتر لتقديم شهادة تعريف بالقتيل.

- وتبدو الأسرة فرحة جداً بذلك.

- آه، الفرح سابق لأوانه الآن. ما يزال أمامنا الكثير من الإجراءات؛ فموت أندرهي تم تقبّله في أفريقيا في كل الأحوال، ومن الصعب جداً نقض مثل هذه القناعة، كما أن إفادة روزالين كانت جازمة تماماً... جازمة جداً بالفعل. وقد خلّفت انطباعاً حسناً لصالح إفادتها.

بدا وكأن جيريمي كلود لم يكن مستعداً للاعتماد على أي تحسن في فُرَصِهِ المستقبلية. ثم ما لبث أن قال: لا أحب أن أطلق حكماً في هذا الجانب أو ذاك، ولا أستطيع الجزم بكيفية سير القضية.

ثم نحى جانباً بعض الأوراق في إشارة قلق يكاد يبلغ حد نفاد الصبر وقال: ولكنك أردت رؤيتي؟

- كنت أريد أن أسألك -يا سيد كلود- إن كنتَ حقاً واثقاً تماماً من أن أخاك لم يترك وصية؟ أعني وصية وضعها بعد زواجه.

بدت الدهشة على جيريمي، وقال: لا أظن أن فكرة وجود شيء من هذا القبيل قد خطرت أبداً لأحد. إنه -بالتأكيد- لم يكتب وصية قبل مغادرته نيويورك.

- ربما وضعَ وصية خلال اليومين اللذين قضاهما في لندن.

- أتعني أنه ذهب إلى محامٍ هناك؟

- أو كتب وصية بنفسه.

- وجعل عليها شهوداً؟ مَن الشهود؟

ذكّره بوارو قائلاً: لقد كان في المنزل ثلاثة خدم. ثلاثة خدم ماتوا معه في نفس الليلة.

- هممم، نعم. ولكن حتى لو صدف أن صنع ما تفترضه، فإن الوصية تكون قد أُتلفت هي أيضاً.

- هذه هي النقطة بالضبط. إن كثيراً من الوثائق التي ساد الاعتقاد بأنها أُتلفت تماماً قد تم تحليلها وقراءتها مؤخراً عن طريق عملية جديدة تم التوصل إليها. وثائق كانت احترقت داخل خزانات الحديد المنزلية مثلاً، ولكنها لم تتلف إلى حد يحول دون قراءتها.

- حسناً يا سيد بوارو، إن فكرتك هذه استثنائية تماماً، وملفتة جداً للنظر. ولكنني لا أظن... نعم، لا أظن حقاً أن فيها ما يمكن

الاعتماد عليه، فحسب علمي لم توجد خزنة حديدية في البيت في شيفلد تيراس. لقد كان غوردن يحتفظ بكل أوراقه المهمة في مكتبه، ولم تكن في مكتبه أية وصية بالتأكيد.

تابع بوارو بإصرار: ولكن أليس بوسع المرء أن يقوم بتحرياته؟ وأن يسأل مسؤولي الدفاع المدني مثلاً؟ هل أنت مستعد لتخويلي بالقيام بذلك؟

وقبل أن يستطيع جيريمي الإجابة فُتح الباب ودخلت فرانسيس كلود. جذب انتباه بوارو أمران: الأول هو حقيقة أنها بدت مريضة إلى حد مذهل، والثاني هو شبهها الكبير بوالدها في الصورة.

قال جيريمي دون أن يكون لقوله داعٍ: لقد جاء السيد بوارو لزيارتنا يا عزيزتي.

حيّته ولخّص لها جيريمي مباشرة ما اقترحه بوارو حول إمكانية وجود وصية. بدت فرانسيس مرتابة، وقالت: تبدو تلك فرصة مستبعدة تماماً.

- السيد بوارو ذاهب إلى لندن ليقوم -مشكوراً- بتحرياته.

قال بوارو: لقد فهمت أن الميجر بورتر كان مسؤولاً عن الوقاية من الغارات الجوية في تلك المنطقة.

ظهر تعبير غريب على وجه السيدة كلود وسألت: من هو الميجر بورتر؟

قال بوارو: ضابط متقاعد، يعيش براتبه التقاعدي.

- وهل كان حقاً في أفريقيا؟

نظر إليها بوارو بفضول وقال: بالتأكيد يا سيدتي. ولم لا؟

قالت بشرود: لا أدري. لقد أثار حيرتي؟

قال بوارو: نعم يا سيدة كلود؛ بوسعي أن أفهم ذلك.

نظرت إليه بحدة، وظهر على وجهها تعبير أقرب إلى الخوف. التفتت إلى زوجها وقالت: جيريمي، إنني أشعر بأسى كبير على روزالين، إنها بمفردها في فوروبانك ولا بد أنها شديدة القلق من اعتقال ديفيد. هل تمانع في أن أدعوها لتأتي وتقيم عندنا؟

قال جيريمي بشيء من الشك: هل تعتقدين حقاً يا عزيزتي أن ذلك مستحسن؟

- آه، مستحسن؟ لا أدري! ولكن المرء لا يملك إلا أن يحس بالتعاطف. إنها امرأة بائسة تماماً.

- أشك في أنها ستقبل ذلك.

- بوسعي -على كل حال- أن أعرض عليها الأمر.

قال المحامي بهدوء: افعلي ذلك إن كان من شأنه أن يجعلك أسعد حالاً.

- أسعد حالاً!

خرجت الكلمة منها بمرارة غريبة، ثم رمقت بوارو بنظرة ارتياب سريعة.

تمتم بوارو بأدب: "أستأذن بالذهاب الآن." فيما تبعته فرانسيس إلى الصالة، وسألته: هل أنت مسافر إلى لندن؟

- سأسافر غداً، ولكن لفترة أربع وعشرين ساعة على أبعد تقدير. وبعدها أعود إلى فندق ستاغ، حيث ستجدينني يا سيدتي إن أردت رؤيتي.

سألته بحدة: ولماذا عساني أريد رؤيتك؟

لم يجبها بوارو، بل اكتفى بالقول: سأكون في فندق ستاغ.

في ساعة متأخرة من تلك الليلة تحدثت فرانسيس كلود مع زوجها في الظلام: لا أصدق أن ذلك الرجل ذاهب إلى لندن للسبب الذي ساقه. لا أصدق كل تلك الرواية عن إمكانية كتابة غوردن لوصية. هل تصدق ذلك يا جيريمي؟

أجابها صوت يائس متعب: لا يا فرانسيس، لا؛ إنه ذاهب لسبب آخر ما.

- أي سبب؟

- لا أدري.

- ماذا ستفعل يا جيريمي؟ ماذا ستفعل؟

وسرعان ما أجابها قائلاً: أظن يا فرانسيس أن لدينا أمراً واحداً ينبغي فعله.

* * *

الفصل التاسع

استطاع بوارو -بعد أن تسلح بكل الأوراق الثبوتية الضرورية من جيريمي كلود- أن يحصل على إجابات عن أسئلته. وقد كان رجال الدفاع المدني جازمين تماماً في معلوماتهم، إذ أكدوا إن المنزل دُمّر تماماً، وأن الموقع لم يتم تنظيفه وإزالة الأنقاض منه إلا مؤخراً بهدف إعادة بنائه. لم ينجُ من القصف أحدٌ سوى ديفيد هنتر والسيدة كلود، وقد كان في المنزل ثلاثة خدم: فريدريك غيم وإليزابيث غيم وآيلين كوريغن، وقد قتل الثلاثة جميعاً على الفور. أما غودرن كلود فقد أخرجوه حياً، ولكنه توفي في الطريق إلى المستشفى دون أن يستعيد وعيه. أخذ بوارو أسماء أقرباء الخدم المقربين وعناوينهم ثم قال: ربما كانوا قد تحدثوا إلى أصدقائهم -على سبيل الثرثرة أو التعليق- بأمر من شأنه أن يعطيني مؤشراً للوصول إلى معلومات أنا في أمسّ الحاجة إليها.

أما المسؤول الذي كان بوارو يتحدث إليه فقد بدا في ريبة من ذلك. كان فريدريك غيم وزوجته إليزابيث من منطقة دورسيت، أما آيلين كريغن فقد كانت من منطقة كاونتي كورك.

توجه بوارو بعد ذلك باتجاه منزل الميجر بورتر؛ فقد تذكر قول

بورتر بأنه كان أحد مسؤولي الوقاية من الغارات الجوية، وكان بوارو يتساءل فيما إذا كان بورتر على رأس عمله في تلك الليلة بالذات، وفيما إذا كان قد شاهد شيئاً من ذلك الحادث في شيفلد تيراس. وفوق ذلك كانت لدى بوارو أسباب أخرى لرؤية الميجر بورتر والحديث معه. وعندما انعطف عند زاوية شارع إيدغوي أدهشته رؤية شرطي بثيابه الرسمية يقف خارج البيت نفسه الذي كان متجهاً إليه، وكانت هناك حلقة من الصبية الصغار والناس الآخرين وقد وقفوا يحدقون إلى المنزل. انخلع فؤاد بوارو وهو يفسر مغزى ما يراه.

اعترض الشرطي تقدم بوارو وقال: لا يمكنك الدخول إلى هنا يا سيدي.

- ما الذي حدث؟

- لا أظنك تسكن في هذا البيت، أليس كذلك؟

هز بوارو رأسه بالنفي، فسأله الشرطي: مَن كنت قاصداً؟

- أردت رؤية رجل يدعى الميجر بورتر.

- أأنت صديقه يا سيدي؟

- لا، لا يمكنني وصف نفسي كصديق له. ما الذي حدث؟

- لقد أطلق الرجل النار على نفسه كما فهمت. آه، ها هو المفتش.

كان الباب قد فُتح وخرج منه شخصان، أحدهما مفتش الشرطة المحلي، والآخر ميزه بوارو، وهو الرقيب غريفز من شرطة ورمزلي

فيل. وسرعان ما ميز الأخير بدوره بوارو وقدمه للمفتش الذي قال: الأفضل أن ندخل.

دخل الرجال الثلاثة إلى المنزل. قال غريفز: لقد اتصلوا بنا في ورمزلي فيل، وقد أرسلني المفوض سبنس إلى هنا.

- انتحار؟

أجاب المفتش: نعم، يبدو ذلك أمراً واضحاً لا شك فيه. لا أدري إن كان اضطراره للإدلاء بشهادة في التحقيق قد أثر بشكل مؤذ على عقله. يتصرف الناس بشكل غريب أحياناً في هذه المواقف، ولكني فهمت أنه كان مكتئباً مؤخراً: المصاعب المالية وغير ذلك. أطلق النار على نفسه من مسدسه.

- أتسمح لي بالصعود إليه؟

- كما تحب، رافقه أيها الرقيب.

- حاضر يا سيدي.

قاده غريفز صعوداً إلى الغرفة في الطابق الأول. كانت الغرفة كما يتذكرها بوارو إلى حد بعيد: الألوان الباهتة للسجاد القديم، والكتب. كان الميجر بورتر ملقى في الكرسي الضخم ذي الذراعين، وجلسته أشبه بالجلسة الطبيعية، باستثناء تدلي الرأس إلى الأمام! وكانت ذراعه اليمنى متدلية إلى جانبه... وتحتها، على السجادة، كان المسدس. وكانت في الهواء بقايا رائحة خفيفة جداً للبارود.

قال غريفز: يظنون أن ذلك كان قبل نحو ساعتين. لم يسمع

أحد الطلقة، وكانت المرأة صاحبة البيت قد خرجت للتسوق.

كان بوارو عابساً وهو ينظر إلى الجسد الهادئ والجرح الصغير المحروق في الصدغ الأيمن. وسأله غريفز: ألديك أية فكرة يا سيد بوارو عن سبب إقدامه على ذلك؟

كان غريفز يعامل بوارو باحترام لأنه رأى المفوض يعامله كذلك، مع أن رأيه الخاص كان يقول إن بوارو هو واحد من أولئك المتقاعدين العجائز الفظيعين.

أجابه بوارو وهو شارد: نعم، نعم؛ يوجد سبب وجيه جداً. الصعوبة لا تكمن هنا.

ثم انتقلت نظرته إلى طاولة صغيرة إلى يسار الميجر بورتر، وعليها منفضة زجاجية ضخمة مع غليون وعلبة ثقاب. ولم يكن هناك شيء آخر. جالت عينا بوارو في الغرفة ثم سار إلى المكتب. كان المكتب قريباً تماماً، وقد وُضعت الأوراق في خاناتها بكل ترتيب. وعلى وسط المكتب نشّافة حبر جلدية صغيرة، وحافظة أقلام فيها قلم حبر وقلما رصاص ورزمة من ورق الملاحظات ودفتر طوابع. كان كل شيء مرتباً منظماً. حياة منظمة وموت منظم. طبعاً، ذلك هو... ذلك ما كان ناقصاً!

قال للرقيب غريفز: ألم يترك أية ملاحظة؟

هز غريفز رأسه بالنفي وقال: نعم، لم يترك شيئاً. مع أنه أمرٌ يمكن للمرء توقّعه من ضابط سابق.

- نعم، هذا غريب جداً!

رغم دقة الميجر بورتر وحرصه على الشكليات في حياته، إلا أنه لم يكن كذلك في مماته. ورأى بوارو أن عدم ترك بورتر لأية ملاحظة كان خطأ لا يستقيم مع المنطق.

قال غريفز: إن انتحاره يشكل صفعة لعائلة كلود؛ فهو سيعيدهم إلى البداية. سيتعين عليهم البحث مجدداً عن شخص آخر كان يعرف أندرهي عن قرب.

ثم تململ قليلاً وقال: أتريد رؤية أي شيء آخر يا سيد بوارو؟

هز بوارو رأسه بالنفي وخرج خلف غريفز من الغرفة. وعلى الدرج تقابل الاثنان مع صاحبة المنزل. كان واضحاً أنها تستمتع بحالة الإثارة والانفعال التي تحس بها، وعلى الفور شرعت في حديث مهذار. وسرعان ما نأى غريفز بنفسه تاركاً بوارو يتلقى فيض الحديث وحده: يبدو أنني لم أعد أستطيع سحب أنفاسي. إنه القلب، هو المشكلة؛ الخناق الصدري، وقد توفيت أمي بسببه، سقطت ميتة عندما كانت تعبر سوق كاليدونيان. وأنا نفسي كدت أسقط عندما وجدته. آه، لقد أرعبني ذلك! لم أشك بشيء من هذا القبيل، مع أن معنوياته كانت هابطة منذ وقت طويل. أظنه كان قلقاً بشأن المال، ولم يكن يأكل ليقيم أوده، ولم يكن يقبل منا أبداً لقمة يأكلها. وفوق ذلك اضطر بالأمس للذهاب إلى مكان ما في أوستشير، اسمه ورمزلي فيل، ليدلي بشهادة في تحقيق هناك. وقد عذّبه ذلك، نعم. لقد عاد من هناك بحالة فظيعة. أخذ يذرع الغرفة طول ليلة أمس، ذهاباً وإياباً، ذهاباً وإياباً. كانت قضية رجل مقتول، وهو صديقه. المسكين،

لقد أزعجه ذلك، وظل يروح ويجيء، وعندما خرجت للتسوق، حيث اضطررت للوقوف في صف طويل جداً لشراء السمك، عدت وصعدت لأرى إن كان يريد كوباً من الشاي، فوجدته هناك، ذلك المسكين... والمسدس ساقط من يده وهو منحن في كرسيه. لقد سبّب لي ذلك صدمة رهيبة. وفوق ذلك الاضطرار لإحضار الشرطة، وكل هذه الضجة. ماذا سيحل بهذا العالم، هذا ما يحيرني؟

قال بوارو ببطء: إن العالم يغدو مكاناً تصعب فيه الحياة... إلا بالنسبة للقوي.

* * *

الفصل العاشر

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء عندما عاد بوارو إلى فندق ستاغ، ليجد ملاحظة أرسلتها فرانسيس كلود تطلب منه فيها أن يأتي لرؤيتها، فخرج على الفور.

كانت تنتظره في غرفة الجلوس، ولم يكن قد رأى تلك الغرفة من قبل، حيث كانت النوافذ المفتوحة تطل على حديقة مسيجة ذات أشجار مزهرة. وكان الأثاث القديم يلمع نتيجة ما استُعمل في تنظيفه من شمع ومن جهد كبير. ورأى بوارو أنها غرفة رائعة الجمال.

- لقد قلت إنني سأطلبك يا سيد بوارو، وقد كنت محقاً تماماً. يوجد شيء لا بد من قوله، وأظنك أفضل مَنْ يُقال له ذلك الشيء.

- إنه من الأسهل دوماً يا سيدتي أن تخبري بالأمر شخصاً يملك فكرة واضحة تماماً عن ذلك الشيء.

- أتحسب أنك تعرف ما سأقوله؟

هز بوارو رأسه بالإيجاب، فسألته: منذ متى؟

ثم تركت السؤال دون نهاية ولكنه أجابها بسرعة وحزم: منذ

اللحظة التي رأيت فيها صورة أبيك. إن ملامح عائلتكم متميزة شديدة التحديد. لا يمكن للمرء أن يشك بأنك وصاحب الصورة تنتميان لعائلة واحدة، وكان الشبه قوياً بنفس النسبة في حالة ذلك الرجل الذي جاء إلى هنا مسمياً نفسه إينوك آردن.

تنهدت بحزن وعمق وقالت: نعم، نعم؛ أنت على حق. رغم أن تشارلز المسكين كانت له لحية. لقد كان أحد أبناء عمومتي الأبعدين يا سيد بوارو، وكان -إلى حد ما- شقيّ العائلة. لم أكن أعرفه بشكل جيد، ولكننا كنا نلعب معاً أيام الطفولة، وها أنا قد قدته الآن إلى مصرعه... إلى موت بشع قذر!

سكتت للحظات، فقال بوارو بلطف: هل لك أن تخبريني.

اعتدلت في جلستها وقالت: نعم، لا بد من حكاية القصة. لقد كنا في أمسّ الحاجة إلى المال... تلك كانت البداية. كان زوجي... كان زوجي في ورطة خطيرة... في أسوأ أنواع الورطات. كان العار، وربما السجن، بانتظاره... وهما ما يزالان بانتظاره أيضاً. والآن عليك أن تفهم هذا يا سيد بوارو. إن الخطة التي وضعتُها ونفذتُها كانت خطتي أنا، ولا علاقة لزوجي بها. ولم تكن -على أية حال- من الخطط التي يمكن له أن ينفذها، إذ كان من شأنه أن يعتبرها خطة تنطوي على الكثير الكثير من المجازفة. أما أنا فلم أكن أهتم بخوض المجازفات، وأظن أنني كنت -دوماً- مستهترة ضعيفة الوازع إلى حد ما. دعني أقل أولاً إنني تقدمت من روزالين بطلب قرض. ولا أدري إن كانت مستعدة -لو تُركت بمفردها- لأن تمنحني ذلك القرض أم لا، ولكن أخاها تدخل، وكان في مزاج سيء، فتصرف بشكل مهين

لا ضرورة له، أو أنني هكذا شعرت. وعندما فكرت بهذه الخطة لم يكن لديّ أي وازع أبداً في تطبيقها.

ولتوضيح الأمور، علي أن أخبرك بأن زوجي قد كرر على مسامعي في العام الماضي معلومة مثيرة للاهتمام كان قد سمعها في النادي الذي ينتمي إليه. وقد كنت أنت هناك كما أظن، ولذلك لا حاجة لتكرارها ثانية بالتفصيل. ولكن تلك المعلومة فتحت احتمالاً في أن لا يكون زوج روزالين الأول ميتاً... وفي تلك الحالة لن يكون لها -بالطبع- حق في شيء من أموال غوردن. كان ذلك طبعاً احتمالاً غامضاً باهتاً، ولكنه بقي في أعماق عقولنا، كنوع من الصدف الخارجية التي يمكن أن تتحقق.

وقد التمعت في ذهني فكرة أن شيئاً ما يمكن فعله باستخدام ذلك الاحتمال. كان تشارلز أحد أبناء عمومتي في هذا البلد، وكان عاثر الحظ بائساً. وقد أمضى فترة في السجن، إذ لم يكن شخصاً منضبطاً خنوقاً، ولكنه أبلى بلاء حسناً في الحرب. وهكذا عرضت عليه الأمر. كانت العملية بالطبع عملية ابتزاز لا أكثر ولا أقل، ولكننا ظننا أن هناك فرصة جيدة في أن ينجح بها ونخرج سالمين. ورأيت أن ديفيد هنتر -في أسوأ الحالات- سيرفض الدفع. لم أرَ أنه سيذهب إلى الشرطة، فأمثاله لا يحبون التعامل مع الشرطة.

تصلب صوتها ومضت قائلة: وقد سارت خطتنا على ما يرام، واقتنع ديفيد بها أكثر مما كنا نتوقع ونأمل. لم يكن بوسع تشارلز أن يقدم نفسه بشكل حاسم على أنه «روبرت أندرهي» بالطبع، إذ أن روزالين يمكن أن تكتشف ذلك بسرعة، ولكنها سافرت إلى لندن

لحسن الحظ، مما ترك لتشارلز فرصة أن يوحي -على الأقل- بأنه روبرت أندرهي. وكما قلت، بدا أن الخطة قد انطلت على ديفيد، وكان يُفترض أن يأتي المال في الساعة التاسعة من مساء الثلاثاء. ولكن بدلاً من ذلك...

اضطرب صوتها، ثم قالت: كان علينا أن ندرك بأن ديفيد كان... شخصاً خطيراً. لقد مات تشارلز... بل قُتل، ولولاي لكان الآن حياً يرزق. لقد تسببت أنا في موته.

سكتت لحظة ثم مضت تقول بصوت جاف: لك أن تتخيل شعوري منذ ذلك الحين.

قال لها بوارو: ومع ذلك كنتِ سريعة في رؤية تطور إضافي طرأ على خطتك، أليس كذلك؟ لقد كنتِ أنتِ من أقنع الميجر بورتر بالشهادة على أن ابن عمك هو «روبرت أندرهي»؟

ولكنها انتفضت قائلة على الفور: كلا، وأقسم لك على ذلك. كلا، هذا ما لم أقُم به! ما من أحد أصابته الدهشة مثلنا... الدهشة؟ بل قُل: الصعقة، عندما تقدم ذلك الميجر وشهد بأن تشارلز... تشارلز... هو روبرت أندرهي! لم أستطع فهم ذلك، وما أزال غير قادرة على فهمه!

- ولكن أحداً ما ذهب إلى الميجور بورتر وأقنعه، أو رشاه، لكي يشهد بأن القتيل هو روبرت أندرهي؟

أجابته فرانسيس بصوت جازم: لم أكن أنا ذلك الشخص، كما لم يكن جيريمي. لا أحد منا يمكن أن يقدم على مثل هذا الأمر. آه،

أظن ما أقوله قد يبدو سخيفاً بالنسبة لك! فأنت تحسب أنني -وقد كنت مستعدة للقيام بعملية ابتزاز- يمكن أن أنحدر بنفس السهولة إلى درك التزوير وشهادة الزور. ولكن الأمرين -كما أراهما- مختلفان جداً؛ إذ عليك أن تدرك بأنني شعرت (وما أزال أشعر في الواقع) بأن لنا حقاً في جزء من أموال غوردن، وقد كنت مستعدة للحصول بالطرق الملتوية على ما لم أستطع الحصول عليه بالطرق النزيهة. أما أن ألجأ -عامدة- إلى تجريد روزالين من كل شيء بالخداع وبتلفيق شهادة زور تعني في النهاية أنها لا تُعتبر قانوناً زوجة لغوردن كلود أبداً... أما هذا، فكلا يا سيد بوارو. لم أكُن حقاً لأُقدِم على أمر كهذا. أرجوك، أرجوك أن تصدقني.

قال بوارو ببطء: إنني أعترف -على الأقل- بأن لكل امرئ خطاياه المعينة. نعم، سأصدق ذلك.

ثم نظر إليها بحدة وقال: هل تعلمين يا سيدة كلود بأن الميجر بورتر أطلق على نفسه النار عصر اليوم؟

تراجعت إلى الخلف واتسعت عيناها رعباً وقالت: آه، كلا يا سيد بوارو، كلا!

- نعم يا سيدتي. لقد كان الميجر بورتر في جوهره رجلاً نزيهاً مستقيماً. ولكنه كان يمر بوقت عصيب من الناحية المالية، وعندما راوده الإغراء فشل في مقاومته، شأنه في ذلك شأن الكثيرين. ربما كان الأمر قد بدا له، أو أنه أقنع نفسه، بأن كذبته تكاد تكون مبررة أخلاقياً. فقد كان -أساساً- متحيزاً في قرارة عقله ضد المرأة التي تزوجها صديقه أندرهي، وكان يرى أنها تعاملت مع صديقه بشكل

مُخزٍ. وها هي الآن صيادة الملايين هذه قد تزوجت مليونيراً، واستطاعت أن تخرج سالمة ومعها ثروة زوجها الثاني مما ألحق ضرراً بأفراد عائلته الأقربين من لحمه ودمه. ربما بدا الأمر له مغرياً أن يضع عصا في عجلتها، إذ رأى أنها تستحق ذلك. وفوق ذلك فإن مجرد تعرفه على جثة رجل قتيل من شأنه أن يؤمن حياته كلها للمستقبل. فعندما يحصل آل كلود على حقوقهم سيناله نصيبه من المال... نعم، إن بوسعي أن أرى الإغراء الذي راوده. ولكنه -كالكثير ممن ينتمون إلى طبيعته- كان يفتقر إلى الخيال. كان تعِساً بائساً جداً خلال الاستجواب، وكان بوسع المرء أن يلحظ ذلك. ففي المستقبل القريب كان عليه أن يعيد كذبته مرة أخرى بعد أداء اليمين في المحكمة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد؛ بل لقد اعتُقلَ رجلٌ الآن، واتهم بجريمة القتل، وكانت هوية القتيل تقدم دافعاً مقنعاً جداً لتلك التهمة؛ لذلك فقد عاد إلى بيته وواجه الأمور بشرف ونزاهة، واختار المخرج الذي رآه الأفضل.

- قتل نفسه؟

- نعم.

تمتمت فرانسيس: ألم يقل من الذي... من الذي...

هز بوارو رأسه بالنفي متمهلاً وقال: كانت له معاييره الخلقية. لم يترك أية إشارة إلى هوية من حرضه على ارتكاب شهادة الزور.

راقبها بوارو ملياً. ترى هل لمح أثراً سريعاً لارتياح أو ارتخاء بعد توتر؟ نعم، ولكن ربما كان ذلك طبيعياً على أية حال...

نهضت ومشت نحو النافذة قائلة: إذن فقد عدنا إلى حيث كنا.

وتساءل بوارو عن حقيقة ما تفكر به.

* * *

الفصل الحادي عشر

في صباح اليوم التالي استخدم المفوض سبنس نفس كلمات فرانسيس تقريباً: إذن فقد عدنا من حيث بدأنا. ثم تنهد وقال: علينا أن نعرف الهوية الحقيقية لذلك الرجل، إينوك آردن.

قال بوارو: بوسعي أن أخبرك بذلك أيها المفوض؛ إن اسمه هو تشارلز ترينتن.

- تشارلز ترينتن؟

صفر المفوض استغراباً وقال: هممم! أحد أفراد أسرة ترينتن. أظن أنها هي التي حرضته على ذلك، أعني زوجة جيريمي كلود... ولكننا لن نستطيع -على أية حال- أن نُثبت علاقتها بالأمر. إذن فهو تشارلز ترينتن؟ يبدو أنني أتذكر هذا الاسم.

هز بوارو رأسه بالإيجاب وقال: نعم، إن له سجل سوابق.

- نعم، ظننت ذلك. كان يحتال على الفنادق -إلّم تخنّي الذاكرة- فينزل في فندق ريتز، ثم يخرج ويشتري سيارة رولز رويس على أن يقضي الصباح في تجربتها، وبعدها يتجول في السيارة

الفخمة إلى أرقى المحالّ وأغلاها ويشترين من بضائعها. وبالطبع فإن أحداً لا يشك في شيكاتِ رجلٍ تنتظره سيارة رولز خارج المحل لتنقل مشترياته إلى فندق فخم كفندق ريتز! إنه فوق ما يتمتع به من أسلوب ومن أصل أرستقراطي يجعلانه مقنعاً لأن يمكث لأسبوع أو أكثر، وعندما تبدأ الشكوك كان يختفي بهدوء ويبيع ما اشتراه بأسعار أرخص لرجال قد اتفقاهم. نعم، تشارلز تريب!

ثم نظر إلى بوارو وقال: إنك تكتشف أموراً، أليس كذلك؟

- كيف تسير قضيتك ضد ديفيد هنتر؟

- سنضطر إلى إطلاق سراحه؛ فقد كانت مع آردن امرأة في تلك الليلة بالفعل. وذلك لا يستند فقط إلى ما قالته تلك العجوز الرهيبة؛ فقد كان جيمي بيرس عائداً إلى بيته، فشاهد امرأة تخرج من فندق ستاغ وتذهب إلى كشك الهاتف خارج مكتب البريد... كان ذلك بعد العاشرة تماماً. قال إنها لم تكن امرأة يعرفها، وإنه ظن أنها إحدى نزيلات الفندق. وقد وصفها هو بأنها غانية من لندن».

- هل كان قريباً جداً منها؟

- كلا، كان في الجانب الآخر من الشارع. مَن عساها تكون هذه يا بوارو؟

- هل وصف لكم ملابسها؟

- قال إنها كانت ترتدي معطفاً صوفاً وشالاً برتقالياً حول رأسها، وتلبس بنطالاً، وتضع الكثير من مساحيق الوجه. وهذا يتطابق مع وصف العجوز لها.

- نعم، إنه يتطابق فعلاً.

قطب بوارو جبينه مفكراً فيما سأله المفوض: حسناً، من تراها كانت، ومن أين جاءت وإلى أين ذهبت؟ إنك تعرف مواعيد قطاراتنا. قطار التاسعة والثلث هو آخر قطار يذهب ليلاً إلى لندن، أما آخر قطار يصل منها فهو قطار العاشرة وثلاث دقائق. هل بقيت تلك المرأة تتسكع طوال الليل ثم استقلت قطار السادسة وثماني عشرة دقيقة صباحاً؟ هل كانت لديها لديها سيارة؟ هل وقفت على الطريق حتى وجدت سيارة تُقلُّها معها؟ لقد أرسلنا من يسأل في كل المنطقة، ولكن دون نتيجة.

- ماذا عن قطار السادسة وثماني عشرة دقيقة صباحاً؟

- إنه مزدحم دائماً، رغم أن غالبية ركابه من الرجال. أظن أنهم كانوا سيلاحظون وجود امرأة... وخاصة امرأة من هذا النوع. أحسب أنها ربما جاءت وغادرت بواسطة سيارة، ولكن السيارة تُلاحظ في ورمزلي فيل هذه الأيام. فنحن بعيدون عن الطريق العام.

- ألم يُلاحظ وجودُ سيارة في تلك الليلة؟

- سيارة الدكتور كلود فقط. كان خارجاً لعيادة مريض ما... على طريق ميدلينغهام. لا بد أن شخصاً ما قد رأى امرأة غريبة في سيارة.

قال بوارو ببطء: ليس من الضرورة أن تكون غريبة. إن رجلاً يرى امرأة على بعد مئة ذراع في الظلام قد لا يميز فيها امرأة من نفس المنطقة إلَم يكن يعرف هذه المرأة جيداً. ربما كانت امرأة غيّرت عادتها وأسلوبها في اللباس.

نظر إليه سبنس متسائلاً، فقال بوارو: هل كان من شأن هذا الشاب بيرس، أن يميّز لين مارتشمونت؟ لقد كانت مسافرة لعدة سنوات.

- كانت لين مارتشمونت في منزلها المسمى «وايت هاوس» مع والدتها في تلك الساعة.

- هل أنت متأكد؟

- لقد قالت السيدة ليونيل كلود (أي تلك الذاهلة المضطربة زوجة الطبيب) قالت إنها اتصلت هاتفياً مع لين في بيت الأخيرة عند الساعة العاشرة وعشر دقائق. وروزالين كلود كانت في لندن. أما زوجة جيريمي فإنني لم أرها أبداً تلبس بنطالاً، كما أنها لا تضع كثيراً من المساحيق، وهي فوق ذلك ليست شابة.

تقدم بوارو بجسمه للأمام وقال: آه، هيا يا عزيزي! أيمكن لامرئ في ليلة مظلمة لا تنيرها إلا أنوار الشارع الخافتة أن يميز الشباب من الكهولة تحت قناع كثيف من المساحيق؟

- اسمع يا بوارو، ما الذي ترمي إليه؟

عاد بوارو ليسند ظهره إلى مسند كرسيه، ثم أغمض عينيه نصف إغماضة وقال: بنطال، ومعطف صوفي، ووشاح برتقالي يلف الرأس، وكم كبير من المساحيق على الوجه، وأحمر شفاه ساقط في غرفة القتيل... إنه لأمرٌ موحٍ.

زمجر المفوض سبنس قائلاً: أتظن نفسك «عراف ديلفي»؟ رغم أنني لا أعرف من هو عراف ديلفي هذا، ولكنها عبارة عادة ما

يتفاخر ذلك الشاب غريفز بمعرفتها، رغم أنها لم تساعده كثيراً في عمله في الشرطة. هل لديك المزيد من التصريحات الغامضة يا سيد بوارو؟

- لقد قلت لك إن هذه القضية قد أخذت المظهر الخطأ. وقلت لك كمثل على ذلك إن القتيل كان كله خطأ. وقد كان كذلك إذا ما اعتبرناه أندرهي؛ إذ يبدو واضحاً أن أندرهي كان شخصاً غريب الأطوار فروسي النزعة قديم الطراز رجعياً. أما ذلك الرجل الذي نزل فندق ستاغ فقد كان مبتزاً، ولم يكن بأخلاق الفرسان ولا قديم التفكير ولا رجعياً، كما لم يكن غريب الأطوار بشكل خاص... ولذلك فإنه لم يكن أندرهي. لا يمكن له أن يكون أندرهي لأن الناس لا يتغيرون. كان الأمر المثير هو قول بورتر عنه إنه أندرهي.

- مما قادك إلى زوجة جيريمي؟

- إن الشبه هو الذي قادني إلى السيدة فرانسيس كلود. إن لشكل الوجه والملامح في عائلة تريتن نمطاً مميزاً تماماً. وإذا ما سمحتَ لي بأن ألعب قليلاً بالكلمات لقلت إن تشارلز تريتن القتيل كان هو الشكل الصحيح لهذه الجريمة. ولكن ما زالت هناك أسئلة تحتاج لأجوبة. لماذا سمح ديفيد هنتر لنفسه بالخضوع للابتزاز بهذه السهولة؟ هل هو من ذلك الطراز الذي يترك نفسه يخضع للابتزاز؟ لا يمكن للمرء إلا أن يجيب بكل جزم: كلا. ولذلك فإن ديفيد أيضاً تصرّف خارج سياق شخصيته. وماذا عن روزالين؟ إن سلوكها كله لا يمكن فهمه... ولكن هناك أمراً واحداً أودّ كثيراً لو أعرفه. لماذا هي خائفة؟ لماذا تظن أن شيئاً سيحدث لها الآن بعد أن لم يعد أخوها

موجوداً لحمايتها؟ شخص ما، أو شيء ما، زرع فيها هذا الخوف. والأمر ليس مجرد خوفها من فقدان ثروتها. لا، بل هو أكثر من ذلك. فهي خائفة على حياتها!

- يا إلهي يا سيد بوارو! هل تحسب أن...

- لنتذكر يا سبنس بأننا -كما قلتَ قبل قليل- عدنا إلى حيث بدأنا. أي أن عائلة كلود قد عادت إلى حيث بدأت؛ فقد مات روبرت أندرهي في إفريقيا، وحياة روزالين كلود هي التي تقف حائلاً بينهم وبين التمتع بأموال غوردن كلود.

- أتحسب -حقاً- أن بوسع أحدهم أن يُقدم على ذلك؟

- إنني أحسب التالي: إن روزالين في السادسة والعشرين من عمرها، ومع أنها غير متزنة ذهنياً نوعاً ما، إلا أنها -من الناحية الجسمية- قوية وبصحة جيدة. وقد تعيش حتى تبلغ السبعين، أو حتى أكثر. بعد كم من السنين سيكون ذلك؟ لنقل أربعة وأربعين عاماً. ألا ترى معي أيها المفوض أن أربعة وأربعين عاماً قد تكون أطول بكثير مما يمكن لامرئ أن ينتظر؟!

* * *

الفصل الثاني عشر

عندما غادر بوارو مركز الشرطة اقتربت منه على الفور تقريباً العمة كاثي. كانت تحمل العديد من أكياس التسوق، وقد دنت منه وهي تلهث لهفة وقالت: فظيع ما جرى للميجر بورتر. لا أملك إلا أن أشعر بأن نظرته للحياة كانت مادية جداً. إنها حياة الجندية كما تعلم، تُضيّق أفق المرء. ومع أنه قد أمضى جزءاً كبيراً من حياته في الهند إلا أنه لم يستفد أبداً -كما أظن- من الفرص الروحية. لا بد أن حياته هناك كانت محصورة كلها في دائرة الحياة العسكرية الضيقة. ليته أُتيحَ له أن يجلس تلميذاً مُريداً بين يدي مرشد روحي هناك! يا للفرص الضائعة يا سيد بوارو، كم تثير من حزن!

هزت العمة كاثي رأسها أسفاً وأرخت قبضتها عن أحد أكياس التسوق، فسقطت من الكيس قطعة سمك وانزلقت إلى قناة المجاري. قام بوارو باسترجاعها، ولكن في حمأة انفعالها انزلق كيس آخر من يد العمة كاثي لتسقط منه زجاجة صغيرة من مشروب ذهبي وتتدحرج في الشارع.

أخذت العمة كاثي منه قطعة السمك قائلة: شكراً جزيلاً لك يا سيد بوارو.

ثم ركض خلف الشراب الذهبي فعادت لتقول: آه، شكراً، يا لإهمالي، ولكنني كنت منزعجة حقاً. يا لذلك الرجل المسكين! أو، نعم؛ إنها دبقة، ولكن لا أحب استخدام منديلك، دعه نظيفاً. هذا لطف بالغ منك... كما كنت أقول: في الحياة نكون في الموت، وفي الموت نكون في الحياة. لن أُفاجأ أبداً إذا ما رأيت الجسم الأثيري لإحدى صديقاتي العزيزات اللاتي متن من زمن بعيد. إذ ربما مر المرء بهذه الأجسام الأثيرية وهو في الشارع. وفيم الغرابة؟ قبل ليال فقط...

قاطعها بوارو قائلاً: هل تسمحين لي؟

ثم دس قطعة السمك بقوة إلى أعماق الكيس وقال: نعم، ماذا كنت تقولين؟

- عن الأجسام الأثيرية... لقد طلبتُ قطعة نقدية للهاتف، إذ كانت القطع عندي صغيرة لا تفي بالغرض. ورأيت وقتها أن الوجه كان مألوفاً لدي، غير أنني لم أستطع تحديده. وما زلت غير قادرة على ذلك، ولكنني أرى الآن أنه كان -دون شك- وجه امرأة توفيت ربما من زمن بعيد... بحيث كانت ذاكرتي مشوشة غير قادرة على تمييزها. عجيب كيف يُرسَل الناس إلى المرء وقت حاجته... حتى لو لم تتعد الحاجة قطعة نقدية صغيرة لاستخدام الهاتف. آه، يا لذلك الصف أمام محلات بيكوك... لا بد أنهم يبيعون حلوى الترايفل أو سويسرول! أرجو أن لا أكون قد تأخرت!

ثم اندفعت السيدة ليونيل كلود عبر الشارع وزرعت نفسها في نهاية صف النساء المتجهمات خارج محل الحلويات.

مضى بوارو في شارع هاي، ولم يتعطف ليقصد فندق ستاغ، بل سار باتجاه البيت الأبيض. كان يود كثيراً إجراء محادثة مع لين مارتشمونت، ولكن الشك ساوره في موافقتها على الحديث معه.

كان الصباح جميلاً، إذ كان صباحاً ربيعياً يحمل ريح الصيف، وفيه من الإنعاش والحيوية ما لا يتوفر في أيام الصيف الحقيقة. انعطف بوارو عن الطريق العام، ورأى أمامه الطريق الترابي الذي يعبر بيت لونغ ويلوز إلى أعلى التلة فوق منزل فوروبانك. لقد جاء تشارلز ترينتن من المحطة عبر هذا الطريق في يوم الجمعة الذي سبق مقتله، وفي طريقه إلى أسفل التلة التقى بروزالين وهي تصعد، ولم يميزها أو يتعرف إليها. وهذا لا يبعث على الاستغراب طالما أنه لم يكن روبرت أندرهي، وهي طبعاً لم تتعرف إليه للسبب ذاته. ولكنها أقسمت -عندما عرضوا عليها الجثة- بأن عينها لم تقع على وجه الرجل الذي قابلته على الطريق الترابي؟ إن كان الأمر كذلك ففيمَ كانت تفكر آنذاك؟ هل يعقل أنها كانت تفكر براولي كلود؟

انعطف بوارو ليأخذ الطريق الجانبي الصغير المؤدي إلى وايت هاوس، الذي بدت حديقته جميلة وقد تفتحت فيها الأزهار والورود. وفي وسط المرجة العشبية للحديقة كانت توجد شجرة تفاح قديمة ضخمة، وتحتها جلست لين مارتشمونت مسترخية على مقعد خشبي. قفزت بعصبية من المفاجأة عندما قال بوارو بصوت رسمي: صباح الخير!

- لقد أفزعتني يا سيد بوارو. لم أسمعك وأنت قادم فوق العشب. إذن فأنت ما تزال هنا... في ورمزلي فيل؟

- نعم، أنا ما أزال هنا.

- لماذا؟

رفع بوارو كتفيه وقال: إنه مكان جميل بعيد عن العالم يستطيع المرء فيه الاسترخاء، وأنا أسترخي.

- يسعدني أنك هنا.

- أنت لا تقولين لي ما يقوله باقي أفراد أسرتك: «متى تعود إلى لندن يا سيد بوارو؟»، ثم ينتظرون الجواب بلهفة.

- هل يريدون منك العودة إلى لندن؟

- يبدو الأمر كذلك.

- أنا لا أريد هذا.

- نعم؛ إنني أدرك ذلك. لماذا يا آنسة؟

- لأن إقامتك هنا تعني أنك غير مقتنع. أعني أنك غير مقتنع بأن ديفيد هنتر هو الذي ارتكب الجريمة.

- وأنت ترغبين كثيراً في... أن يكون بريئاً؟

رأى توردأ خفيفاً يصعد إلى وجهها تحت بشرتها البرونزية وقالت: من الطبيعي أن لا أحب رؤية رجل يُشنق لجريمة لم يرتكبها.

- من الطبيعي. آه، نعم!

- والشرطة متحيزون ضده لأنه أزعجهم وأغضبهم. هذا أسوأ ما في ديفيد... إنه يحب استعداء الناس.

- الشرطة ليسوا بالتحيز الذي تظنينه يا آنسة مارتشمونت. إن التحيز ضده كان في عقول هيئة المحلفين، فقد رفضوا اتباع إرشادات المحقق، وأصدروا حكماً ضد ديفيد، وهكذا اضطر الشرطة لاعتقاله. ولكن بوسعي أن أخبرك أنهم أبعد ما يكونون عن الاقتناع بالتهمة الموجهة إليه.

قالت بلهفة: ربما أطلقوا سراحه إذن؟

رفع بوارو كتفيه دون أن يجيب، فسألته: من الذي يظنون أنه فعلها يا سيد بوارو؟

أجابها بوارو بتمهل: لقد كانت امرأة في فندق ستاغ في تلك الليلة.

صاحت لين: أنا لا أفهم شيئاً. عندما ظننا أن الرجل كان روبرت أندرهي بدت الأمور كلها بسيطة مفهومة. لماذا قال الميجر بورتر إنه أندرهي إلم يكن كذلك؟ ولماذا أطلق النار على نفسه؟ لقد عدنا الآن إلى حيث بدأنا.

- أنت ثالث شخص يستخدم هذه العبارة!

جفلت لين وقالت: حقاً؟ ما الذي تفعله أنت يا سيد بوارو؟

- أتكلّمُ مع الناس. هذا ما أفعله... مجرد الكلام مع الناس.

- ولكنك لا تطرح عليهم أسئلة حول جريمة القتل؟

وافقه بوارو قائلاً: نعم؛ إنني... كيف أقول ذلك؟ إنني ألتقط الإشاعات فقط.

- وهل يفيد ذلك؟

- أحياناً يفيد. سيدهشك أن تعرفي مقدار ما عرفته عن الحياة اليومية في ورمزلي فيل خلال الأسابيع القليلة الماضية. فأنا أعرف من الذي مشى في اليوم الفلاني، وأين مشى، ومن قابل، وأحياناً ماذا قال الاثنان. إنني أعرف -مثلاً- أن ذلك الرجل، آردن، قد استقل الطريق الترابي إلى القرية مروراً بمنزل فوروبانك وسأل السيد راولي كلود عن الطريق، وأنه كان يحمل حقيبة على الظهر، ولم تكن لديه أمتعة. وأعرف أن روزالين قد قضت أكثر من ساعة في المزرعة مع راولي كلود، وأنها كانت سعيدة هناك على عكس عادتها.

- نعم، لقد أخبرني راولي بذلك، وقال إنها بدت كشخص خرج لقضاء أمسية كإجازة.

- آها! هل قال ذلك؟

سكت بوارو لحظة ثم مضى يقول: نعم، إنني أعرف الكثير مما يجري. وقد سمعت الكثير عن المصاعب التي يمر بها بعض الناس... مصاعبك ومصاعب أمك مثلاً.

- ليس من سر فيما يتعلق بأي منا. لقد حاولنا جميعاً استجداء المال من روزالين؛ أليس هذا ما تعنيه؟

- أنا لم أقل ذلك.

- حسناً، ولكنه صحيح! وأحسب أنك سمعت أشياء عني وعن راولي وديفيد.

- ولكنك ستتزوجين براولي كلود، أليس كذلك؟

- هل سأتزوجه؟ ليتني أعرف. ذلك ما كنتُ أحاول اتخاذ قرار بشأنه في ذلك اليوم... عندما خرج ديفيد فجأة من الأكمة. كان الأمر أشبه بعلامة استفهام كبيرة في عقلي. هل أتزوجه؟ حتى القطار في الوادي بدا وكأنه يطرح نفس السؤال، فقد شكّل دخانُه علامة استفهام رائعة في السماء.

اكتسب وجه بوارو تعبيراً غريباً أساءت لين فهمه فصاحت: آه، ألا ترى يا سيد بوارو أن الأمر كله صعب جداً؟ إنه ليس مسألة ديفيد أبداً. فالعلّةُ فيّ أنا! لقد تغيرت؛ لقد كنتُ في الخارج لثلاث سنوات أو أربع. والآن -وقد عدت- لم أعد الشخص ذاته الذي سافر من هنا. هذه هي المأساة في كل مكان. فالناس يعودون للوطن وقد تغيروا، ويضطرون إلى تكييف أنفسهم من جديد. ليس بوسعك أن تسافر وتحيا حياة مختلفة دون أن تتغير!

- أنت مخطئة. إن مأساة الحياة هي أن الناس لا يتغيرون.

نظرت إليه وهي تهز رأسها نفياً، فأصر قائلاً: نعم، هي كذلك. لماذا سافرت أنت أصلاً؟

- لقد التحقت بسلاح البحرية؛ التحقت بالخدمة العسكرية.

- نعم، نعم. ولكن لماذا التحقت بالبحرية أساساً؟ لقد كنتِ مخطوبةً بقصد الزواج، وكنت تحبين راولي كلود. كان بوسعك أن تعملي هنا فلاّحة في ورمزلي فيل، أليس كذلك؟

- أظن أنه كان بوسعي ذلك، ولكنني أردت...

- لقد أردت أن تسافري، أردت أن تذهبي إلى الخارج وتري الحياة. وربما أردت أن تبتعدي عن راولي كلود! وأنت الآن قلقة لا تهدئين، وما زلت تريدين... الذهاب. آه! كلا يا آنسة؛ إن الناس لا يتغيرون.

صاحت لين مبرِّرة: ولكنني حننتُ إلى الوطن وأنا في المشرق.

- نعم، نعم؛ فالمرء يرغب أن يكون في المكان الذي نأى عنه، فكل بعيد حبيب! وربما بقي أمرك هكذا دوماً. لقد صنعت لنفسك صورة... صورة لين مارتشمونت العائدة إلى وطنها. ولكن الصورة لم تتحقق كما رسمتِها، لأن لين مارتشمونت التي تخيلتِها ليست لين مارتشمونت الحقيقية، بل هي لين مارتشمونت التي تحبين أن تكونيها.

سألت لين بمرارة: إذن فأنا -حسب قولك- لن أقنع أو أرضى في أي مكان؟

- أنا لا أقول ذلك. ولكنني أقول إنك عندما سافرت كنت غير مقتنعة بخطيبك، وأنك الآن -وقد عدت- ما زلت غير مقتنعة بخطيبك.

قطعت لين ورقة شجر ولاكتها وهي تتأمل، ثم قالت: أنت فظيع في معرفة بواطن الأمور، أليس كذلك يا سيد بوارو؟

قال بوارو بتواضع: إنها صنعتي، وأظن أنك لم تدركي -بعدُ- حقيقة أخرى.

قالت لين بحدة: إنك تعني ديفيد، أليس كذلك؟ أنت تظن أنني أحب ديفيد؟

تمتم بوارو بتحفظ: هذا ما تقررينه أنت.

- وأنا... لا أدري! في ديفيد شيء أخشاه، ولكنّ فيه شيئاً يشدني إليه أيضاً.

سكتت لحظات ثم مضت قائلة: كنتُ بالأمس أتحدث مع قائده العسكري السابق، فقد جاء إلى هنا عندما سمع باعتقال ديفيد ليرى إن كان يستطيع فعل شيء. كان يخبرني عن ديفيد، وعن مقدار جرأته الفائقة. قال إن ديفيد كان واحداً من أشجع الرجال الذين عملوا تحت إمرته. ومع ذلك يا سيد بوارو، وبالرغم من كل ما قاله في مدحه، لديّ شعور بأنه لم يكن واثقاً، لم يكن واثقاً تماماً من أن ديفيد لم يرتكب هذه الجريمة!

- وهل أنت غير واثقة من ذلك أيضاً؟

ابتسمت لين ابتسامة ملتوية تكاد تدعو للشفقة وقالت: كلا. أتعرِفُ أنني لم أثق أبداً بديفيد. أيمكنك أن تحب أحداً لا تثق به؟

- مع الأسف، نعم.

- لقد كنتُ دوماً أجور على ديفيد... لأنني لا أثق به. صدقت الكثير من الإشاعات المحلية الدنيئة؛ تلميحات إلى أن ديفيد لم يكن ديفيد هنتر أبداً، بل مجرد عشيق لروزالين. وقد شعرت بالعار عندما قابلتُ قائده العسكري وحدثني عن معرفته بديفيد منذ أن كان صبياً في إيرلندا.

تمتم بوارو: إنه لمن المدهش كيف يمسك الناس العصا من الطرف الخطأ!

- ماذا تعني؟

- أعني ما قلتُه بالضبط. أخبريني، هل اتصلت بك السيدة كلود -وأعني زوجة الطبيب- في الليلة التي وقعت فيها الجريمة؟

- العمة كاثي؟ نعم، اتصلت بي.

- ماذا كانت تريد؟

- تحدثتْ عن مشكلة تواجهها بخصوص بعض الحسابات.

- هل تحدثَتْ من بيتها هي؟

- آه، لا. لقد كان هاتفها معطلاً فاضطرت للخروج إلى كُشك هاتف.

- في الساعة العاشرة وعشر دقائق؟

- تقريباً، فساعاتنا ليست دقيقة أبداً.

قال بوارو متأملاً: "تقريباً!"، ثم مضى قائلاً بلطف: ولم تكن تلك المكالمةَ الوحيدة التي تلقيتِها في تلك الليلة؟

أجابت لين باقتضاب: نعم.

- هل اتصل بك ديفيد هنتر من لندن؟

قالت بصوتٍ علت نبرته: نعم. وأحسبك تريد معرفة ما قاله؟

- آه، أنا -في الحقيقة- لن أدعي...

- سأخبرك بكل ترحيب. لقد قال إنه سيسافر ويخرج من حياتي، وقال إنه لا يصلح لي وإنه لن يستطيع أبداً أن يحيا حياة مستقيمة... ولا حتى من أجلي.

- وبما أن ذلك كان يحتمل الصحة فإن الأمر لا يعجبك.

- أتمنى أن يسافر بعيداً، هذا إذا أطلقوا سراحه تماماً! أتمنى لو سافر الاثنان إلى أمريكا أو غيرها. عندها ربما نستطيع التوقف عن التفكير بهما. سنتعلم كيف نعتمد على أنفسنا فقط، وسنكف عن الشعور بالضغينة.

- الضغينة؟

- نعم. لقد شعرت بها أول مرة في إحدى الليالي عند العمة كاثي. كانت تُقام حفلة، ربما بمناسبة عودتي من الخارج، وأحسست -يومها- بالضغينة تملأ الجو حولنا. الضغينة تجاهها... تجاه روزالين. ألا ترى، لقد كنا نتمنى موتها... كلنا! نتمنى موتها! وهذا أمر فظيع أن نتمنى موت شخص لم يؤذك أبداً.

قال بوارو بنبرة سريعة عملية: إن موتها -بالطبع- هو الأمر الوحيد الذي يمكن أن يفيدكم فعلاً.

- هل تعني أنه يفيدنا مالياً؟ إن مجرد وجودها هنا قد ألحق بنا أذى بكل الطرق التي تشكل أهمية! ليس جيداً للمرء أن يحسد شخصاً، ويحنق عليه، ويستجديه. وها هي الآن وحدها هناك، في فوروبانك. تبدو كشبح، خائفة حتى الموت، تبدو... آه، إنها

تبدو كمن ستفقد عقلها، وهي لا تريد أن تسمح لنا بمساعدتها! لم تقبل مساعدة أي منا. لقد حاولنا جميعاً. طلبت منها أمي أن تأتي وتقيم معنا، ودعتها العمة فرانسيس إلى بيتها أيضاً. وحتى العمة كاثي ذهبت إليها هناك وعرضت عليها أن تبقى معها في فوروبانك. ولكنها لا تريد أية علاقة معنا الآن، وأنا لا ألومها. لم تقبل حتى رؤية الضابط العسكري الذي كان مسؤولاً عن ديفيد. أظن أنها مريضة، مريضة بالقلق والخوف والبؤس. ونحن لا نفعل شيئاً لأنها تمنعنا من أن نفعل أي شيء».

- هل حاولتِ أنت بنفسك؟

- نعم، لقد ذهبتُ إليها هناك بالأمس. قلت لها: "هل من شيء أستطيع فعله لك؟" فنظرت إليّ...

فجأة توقفت لين عن الكلام وارتعدت، ثم مضت تقول: أظنها تكرهني. لقد قالت: "أنتِ؟ أنتِ آخرُ من أقبل منه ذلك"! أظن أن ديفيد طلب منها البقاء في منزل فوروبانك، وهي تفعل دوماً ما يطلبه ديفيد. لقد أخذ راولي لها بيضاً وزبدة من منزله لونغ ويلوز. أظن أنه الوحيد الذي تحبه بيننا، شكرته وقالت له إنه كان لطيفاً معها دوماً. وراولي لطيف حقاً بالطبع.

- يوجد أشخاص يشعر المرء تجاههم بتعاطف عظيم وشفقة عظيمة، أشخاص لديهم من الأعباء ما ينوؤون بحمله. إنني أشعر بشفقة كبرى على روزالين، ولو استطعت لساعدتها. وحتى في هذا الوقت، لو أنها كانت تصغي للنصح...

ثم وقف بحزم مفاجئ وقال: هيا يا آنسة، لنذهب معاً إلى منزل فوروبانك.

- أتريدني أن آتي معك؟

- إن كنت مستعدة لأن تكوني كريمة متفهمة.

صاحت لين: أنا مستعدة؛ مستعدة بالفعل.

* * *

الفصل الثالث عشر

لم يستغرق وصولهما إلى فوروبانك سوى خمس دقائق. كان ممشى الحديقة يلتف صعوداً وحوله مساكب ورد رُتبت بمنتهى العناية. وبدا أن غوردن كلود لم يوفر أي جهد أو مال ليجعل فوروبانك تحفة للناظرين.

بدت الخادمة التي فتحت لهما الباب الأمامي مدهوشة لرؤيتهما يراودها شيء من الشك في إمكانية استقبال السيدة كلود لهما. قالت الخادمة إن السيدة لم تغادر فراشها بعد، ولكنها قادتهما إلى غرفة الجلوس، وصعدت حاملة رسالة بوارو.

نظر بوارو حوله وهو يحاول مقارنة هذه الغرفة بغرفة الجلوس الخاصة بفرانسيس كلود، إذ كانت تلك الغرفة الأخيرة ذات جو حميمي يناسب صاحبتها تماماً. أما غرفة جلوس فوروبانك هذه فقد كانت خالية تماماً من أية لمسة شخصية، لا تشي إلا بالثروة التي لبّتها الذوق الرفيع. وقد حرص غوردن كلود على ذلك كله، فقد كان كل ما في الغرفة ذا نوعية جيدة وقيمة فنية، ولكن لم يكن ثمة أثر للانتقائية، أو مؤشر على الذوق الشخصي لسيدة البيت. وبدا

أن روزالين لم تطبع المكان بشيء من ميزاتها الفردية الخاصة، فقد عاشت في فوروبانك كما يمكن لزائر أجنبي أن يقيم في فندق ريتز أو فندق سافوي.

بدأ بوارو بالتفكير: عجباً، هل الغرف الأخرى...

ولكن لين قطعت تسلسل أفكاره إذ سألته بماذا يفكر، ولماذا يبدو متجهماً على ذلك النحو، قال بوارو: يقال -يا آنسة- إن ثمن الخطيئة هو الموت، ولكن يبدو أن ثمن الخطيئة يكون الترف أحياناً. وإنني لأتساءل إلّم يكن ذلك الثمن أكثر فداحة من الموت؟ أن ينقطع المرء عن حياته الأسرية الخاصة، وأن لا يرى منها إلا لمحة واحدة حيث تكون طريق العودة إليها مغلقة!

ثم توقف عن الكلام؛ إذ دخلت الخادمة راكضة إلى الغرفة وقد ذهب عنها عجبها وزهوها وغدت مجرد امرأة مذعورة في أواسط عمرها، ودخلت تدمدم وتتلعثم بكلمات لا تكاد تستطيع النطق بها: آه يا آنسة مارتشمونت! آه يا سيدي... السيدة، فوق... بحالة سيئة جداً. لا تتكلم، ولا أستطيع إيقاظها، ويدها باردة جداً.

التفت بوارو بحدة وهرع خارج الغرفة تتبعه لين والخادمة. أسرع بالصعود إلى الطابق الأول، وأشارت الخادمة إلى الباب المفتوح الذي يواجه أعلى الدرج.

كانت غرفة النوم كبيرة جميلة يدخلها قدر وفير من أشعة الشمس من خلال النوافذ المفتوحة لتستقر على السجاد الفاتح الجميل، وكانت روزالين تتمدد فوق السرير الضخم المزخرف كما

لو كانت نائمة. كانت رموشها الطويلة السوداء مستقرة على خديها، وقد استدار رأسها بشكل طبيعي على الوسادة، وفي إحدى يديها منديل مكور في قبضتها. بدت أشبه بطفل حزين ما زال يبكي حتى غلبه النوم.

أخذ بوارو يدها وتحسسها فاحصاً نبضها. كانت اليد باردة كالثلج، وقد أنبأه اختباره للنبض بما كان قد خمنه أساساً. قال بهدوء للين: لقد ماتت منذ بعض الوقت، ماتت أثناء نومها.

انفجرت الخادمة باكية تقول: آه يا سيدي! آه! ماذا ستفعل؟

سأل بوارو: مَن كان طبيبها؟

أجابته لين: خالي ليونيل.

قال بوارو للخادمة: اذهبي واتصلي بالدكتور كلود.

خرجت من الغرفة وهي ما تزال تنتحب.

تجول بوارو في أنحاء الغرفة. كان ثمة علبة كرتونية صغيرة قرب السرير لُصقت عليها بطاقة تقول: «حبة واحدة عند النوم». فتح بوارو العلبة مستخدماً منديله فوجد فيها ثلاث حبات باقية. انتقل إلى إطار الموقد، ثم إلى طاولة الكتابة. كان الكرسي أمام الطاولة مدفوعاً إلى الجانب، وعلى الطاولة ورقة خُربشت عليها كلمات كتبت بخط طفولي غير متمرس:

لا أدري ماذا أفعل، لا أستطيع الاستمرار. لقد كنتُ شريرة جداً. ينبغي أن أخبر أحداً وأنال شيئاً من

الطمأنينة... لم أقصد أن أكون شريرة إلى هذا الحد في بداية الأمر؛ لم أعرف ما الذي سينتج عن ذلك الأمر. يجب أن أكتب —

انتهت الكلمات بتلك الشرطة المعترضة، وكان القلم مرمياً حيث تم إلقاؤه. وقف بوارو ينظر إلى تلك الكلمات المكتوبة فيما بقيت لين قرب السرير تنظر إلى الفتاة الميتة. ثم ما لبث الباب أن انفتح بقوة واندفع ديفيد هنتر لاهثاً إلى الغرفة.

صاحت لين وقد أجفلها دخوله وأرادت التقدم إليه: ديفيد، هل أطلقوا سراحك؟ إنني سعيدة جداً...

نحى ديفيد كلماتها جانباً ونحاها هي أيضاً عن طريقه بشيء من الخشونة، ثم انحنى فوق الجسد الشاحب قائلاً: روزا، روزالين!

لمس يدها ثم التفت فجأة إلى لين ووجهه يشتعل غضباً، وهدر بكلمات عالية مقصودة: لقد قتلتموها إذن، أليس كذلك؟ تخلصتم منها أخيراً! وتخلصتم مني؛ أرسلتموني إلى السجن بتهمة ملفقة، وبعدها ائتمرتم جميعاً ونحيتموها عن الطريق! كلكم؟ أم أحدكم فقط؟ لا يهمني! أنت قتلتموها! أنتم أردتم المال القذر... وقد حصلتم عليه الآن! موتها حول المال إليكم! ستخرجون جميعاً من مشكلاتكم، وستكونون أغنياء كلكم... إنكم مجموعة من اللصوص القتلة القذرين! لم تكونوا قادرين على لمسها طالما أنا بجانبها؛ فقد كنت أعرف كيف أحمي أختي، وهي لم تكن أبداً ممن يحسنون حماية أنفسهم. ولكن عندما بقيت وحدها هنا، وجدتم فرصتكم سانحة.

توقف وتأرجح قليلاً وقال بصوت ضعيف مرتجف: قتلة!

صاحت لين: كلا يا ديفيد. كلا؛ أنت مخطئ. ما كان أحد منا ليقتلها... ما كنا لنفعل شيئاً كهذا.

- لقد قتلها أحدكم يا لين مارتشمونت، وأنت تعرفين ذلك كما أعرفه!

- أقسم أننا لم نفعل ذلك يا ديفيد، أقسم أننا لم نرتكب شيئاً من ذلك.

لانت قليلاً نظرته الجامحة الغاضبة وقال: ربما لم تكوني أنت يا لين...

- كلا يا ديفيد، أقسم على ذلك.

تقدم بوارو خطوة وتنحنح إشعاراً بوجوده فالتفت إليه ديفيد.

قال بوارو: أظنك تبالغ قليلاً في درامية افتراضاتك. لماذا قفزت إلى النتيجة القائلة إن أختك قُتلت قتلاً؟

- أتقول إنها لم تقتل؟ هل تُسمي هذا موتاً طبيعياً؟

وأشار إلى الجسد الممدد في السرير، ثم قال: لقد كانت روزالين تعاني من توتر أعصابها، هذا صحيح، ولكن لم تكن بها علة أو ضعف جسدي، وقلبها كان سليماً تماماً.

قال بوارو: ليلة أمس جلست روزالين قبل أن تأوي إلى فراشها لتكتب هنا.

مشى ديفيد وانحنى فوق الورقة المكتوبة، فقال بوارو محذراً: لا تلمسها!

أرجع ديفيد يديه إلى الخلف، وقرأ الكلمات وهو يقف بلا حراك. ثم أدار رأسه بحدة ونظر إلى بوارو متفحصاً وقال: هل تُلمّح إلى إمكانية الانتحار؟ ولماذا تنتحر روزالين؟

ولكن الصوت الذي أجاب على سؤاله لم يكن صوت بوارو، فقد جاء صوت المفوض سبنس هادئاً عبر الباب المفتوح: لنفترض أن السيدة روزالين كلود لم تكن في لندن ليلة الثلاثاء الماضي، بل كانت في ورمزلي فيل؟ ولنفترض أنها ذهبت لرؤية الرجل الذي كان يبتزها؟ ولنفترض أنها قتلته في نوبة عصبية وغضب؟

التفت ديفيد إليه بسرعة وفي عينيه تصميم وغضب وقال: لقد كانت أختي في لندن ليلة الثلاثاء. كانت هناك في الشقة عندما عدت في الساعة الحادية عشرة.

قال سبنس: نعم، هذه قصتك يا سيد هنتر، وأغلب الظن أنك ستتمسك بها. ولكنني لست ملزماً بتصديق تلك القصة. ثم ألا ترى -على أية حال- أن الوقت قد تأخر على هذا الحديث.

ثم أضاف وهو يشير إلى السرير: لم يعد ممكناً الآن إثارة أية قضية في المحكمة.

* * *

الفصل الرابع عشر

جلس سبنس في غرفته في مركز الشرطة، ونظر إلى بوارو أمام مكتبه قائلاً: هو لن يعترف بذلك، ولكني أظن أنه يعرف أن أخته ارتكبت الجريمة. غريب كيف انصب اهتمامنا على حجة غيابه هو عن مسرح الجريمة، وكيف لم نفكر كثيراً بحجة غيابها هي. ومع ذلك، فلا يوجد ما يدعم ويؤكد وجودها في الشقة في لندن في تلك الليلة، وليس لدينا -في هذا الصدد- سوى زعمه هو أنها كانت هناك. لقد كنا نعرف -طوال الوقت- أن شخصين فقط يملكان الدافع للتخلص من آردن، وهما ديفيد وروزالين. وقد أجهدت نفسي في متابعة أمره هو بينما أغفلتها تماماً.

والحقيقة أنها تبدو مخلوقة رقيقة جداً، بل حتى ناقصة العقل، ولكن أظن أن ذلك يفسر -جزئياً- فعلتها. ومن المرجح أن يكون ديفيد هنتر قد استعجل إرسالها إلى لندن لهذا السبب حصراً، إذ ربما كان يدرك بأنها ستفقد أعصابها، وأنها من النوع الذي يصبح خطيراً عندما يفزع ويخاف. والأمر الغريب الآخر هو أنني كثيراً ما كنت أراها تتجول في وشاح برتقالي من الكتان. كان البرتقالي أحد ألوانها المفضلة، فقد كان لديها وشاحات برتقالية، وثوب مقلم

باللون البرتقالي، وقبعة برتقالية. ورغم ذلك كله لم أهتدِ -حتى عندما وصفت العجوز ليدبتر شابة تلف رأسها بوشاح برتقالي- إلى أن تلك الفتاة لا بد أن تكون السيدة كلود نفسها. وبقيت أظن أن لا دور للفتاة في القضية غالباً، وأنها غير مسؤولة عن الجريمة بتاتاً. ويبدو من طريقة وصفك لترددها على الكنيسة أنها كانت قد أوشكت على فقدان عقلها نتيجة الندم والإحساس بالذنب.

قال بوارو: نعم، لقد كانت تحس بالذنب.

قال سبنس متأملاً: لا بد أنها هاجمت آردن في نوبة غضب وعصبية. وأحسب أنه لم يكن يدرك أبداً ما يُراد به، إذ لا يعقل أن يكون حذراً متيقظاً مع فتاة نحيلة رقيقة مثلها.

ثم فكر بصمت للحظات وعاد ليقول: بقي أمر واحد لم يتضح لي تماماً، وهو: من الذي لجأ إلى بورتر؟ ألم تقل أنت إنها لم تكن السيدة جيريمي كلود؟ ومع ذلك أراهنك أنها كانت هي!

- كلا، لم تكن زوجة جيريمي. لقد أكدت لي ذلك وأنا أصدقها. يا إلهي، لقد كنت غبياً في هذا الأمر! كان عليّ أن أعرف من الذي لجأ إلى الميجر؛ فالميجر نفسه أخبرني بذلك!

- أخبرك؟

- آه، بشكل غير مباشر طبعاً، دون أن يدري أنه أخبرني.

- حسناً ومن هو ذلك؟

مال بوارو برأسه قليلاً وقال: أيمكنني أولاً أن أسألك سؤالين؟

بدت الدهشة على المفوض وقال: اسأل ما بدا لك.

- ماذا كانت تلك الحبوب في العلبة قرب سرير روزالين؟

ازدادت دهشة المفوض وقال: آه، تلك؟ كانت حبوباً غير مؤذية أبداً؛ حبوب برومايد لتهدئة الأعصاب. كانت تأخذ حبة كل ليلة، وقد حلّلنا الحبوب بالطبع ووجدناها عادية تماماً.

- من الذي وصف تلك الحبوب؟

- الدكتور كلود.

- متى وصفها؟

- آه، منذ فترة طويلة.

- وما هو السم الذي أدى إلى وفاتها؟

- لم نستلم التقرير بعد، ولكن لا أظن أن في ذلك شكاً كثيراً؛ إنه المورفين، جرعة ضخمة من المورفين.

- هل عُثر على أي مورفين بحوزتها؟

نظر سبنس بفضول إلى بوارو وقال: لا. ما الذي ترمي إليه يا سيد بوارو؟

قال بوارو متهرباً: سأنتقل الآن إلى سؤالي الثاني. لقد أجرى ديفيد هنتر مكالمة هاتفية من لندن مع لين مارتشمونت في الحادية عشرة وخمس دقائق من ليلة الثلاثاء تلك. وقد قلتَ لي إنكم تحريتم أمر المكالمات، فهل كانت تلك المكالمةَ الوحيدةَ التي جرت من

الشقة في لندن، أمِ استقبلت الشقةُ مكالماتٍ أخرى؟

- مكالمة واحدة، في العاشرة والربع. وكانت أيضاً من ورمزلي فيل. وقد تم إجراؤها من كشك هاتف عمومي.

- آه، فهمت.

ثم صمت بوارو للحظات، فقال المفوض: ما الفكرة من ذلك كله يا سيد بوارو؟

- هل تم الرد على تلك المكالمة؟ أعني هل تلقى عامل المقسم جواباً من هاتف الشقة في لندن؟

قال سبنس ببطء: فهمت ما تقصده. إذ لا بد أن يكون في الشقة شخص ما، وذلك لا يمكن أن يكون ديفيد، لأنه كان في القطار عائداً إلى لندن. ولذلك لا بد -كما يبدو- من أن تكون روزالين هي الموجودة في الشقة. وإذا كان الأمر كذلك، فإنها لا يمكن أن تكون في فندق ستاغ قبل ذلك بدقائق. إن ما ترمي إليه -يا سيد بوارو- هو أن الفتاة ذات الشال البرتقالي لم تكن روزالين. وإن كان الأمر كذلك فإن روزالين ليست هي التي قتلت آردن. ولكن لماذا انتحرت إذن؟

- الإجابة عن هذا السؤال بسيطة جداً: روزالين لم تنتحر، بل قُتلت قتلاً.

- ماذا؟!

- لقد قُتلت عن عمد وبدم بارد.

- ولكن من الذي قتل آردن؟ لقد استبعدنا ديفيد.

- لم يكن ديفيد.

- وها أنت الآن تستبعد روزالين؟ ولكننا -إذا ما نحينا جانباً كل الاعتبارات- نجد أن هذين الاثنين هما الوحيدان اللذان يتوفر لديهما دافع القتل!

- نعم، الدافع. إن ذلك هو ما ضلل خطواتنا، فإذا ما كان لدى «أ» دافع لقتل «ب» وكان لدى «ج» دافع لقتل «د» فإن مما لا يفهم أن يعمد «أ» إلى قتل «د»، ويعمد «ج» إلى قتل «ب»، ألا ترى ذلك؟

دمدم سبنس قائلاً: هوِّنها يا سيد بوارو، هوِّنها. إنني لا أفهم ما تعنيه بكل حروفك هذه.

- الأمر معقد، معقد جداً. لأن لدينا هنا نوعين مختلفين من الجرائم، ولذلك فإن لدينا، أو لا بد أن يكون لدينا، قاتلَين مختلفَين. يدخل القاتل الأول، ثم يدخل القاتل الثاني...!!

- أرجوك أن لا تستشهد بشكسبير؛ فهذه ليست مسرحية من العصر الإليزابيثي.

- نعم، ولكن الموقف شكسبيري جداً: فلدينا هنا كل العواطف؛ العواطف الإنسانية التي كان من شأن شكسبير أن يجد لذة كبرى في استخدامها. لدينا حالات الحسد، والكراهية، والأفعال العاطفية السريعة. ولدينا أيضاً هنا الانتهازية الناجحة... وكما يقول شكسبير: «في حياة الناس تيار، إذا استُغل عند المد قاد إلى الحظ والغنى». لقد عمل أحدهم وفقاً لهذا القول أيها المفوض، لينتهز

الفرصة ويحولها لخدمة أغراضه الخاصة. وقد تم تحقيق ذلك بنجاح، وأمام عينيك ونظرك إذا صح التعبير!

فرك سبنس أنفه بانزعاج وقال راجياً: تكلم بالعقل، أرجوك يا سيد بوارو. قل لي ماذا تعني فقط، إن كان ذلك ممكناً.

- سأكون واضحاً معك غاية الوضوح. لدينا هنا ثلاث حالات وفاة، أليس كذلك؟ أنت توافقني على ذلك، أليس كذلك؟ ثلاثة أشخاص ماتوا.

نظر إليه سبنس بفضول وقال: بالتأكيد أوافقك. أرجو أن لا يكون في نيتك أن تجعلني أصدق أن واحداً منهم ما زال حياً؟

- لا، لا؛ إنهم ميتون. ولكن كيف ماتوا؟ أو بتعبير آخر: كيف تستطيع أن تصف موتهم؟

- حسناً، أنت تعرف رأيي فيما يخص ذلك يا سيد بوارو. جريمة قتل واحدة، وحالتا انتحار. ولكنك ترى أن الانتحار الأخير ليس انتحاراً، بل جريمة قتل أخرى.

- أنا أرى أننا أمام حالة انتحار واحدة، وحالة قتل واحدة، وحالة موت نتيجة حادث.

- حادث، هل تعني أن روزالين سممت نفسها بالخطأ؟ أم تعني أن إطلاق الميجر بورتر النار على نفسه كان حادثاً عرضياً؟

- لا. لقد كان الحادث هو وفاة تشارلز تريتن، أو إينوك آردن إن شئت.

انفجر المفوض قائلاً: حادث! حادث؟ أتقول أن جريمة قتل بالغة الوحشية هُشّمت فيها جمجمة رجل بضربات كانت حادثاً!

ودون أن تزحزحه حماسة المفوض رد بوارو بهدوء: عندما أقول إنه حادث فإنني أقصد أن نية القتل لم تكن موجودة.

- لا نية للقتل ورأس الرجل مهشم؟! هل تعني أنه تعرض لهجوم من شخص مجنون؟

- أظن أن ذلك قريب جداً من الحقيقة، ولكن ليس بالمعنى الذي تقصده.

- كانت روزالين الوحيدة المضطربة عقلياً في هذه القضية، لقد رأيتها أحياناً تغدو غريبة الأطوار تماماً. كما أن في زوجة ليونيل كلود شيئاً من الخلل العقلي طبعاً، ولكنها لا تتصرف بعنف أبداً. أما زوجة جيريمي فتمتلك من العقل ما يفوق الجميع. وبالمناسبة هل قلت إن زوجة جيريمي ليست هي من رشا الميجر بورتر؟

- نعم، لم تكن هي، وأنا أعرف من رشاه. وكان الميجر بورتر -كما قلت- هو الذي أفشى ذلك، بعبارة بسيطة صغيرة. آه، لن أغفر لنفسي أبداً عدم انتباهي لتلك الملاحظة وقتها.

- وهل قام قاتلك المجهول المجنون أ ب ج بعد ذلك بقتل روزالين؟

كانت الريبة تزداد في صوت المفوض سبنس.

هز بوارو رأسه نافياً بشدة وقال: أبداً. في هذه النقطة يخرج

القاتل الأول ويدخل القاتل الثاني. هذه جريمة من نوع مختلف تماماً؛ جريمة قتل متعمدة بأعصاب باردة، وأنا أرغب -أيها المفوض- في رؤية قاتلها مشنوقاً جزاء فعلته.

ثم نهض وهو يتكلم وتحرك باتجاه الباب، فصاح به سبنس: انتظر. إلى أين؟ لا بد أن تعطيني بعض الأسماء؛ لا يمكنك ترك الأمر هكذا!

- سأخبرك بعد فترة قصيرة. نعم، ولكنني أنتظر شيئاً. وتوخياً للدقة فإنني أنتظر رسالة من خارج البلاد.

- لا تكلم معي كلام العرّافين! اسمع... بوارو.

ولكن بوارو كان قد انسلّ خارجاً. عَبَرَ الساحة مباشرة وقرع جرس منزل الدكتور كلود. فتحت السيدة كلود الباب وشهقت شهقتها المعتادة لدى رؤية بوارو. قال لها دون أن يضيع وقتاً: سيدتي، أريد أن أتكلم معك.

- آه، بالطبع. تفضل بالدخول. أخشى أنه لم يعد لديّ وقت للتنظيف ولكن...

- أريد أن أسألك سؤالاً: منذ متى أدمن زوجك المورفين؟

انفجرت العمة كاثي باكية على الفور وقالت: أثناء الحرب. كان يُنهك نفسه بشكل فظيع وتنتابه نوبات عصبية رهيبة، ومنذ ذلك الحين وهو يحاول تخفيف الجرعة، وقد خفّفها بالفعل، ولكن هذا ما يجعله سريع الغضب والعصبية أحياناً إلى درجة كبيرة.

- وذلك أحد أسباب حاجته إلى المال، أليس كذلك؟

- أظن هذا. آه، يا عزيزي السيد بوارو! لقد وعد بأن يذهب لتلقي علاج ما.

- اهدئي يا سيدتي وأجيبيني عن سؤال صغير آخر: في الليلة التي اتّصلتِ فيها مع لين مارتشمونت خرجتِ للاتصال من كشك الهاتف المقابل لمكتب البريد، أليس كذلك؟ هل قابلتِ أي شخص في الساحة في تلك الليلة؟

- لا يا سيد بوارو؛ لم يكن في المكان أحد أبداً.

- ولكنني فهمت أنك اضطررت لاقتراض قطعة نقدية للهاتف لأن القطع النقدية لديك لم تكن مناسبة.

- آه، نعم. اضطررت لأن أطلب ذلك من امرأة خرجت من كشك الهاتف، فأعطتني قطعة نقدية مقابل ما يساويها من القطع الصغيرة عندي.

- كيف كان شكل تلك المرأة؟

- كانت مسنّة، إن كنت تفهم قصدي، بوشاح برتقالي حول رأسها. الغريب أنني أكاد أجزم أنني التقيتها من قبل في مكان ما؛ إذ بدا وجهها مألوفاً جداً. لا بد أنها امرأة ممن ماتوا من قبل... ومع ذلك لم أستطع تذكر مكان معرفتي بها أو طبيعة تلك المعرفة.

- شكراً لك يا سيدة كلود.

* * *

الفصل الخامس عشر

خرجت لين من المنزل ونظرت إلى السماء.

كانت الشمس تقترب من الغروب، وقد انحسرت من السماء أشعتها الحمراء، بل كان ثمة بريق ضوء غير طبيعي. كان مساء ساكناً ثقيلاً هادئاً، وتصورت لين أن ذلك الهدوء ستعقبه عاصفة.

حسناً، لقد أزف الوقت الآن، ولم يعد بمقدورها تأجيل الأمور أكثر من ذلك. لا بد لها من الذهاب إلى لونغ ويلوز لتخبر راولي، فهي مدينة له بذلك على الأقل... بأن تخبره بنفسها، ولا تختار الأسلوب الأسهل في كتابة رسالة.

كان عقلها قد اتخذ قراره، وقالت لنفسها إنها اتخذت القرار دون رجعة، ومع ذلك، فقد أحست بتردد غريب. نظرت حولها وفكرت: "إنه الوداع لهذا كله: لعالمي الخاص، وأسلوب حياتي الخاص". ذلك أنها لم تكن تعتريها أية أوهام؛ فالحياة مع ديفيد كانت مغامرة، مغامرة تتساوى فيها فرص الفشل وفرص النجاح. وقد حذرها هو نفسه... حذرها ليلة الجريمة، عبر الهاتف. وحذرها الآن، قبل ساعات قليلة، حيث قال لها: لقد أردتُ أن أخرج من

حياتك. ولقد كنت أحمق إذ تخيلت أن بوسعي أن أتركك خلفي. سنذهب إلى لندن ونتزوج زواجاً عاجلاً. نعم، لن أعطيك فرصة للتردد طويلاً. إن لك جذوراً هنا تشدك إلى هذا المكان، وعليّ أن أنتزعك من جذورك.

ثم أضاف قائلاً: ستطلع راولي على الأمر عندما تصبحين السيدة ديفيد هنتر. المسكين، إنها أفضل طريقة لإطلاعه على الأمر.

ولكنها لم تتفق معه في هذه النقطة الأخيرة، مع أنها لم تقل له ذلك في حينها. كلا... عليها أن تخبر راولي بنفسها. وها هي الآن ذاهبة إليه!

كانت العاصفة قد بدأت لتوها عندما قرعت لين باب منزل لونغ ويلوز. فتح راولي الباب وبدا دَهِشاً لرؤيتها. قال: أهلاً يا لين، لماذا لم تتصلي وتقولي إنك قادمة؟ فربما لم أكن هنا.

- أريد أن أتحدث معك يا راولي.

تنحى جانباً لكي تدخل ثم تبعها إلى المطبخ الواسع. كانت بقايا عشائه على المائدة. قال: إنني أخطط لتركيب طباخ ضخم هنا، فذلك أيسر لك. مع مجلى جديد فولاذي...

قاطعته قائلة: لا تضع خططاً يا راولي.

- ألأن تلك الفتاة المسكينة لم تُدفن بعد؟ أهذا ما تقصدينه؟ أحسب أن الأمر يبدو قاسياً بعض الشيء، ولكني لم أرَ فيها أبداً شخصاً سعيداً بالفعل. أحسب أنها كانت عليلة؛ لم تستطع -قط-

التغلب على تجربة تلك الغارة الجوية الرهيبة. على كل حال هذا حال الدنيا. إنها ميتة الآن في قبرها، ويا للفرق الذي يشكله ذلك بالنسبة لي. أو بالأحرى، لنا نحن الاثنين...

التقطت لين أنفاسها وقالت: كلا يا راولي. لا يوجد الآن شيء اسمه «نحن الاثنان»... هذا ما جئت لأقوله لك.

حدق إليها، فقالت بهدوء (كارهة نفسها ولكنها ثابتة فيما اعتزمته): سأتزوج ديفيد هنتر يا راولي.

لم تكن تعرف تماماً ماذا تتوقع منه: احتجاجات، وربما انفجار غضب... ولكنها -بالتأكيد- لم تتوقع من راولي أن يستقبل هذا الأمر كما استقبله. فقد حدق إليها للحظات، ثم مشى عبر المطبخ ونقر بأصابعه على الفرن، ثم التفت أخيراً إليها بأسلوب يكاد يتسم بالشرود وقال: حسناً، لنفهم الأمر بوضوح. تريدين الزواج بديفيد هنتر. لماذا؟

- لأنني أحبه.

- أنت تحبينني.

- لا. كنت أحبك... عندما سافرتُ من هنا. ولكن مضت على ذلك أربع سنوات، وقد... وقد تغيرت. كلانا تغيرنا.

قال بهدوء: أنت مخطئة؛ أنا لم أتغير.

- حسناً، ربما لا تكون قد تغيرت كثيراً.

- لم أتغير أبداً. لم تكن لدي فرصة كافية لأتغير، فقد اكتفيت

بالكدح هنا. فلست أن من هبط بالمظلات أو تسلق الصخور ليلاً أو لف ذراعه حول عنق رجل في الظلام وطعنه...

- راولي!

- لستُ أنا من ذهب إلى الحرب. لست ممن حاربوا، ولست ممن يعرفون ما هي الحرب! لقد عشت حياة آمنة مطمئنة هنا، في المزرعة. راولي المحظوظ! أما زوجاً لك فلا بد أنني سأخجلك.

- كلا يا راولي، كلا! ليس هذا هو الأمر أبداً.

- ولكنني أقول لك إنه هو.

اقترب منها وقد تجمع الدم في عروق رقبته وبرزت شرايين جبهته. يا لتلك النظرة في عينيه! لقد رأتها مرة عندما مرت أمام ثور في الحقل... يلوي رأسه ويضرب بحافره ويخفض ببطء رأسه وقرونه الهائلة، متحفزاً في غضب مبهم وسخط أعمى.

- اصمتي يا لين، آن لك أنت أن تستمعي إليّ على سبيل التغيير. لقد فاتني ما كان يجب أن أفعله، فاتتني فرصة القتال من أجل بلادي. وقد رأيت أفضل أصدقائي يذهب ويُقتل، ورأيت فتاتي... فتاتي أنا... ترتدي ملابس الجندية وتسافر إلى البلاد البعيدة. وقد كنت مجرد «الرجل الذي تركته خلفها». كانت حياتي جحيماً. ألا تفهمين ذلك يا لين؟ كانت جحيماً! ثم عدتِ بعد ذلك، ومنذ ذلك الحين زاد الجحيم جحيماً. منذ تلك الليلة عند العمة كاثي حين رأيتك تنظرين إلى ديفيد هنتر عبر المائدة. ولكنه لن يأخذك، هل تسمعينني؟ إن لم تكوني لي فإن أحداً لن يأخذك. من تظنينني أكون؟

صاحت لين: راولي...

كانت قد نهضت وأخذت تتراجع خطوة بعد خطوة. كانت مذعورة، فهذا الرجل لم يعد رجلاً، بل أصبح وحشاً كاسراً.

قال راولي كلود: لقد قتلت شخصين، فهل تظنين أن عليّ المضي قدماً لأقتل الثالث؟

- راولي...

كان الآن قد أصبح فوقها واضعاً يديه حول حنجرتها.

- لم أعد أستطيع التحمل يا لين...

أطبقت اليدان حول رقبتها بشدة، دارت الغرفة، الظلام، الظلام الدائر والاختناق... كل شيء يغدو مظلماً. وبعد ذلك، فجأة، سُمع صوتُ نحنحة. صوت سعلة مقتضبة مصطنعة بعض الشيء.

توقف راولي وارتخت يداه متدليتين بجانبه، وسقطت لين بعدما كفّ عنها كومة هامدة على الأرض. وأمام باب المطبخ تماماً وقف هيركيول بوارو يتنحنح كالمعتذر، ثم قال: أرجو أن لا أكون مُزعجاً بتدخلي؟ لقد طرقتُ الباب. نعم؛ بالفعل طرقت الباب، ولكن لم يجبني أحد. أظنك مشغولاً؟

كان الجو مشحوناً بالتوتر. حدق راولي، وبدا للحظة وكأنه قد يقفز بنفسه على هيركيول بوارو، ولكنه التفت مبتعداً في النهاية وقال بصوت باهت فارغ: لقد ظهرتَ... في الوقت المناسب تماماً.

* * *

الفصل السادس عشر

كان الجو ثقيلاً يمور بالخطر فجاء بوارو ليُدخِل عليه جوه الخاص الذي اتصف -عمداً- بالتهدئة وتنفيس التوتر.

تساءل بوارو: الإبريق، أظنه يغلي؟

أجاب راولي بثقل وبغباء: نعم، إنه يغلي.

- ربما تكرمتَ -إذن- بصنع بعض القهوة؟ أو بعض الشاي إن كان ذلك أسهل.

أذعن راولي كرجل آلي. وأخرج بوارو منديلاً ضخماً نظيفاً من جيبه، فغمسه بالماء البارد ثم عصره وجاء إلى لين: هيا يا آنسة. لفي هذا حول عنقك... هكذا، نعم، لديّ دبوس لتثبيته. هاك، سيخفف هذا من الألم فوراً.

شكرته لين بحشرجة خشنة. نظرت إلى مطبخ لونغ ويلوز وبوارو الذي راح يتجول فيه. كان ذلك كله أشبه بكابوس تعيشه. شعرت أنها بأسوأ حال، وكانت حنجرتها تؤلمها بشدة، لكنها تحاملت لتقف على قدميها، وقادها بوارو بهدوء إلى كرسي فأجلسها

عليه وقال: هنا.

ثم التفت إلى الخلف وسأل: أين القهوة؟

قال راولي: "جاهزة"، وجاء بها، فسكب بوارو كوباً وقدمه إلى لين.

قال راولي: اسمعني، لا أظن أنك فهمت الموضوع... لقد حاولتُ خنق لين.

قال بوارو بصوت منزعج: "كفى، كفى". وبدا في قوله وكأنه يستنكر مجرد بادرة من راولي تفتقر إلى الذوق.

قال راولي: أنا أحمل في ضميري عبء وفاتين، ولقد كادت وفاة لين أن تكون الثالثة لو لم تأت أنت.

قال بوارو: دعنا نشرب قهوتنا ولا نتكلم عن الموت، فذلك يؤذي الآنسة لين.

هتف راولي محدّقاً إلى بوارو: يا إلهي!

ارتشفت لين قهوتها بصعوبة. كانت حارة مركزة، وسرعان ما شعرت بألم حنجرتها يخف وبدأ المنبه يأخذ مفعوله. سألها بوارو: هذا أفضل، أليس كذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب، فقال بوارو: حسناً، يمكننا الآن أن نتكلم. وعندما أقول ذلك فأنا أعني أنني أنا الذي سيتكلم.

قال راولي محبطاً: ما هو القدر الذي تعرفه؟ أتعلمُ أنني قتلت

تشارلز ترينتن؟

- نعم؛ لقد عرفتُ ذلك منذ زمن.

فُتح الباب بعنف، وكان القادم ديفيد هنتر الذي صاح: "لين، لم تخبريني أبداً..."، ثم توقف حائراً وعيناه تنتقلان بين الحاضرين، وقال: ما المشكلة في رقبتك؟

قال بوارو مخاطباً راولي: أعطني كوباً آخر.

أخرج راولي كوباً من الخزانة وأعطاه لبوارو الذي ملأه قهوة وقدمه لديفيد. ومرة أخرى كان بوارو سيد الموقف. قال مخاطباً ديفيد: اجلس. ستجلس هنا ونشرب القهوة، وستستمعون -أنتم الثلاثة- إلى هيركيول بوارو وهو يلقي عليكم محاضرة في الإجرام.

ثم أجال بصره فيهم وهز رأسه.

فكرت لين قائلة لنفسها: إنه كابوس خيالي... ليس ما أراه حقيقياً.

بدا أن الثلاثة جميعاً كانوا تحت سيطرة هذا الرجل الضئيل السخيف ذي الشاربين الضخمين. جلسوا هناك جميعاً طائعين: راولي القاتل، ولين الضحية، وديفيد؛ الرجل الذي أحبها. كلهم يحملون أكواب القهوة ويُصغون إلى هذا الرجل الضئيل الذي سيطر عليهم جميعاً بطريقة غريبة. بدأ بوارو كلامه بسؤال بلاغي قائلاً:

ما الذي يسبب الجريمة؟ هذا سؤال مهم. ما هو الحافز المطلوب للجريمة؟ ما هي الطبيعة الخلقية والمزاجية التي ينبغي أن تتوفر حتى

تقع الجريمة؟ وهل كل امرئ قادرٌ على ارتكاب الجريمة، أو ارتكاب جريمة معينة؟ وما الذي يحدث -وهذا ما كنت أطرحه على نفسي منذ البداية- عندما نرى أناساً كانوا محميين من الحياة الواقعية، ومن نَصَبها وكوارثها، وقد حُرِموا فجأة من تلك الحماية؟

إنني أتكلم عن أسرة كلود. ليس بيننا الآن إلا واحد من آل كلود، ولذلك أستطيع التكلم بحرية. لقد أسرتني هذه القضية منذ البداية. فها نحن أمام عائلة حالت ظروفها دون أن تحملها على الاعتماد على نفسها ولو لمرة واحدة، مع أن لكل فرد من أفراد العائلة حياته الخاصة -رجلاً كان أم امرأة- ولكل منهم مهنته، ومع ذلك فإنهم لم يستطيعوا التخلص من ظل الحماية الكريمة. كانوا -دائماً- يُحسّون بالتحرر من الخوف، وعاشوا دوماً في أمن واطمئنان... رغم أنه كان أمناً زائفاً غير طبيعي. كان غوردن كلود يقف هناك دوماً خلفهم.

ما أعنيه هو أن المرء لا يستطيع أن يحكم على الشخصية البشرية حتى يأتي الامتحان. إن غالبيتنا يتعرضون لهذا الامتحان في مراحل مبكرة من حياتهم. والرجل منا سرعان ما تواجهه ضرورة الوقوف على قدميه والاعتماد على ذاته، ومواجهة الأخطار والمصاعب، واختيار أسلوبه الخاص في التعامل معها. ربما كان ذلك الأسلوب مستقيماً وربما كان ملتوياً... ولكن -كائناً ما كان ذلك الأسلوب- فإن المهم هو أن المرء يعرف عادة في وقت مبكر طبيعة معدنه. ولكن الفرصة لم تسنح لأفراد عائلة كلود لمعرفة نقاط ضعفهم حتى أتى الوقت الذي أصبحوا فيه، فجأة، مجردين من الحماية، وأُجبروا دون أي استعداد منهم على مواجهة المصاعب. شيء واحد، شيء

واحد فقط كان يقف حائلاً بينهم وبين استعادة أمنهم، ذلك هو حياة روزالين. إنني واثق تماماً -في قرارة عقلي- بأن كل فرد من أفراد الأسرة قد فكر في وقت ما قائلاً: لو قُدّر لروزالين أن تموت!".

ارتعشت لين. وتوقف بوارو ليترك كلماته تستقر في عقولهم، ثم مضى قائلاً: إن فكرة الموت، وأعني موتها، قد خطرت في ذهن كل منهم... وأنا واثق من ذلك. فهل خطرت أيضاً في ذهن أحدهم فكرة القتل الأبعد مدى؟ وهل مضت الفكرة -في حالة معينة واحدة- أبعد من التفكير لتصبح عملاً؟

ودون تغيير في لهجته استدار بوارو إلى راولي وخاطبه قائلاً: هل فكرت أنت في قتلها؟

- نعم. كان ذلك يوم أن جاءت إلى المزرعة، ولم يكن في المكان سوانا، وفكرت يومها بأنني أستطيع قتلها بكل سهولة. بدت عندها مثيرة للشفقة وجميلة جداً، كتلك العجول الصغيرة التي أرسلها إلى السوق. بوسعك أن تلمس ما تثيره تلك العجول من شفقة، ولكنك ترسلها إلى الذبح رغم ذلك. وتعجبتُ حقاً من أنها لم تكن خائفة، ولو عرفتْ ما يدور في عقلي لخافت... نعم، كانت الفكرة في عقلي عندما أخذتُ القداحة منها لأشعل لفافتها.

- وأحسبُ أنها نسيت القداحة، وهذا يفسر وجودها معك.

هز راولي رأسه موافقاً ثم قال حائراً: لا أدري لماذا لم أقتلها! لقد فكرتُ في الأمر؛ كان بوسع المرء أن يلفق الأمر كحادث أو شيء من هذا القبيل.

- تلك لم تكن جريمة تلائم شخصيتك، هذا هو السبب. إن الرجل الذي قتلته إنما قتلته في نوبة غضب... وأظنك لم تقصد قتله حقاً، أليس كذلك؟

- لا والله لم أقصد. لقد لكمته فوقع إلى الخلف وضُرب رأسه بحافة الموقد الرخامية، ولم أُصدّق الأمر عندما وجدته ميتاً.

ثم نظر إلى بوارو بذعر وقال: كيف عرفت ذلك؟

- أحسب أنني تخيلتُ تصرفاتك بشكل دقيق إلى حد بعيد. صحح لي إن كنت مخطئاً: لقد ذهبتَ إلى فندق ستاغ، وأخبرَتْك بياتريس ليبنكوت عن الحديث الذي سمعَتْه، أليس كذلك؟ بعد ذلك ذهبت -كما قلت أنت- إلى بيت عمك جيريمي كلود لتأخذ رأيه في الموضوع بوصفه محامياً، وعند ذلك وقع أمر ما؛ أمر جعلك تغير رأيك بخصوص التشاور معه. وأظنني أعرف ذلك الشيء. لقد رأيت صورة.

هز راولي رأسه موافقاً وقال: نعم، كانت الصورة على المكتب. وفجأة أدركت الشبه، وأدركت أيضاً لماذا بدا لي وجه الرجل مألوفاً إلى ذلك الحد، وتوصلت إلى أن جيريمي وفرانسيس يستخدمان أحد أقارب فرانسيس ليقوم بمناورة للحصول على المال من روزالين. وقد أغضبني ذلك، فعدت من فوري إلى الفندق وصعدت إلى الغرفة رقم ٥ واتهمت الرجل بأنه محتال، فضحك واعترف بذلك... وقال إن ديفيد هنتر كان في طريقه إليه في تلك الليلة نفسها ومعه المال. وقد غضبتُ تماماً عندما أدركت أن عائلتي أنا كانت تخدعني وتعمل من وراء ظهري كما رأيتُ الأمر وقتها. ولذلك نعتُّه بأنه محتال

وضربته، فوقع كما قلت.

ساد الصمت قليلاً، فقال بوارو: وبعدها؟

قال راولي ببطء: كانت القداحة هي السبب. سقطت من جيبي (وكنت أحملها معي بقصد إعادتها لروزالين). سقطت مني فوق الجثة، فرأيت الأحرف الأولى المحفورة عليها "د.هـ"، وأدركت أن القداحة لديفيد وليست لها.

منذ تلك الحفلة التي أقامتها العمة كاثي أدركت... ولكن لنترك هذا كله جانباً. لقد كنت أظن أحياناً أنني سأجن، بل ربما كنت مجنوناً بعض الشيء بالفعل. جاء أولاً ذهاب جوني، ثم الحرب. إنني... إنني لا أستطيع التحدث عن مشاعري، ولكنني شعرت أحياناً بأن الغضب والحنق يعميانني. وبعد ذلك تأتي لين، وهذا الرجل... سحبت جثة الرجل إلى وسط الغرفة وقلبته على وجهه. ثم أخذت ذلك الملقط الفولاذي الثقيل. ولكن... لن أخوض في تفصيلات ذلك. مسحت آثار البصمات، ونظفت حافة الموقد الرخامية، ثم ضبطت -متعمداً- عقارب الساعة على التاسعة وعشر دقائق وحطمتها على حالتها تلك. أخذت هويته وأوراقه؛ إذ رأيت أن بالإمكان معرفة هويته من هذه الأوراق، ثم خرجت. وقد بدا لي أن القضية ستلبس ديفيد تماماً، خاصة مع شهادة بياتريس عما سمعته.

قال بوارو: وبعدها جئت إليّ. كانت تلك مسرحية فكاهية تماماً مثّلتها عندي إذ طلبت مني العثور على شاهد كان يعرف أندرهي. كان واضحاً لدي -أصلاً- بأن جيريمي كلود قد كرر لعائلته القصة التي رواها الميجر بورتر، ولمدة عامين تقريباً كانت العائلة كلها تعيش

على أمل مُضمَر بإمكانية ظهور أندرهي، حتى لقد أثّرت تلك الأمنية على السيدة ليونيل كلود في استخدامها للوح الكتابة المستخدَم في تحضير الأرواح، وذلك بشكل غير شعوري، ولكن ذلك الحادث كان ذا مغزى كبير.

وهكذا قمت أنا بتأدية «حيلتي السحرية»، وكنت راضياً عن نفسي إذ استطعت انتزاع دهشتك فيما كنتُ -في الواقع- المغفل الأكبر. نعم، وهناك في بيت الميجر بورتر قال لك بعد أن قدم لي لفافة: "أنت لا تدخن، أليس كذلك؟". فكيف عرف أنك لا تدخن؟ يُفترَض أنه لم يقابلك إلا في تلك اللحظة. وأنا المغفل كان علي أن أرى الحقيقة وقتها... حقيقة أنك والميجر بورتر قد قمتما بوضع خطتكما الصغيرة معاً! ولا عجب من عصبيته في ذلك الصباح. نعم، كان عليّ أنا أن أكون المغفل الأكبر، وكان عليّ أنا أن أُحضر الميجر بورتر ليتعرف إلى الجثة. ولكني لا أستمر مغفلاً إلى الأبد، فأنا لست مغفلاً الآن، أليس كذلك؟

أجال بصره فيهم بغضب ثم مضى قائلاً: ولكن الميجر بورتر ندم -بعد ذلك- على تلك الخطة؛ إذ لم يكن يريد أن يصبح شاهداً يؤدي اليمين في قضية قتل، وكانت خطورة القضية على ديفيد تعتمد -إلى حد بعيد- على هوية القتيل. وهكذا تراجع الميجر بورتر.

قال راولي مهموماً: لقد كتب إليّ يقول إنه لن يمضي قدماً في الأمر. يا له من مغفل أحمق! ألم يدرك بأننا تقدمنا بحيث لا يمكننا التوقف؟ ذهبت إليه محاولاً إقناعه، ولكني وصلت متأخراً. كان قد قال إنه يفضل إطلاق النار على نفسه على التورط بشهادة زور عندما

يتعلق الأمر بجريمة قتل. لم يكن الباب الأمامي مقفلاً، فدخلت ووجدته. ليس بوسعي أن أشرح ما شعرت به. شعرت كما لو أنني قتلته مرتين. لو أنه انتظرني فقط... لو أنه أتاح لي أن أتحدث معه!

سأل بوارو: كانت توجد رسالة وأنت أخذتها، أليس كذلك؟

- بلى، فقد كنتُ متورطاً في الأمر، وكنت مستعداً للمضي في الأمر حتى النهاية. كانت الرسالة مكتوبة للمحقق، وقد ذكر فيها ببساطة أنه أدلى بشهادة زور في التحقيق، وأن القتيل لم يكن أندرهي. أخذت الرسالة وأتلفتها.

ثم ضرب راولي بقبضته على الطاولة وقال: كان ذلك أشبه بحلم سيء. كابوس رهيب! فقد بدأت بالأمر وأصبحت مضطراً للمضي فيه. أردت المال حتى أتزوج لين، وأردت لديفيد هنتر أن يشنق. وبعد ذلك... لم أستطع فهم ما يجري، فقد تداعت القضية المرفوعة ضده. قصة ما عن امرأة... امرأة كانت مع آردن بعد ذلك. لم أستطع فهم الأمر، وما زلت لا أفهم. أية امرأة تلك؟ وكيف لامرأة أن تكون هناك وتتحدث مع آردن بعد موته؟

قال بوارو: لم توجد امرأة أبداً.

قالت لين بصوتها المتحشرج: ولكن يا سيد بوارو، تلك العجوز رأتها وسمعتها.

قال بوارو: آها، ولكن ما الذي رأته؟ وما الذي سمعته؟ رأت إنساناً يلبس بنطالاً ومعطفاً صوفياً، ورأت رأساً ملفوفاً تماماً بوشاح برتقالي ووجهاً تغطيه المساحيق وفماً يعلوه أحمر الشفاه. ورأت ذلك

كله في أضواء خافتة. وماذا سمعت؟ لقد رأت «الغانية» تعود لتدخل الغرفة رقم ٥ وسمعت من داخلها صوت رجل يقول: "اخرجي من هنا يا امرأة". حسناً، لقد كان رجلاً ما رأته ورجلاً ما سمعته!

ثم التفت بوارو إلى ديفيد هنتر وأضاف قائلاً: لقد كانت الفكرة عبقرية يا سيد هنتر.

سأل ديفيد بحدة: ماذا تعني؟

- والآن سأحكي قصة لك أنت. لقد جئتَ إلى فندق ستاغ في الساعة التاسعة تقريباً. ولم تأتِ لتقتل بل لتدفع، فماذا وجدت؟ وجدت الرجل الذي كان يبتزّك ممدداً على الأرض مقتولاً بأسلوب وحشي جداً. إن بوسعك أن تفكر بسرعة يا سيد هنتر، وقد أدركتَ -فوراً- أن الخطر محدق بك. لم يكن أحد قد رآك تدخل الفندق وكان أول ما خطر ببالك أن تخرج دون إبطاء وتلحق بقطار التاسعة والثلث عائداً إلى لندن وتحلف أغلظ الأيمان بأنك لم تقترب يومها من ورمزلي فيل. وحتى تلحق بالقطار كانت فرصتك الوحيدة هي الركض عبر البساتين، وفيما أنت تصنع ذلك التقيت -على غير توقع- بالآنسة مارتشمونت، كما أدركت بأنك لن تستطيع اللحاق بالقطار إذ كنتَ قد رأيت دخانه ينطلق في الوادي. وكانت هي أيضاً قد رأت الدخان رغم عدم معرفتك بذلك، ولكنها لم تدرك بوعيها الظاهر أن رؤيتها للدخان إنما تشير إلى أنك لا تستطيع اللحاق بالقطار. وعندما أخبرتَها بأن الساعة كانت التاسعة والربع تقبلت ذلك دون أن يراودها أي شك، وحتى تطبع في ذهنها القناعة بأنك لحقت بالقطار اخترعت خطة عبقرية جداً. كان عليك في الحقيقة أن تضع

خطة جديدة كلياً لتبعد الشكوك عنك. وهكذا عدت إلى فوروبانك فدخلت مستخدماً مفتاحك بكل هدوء. وأخذت أحد وشاحات أختك وأحد أقلام أحمر شفاهها، ومضيت في وضع المساحيق على وجهك بأسلوب مسرحي جداً. بعد ذلك عدت إلى فندق ستاغ في وقت مناسب واستعرضت شخصيتك أمام العجوز التي كانت تجلس في قاعة «للنزلاء فقط»، والتي كانت أطوارها الغريبة مدار الأقاويل في الفندق، ثم صعدت إلى الغرفة رقم ٥، وعندما سمعتها تصعد لتأوي إلى فراشها، خرجت أنت إلى الممر، ثم انسحبت بسرعة لتدخل الغرفة ثانية، ثم قلت بصوت عال: "الأفضل لك أن تخرجي يا امرأة".

توقف بوارو ثم قال معلقاً: أداء عبقري جداً.

صاحت لين: أهذا صحيح يا ديفيد؟ هل هو صحيح؟

دمدم ديفيد قائلاً: لقد كنتُ أرى نفسي مبدعاً في أداء الأدوار النسوية. يا إلهي، كان عليكِ أن تري وجه تلك العجوز التنين!

سألت لين بحيرة: ولكن كيف يمكن أن تكون هنا في الساعة العاشرة ثم تتصل بي من لندن في الحادية عشرة؟

انحنى ديفيد هنتر لبوارو وقال: كل التفسيرات لدى هيركيول بوارو... الرجل الذي يعرف كل شيء. كيف فعلت ذلك؟

قال بوارو: الأمر بسيط جداً؟ اتصلتَ بأختك في الشقة من كشك الهاتف العمومي وأعطيتها بعض التعليمات الدقيقة. في الساعة الحادية عشرة وأربع دقائق بالضبط طلبت أختك مكالمة هاتفية

بعيدة المدى إلى رقم ٣٤ في ورمزلي فيل، وعندما جاءت الآنسة مارتشمونت إلى الهاتف تأكد عامل المقسم من الرقم ثم قال دون شك: «مكالمة من لندن»، أو: «تكلمي يا لندن»، أو شيئاً من هذا القبيل، أليس كذلك؟

هزت لين رأسها بالإيجاب، فمضى بوارو قائلاً: عندها سدت روزالين الخط، وقمتَ أنت -في الوقت المناسب تماماً- بطلب الرقم ٣٤، وعندما فتح الخط قلت بصوت متنكر مختلف: «لندن تريدكم»، ثم تحدثت أنت. إن فترة انقطاع لدقيقة أو دقيقتين ليست أمراً مستغرباً في المكالمات الهاتفية هذه الأيام ولن تنظر إليها الآنسة مارتشمونت إلا كعملية إعادة وصل للخط.

قالت لين بهدوء: من أجل ذلك اتصلت بي -إذن- يا ديفيد؟

شيء ما في صوتها جعل ديفيد يلتفت إليها بحدة، ثم التفت إلى بوارو وقام بحركة استسلام وقال: ما من شك في أنك تعرف حقاً كل شيء! وتوخياً للحقيقة فقد انخلع قلبي رعباً، وكان عليّ التفكير في طريقة ما. وبعد أن اتصلت بلين مشيتُ خمسة أميال إلى محطة دازلي ثم ذهبت إلى لندن من هناك بقطار الصباح الباكر. وصلت إلى الشقة في وقت سمح لي أن أفسد ترتيب سريري وأتناول الإفطار مع روزالين. لم يخطر في بالي أبداً أن الشرطة سيظنون أنها هي التي ارتكبت الجريمة، كما أنني -بالطبع- لم أكن أعرف أبداً مَن الذي قتل الرجل! لم أستطع -ببساطة- أن أتخيل مصلحة لأحد في قتله. فما من أحد أبداً كان يملك الدافع لارتكاب الجريمة -كما كنت أراها- إلا أنا وروزالين.

قال بوارو: وهنا كانت تكمن الصعوبة الكبرى: الدافع! كان لديك أنت وأختك الدافع لقتل آردن، وكان لدى كل فرد من أسرة كلود دافع لقتل روزالين.

قال ديفيد بحدة: إذن فقد قُتلت قتلاً؟ لم يكن الأمر انتحاراً؟

- بالتأكيد، كانت جريمةً أُعِدّ لها وخُطِّط لها بكل عناية. لقد أُخِذَتْ حبوب مُسكّن البرومايد التي تتناولها روزالين، ووُضعت بدلاً منها في قعر العلبة حبة واحدة تحتوي على كمية قاتلة من المورفين.

تجهم ديفيد وقال: في الحبوب؟ لا أظنك تقصد الدكتور ليونيل؟

قال بوارو: آه، لا. في الواقع فإن أياً من أفراد عائلة كلود كان بوسعه -عملياً- أن يدس المورفين. العمة كاثي كان بوسعها العبث بالحبوب قبل أن تخرج الحبوب من الصيدلية، وراولي كان يأخذ الزبدة والبيض لروزالين في فورويانك، والسيدة مارتشمونت ذهبت إلى هناك. وكذلك زوجة جيريمي كلود، وحتى لين مارتشمونت زارت روزالين. وكل واحد من هؤلاء لديه الدافع.

صاح ديفيد: ليس لدى لين دافع.

قالت لين: لدينا جميعاً دوافعنا. أهذا ما تعنيه؟

أجابها بوارو: نعم، وهذا ما جعل القضية صعبة. لقد كان لدى ديفيد هنتر وروزالين دافع لقتل آردن... ولكنهما لم يقتلاه! وأنتم جميعاً -يا معشر كلود- كان لديكم دافع لقتل روزالين، ومع ذلك

لم يقتلها أحد منكم! كانت هذه القضية مقلوبة رأساً على عقب منذ البداية. لقد قُتلت روزالين كلود على يد الشخص الذي يخسر أكبر خسارة بموتها.

ثم أدار رأسه قليلاً وقال: أنت قتلتها يا سيد هنتر!

صاح ديفيد: أنا؟ ولماذا عساي أقتل أختي؟

- **قتلتها لأنها لم تكن أختك!** لقد ماتت روزالين في لندن نتيجة قصف العدو قبل عامين تقريباً. إن المرأة التي قتلتها كانت خادمة أيرلندية شابة اسمها آيلين كوريغن، وقد استلمتُ صورتها من أيرلندا اليوم.

ثم أخرج الصورة من جيبه وهو يتكلم. وبسرعة البرق انتزعها ديفيد منه وقفز إلى الباب ثم قفز منه إلى الخارج وأغلقه خلفه بقوة، فزمجر راولي واندفع خلفه مباشرة.

وهكذا بقي بوارو ولين بمفردهما. صاحت لين: هذا ليس صحيحاً... لا يمكن أن يكون صحيحاً.

- بلى، إنه صحيح. لقد رأيتِ الحقيقة من أحد طرفيها ذات يوم عندما تخيلت أن ديفيد هنتر لم يكن أخاها. انظري إلى الموضوع من منظور مختلف، وسترين أن الأمر كله يتضح تماماً. إن روزالين هذه كانت كاثوليكية بينما لم تكن زوجة أندرهي كاثوليكية، وكانت مُعذَّبة الضمير ومتعلقة بشدة بديفيد. تخيلي مشاعر ديفيد في ليلة الغارة الجوية تلك إذ ماتت أخته وكان غوردن كلود ينازع سكرات الموت... وبدا أن كل تلك الحياة الجديدة برفاهيتها وأموالها ستُنتزع

منه. وفجأة يرى هذه الفتاة: في نفس عمر أخته تقريباً، وهي الناجية الوحيدة باستثنائه هو. وقد أصيبت وفقدت الوعي. لا شك أنه كان على علاقة سابقة بها وكان بوسعه -دون شك- أن يحملها على فعل ما يريد.

ثم أضاف بوارو دون أن ينظر إلى لين التي تورد خداها من عبارته: لقد كان له أسلوب في إغواء النساء! وهو انتهازي استغل فرصة الحظ التي واتته: قدّمها لرجال الإنقاذ باعتبارها أخته، ولما استعادت وعيها وجدته إلى جانب سريرها، فأقنعها بالكلام المعسول حتى قبلت تمثيل ذلك الدور.

ولكن تخيلي الرعب الذي أصابهما عندما استلما أول رسالة ابتزاز. لقد كنتُ أسأل نفسي طوال الوقت: "هل ديفيد هنتر من ذلك النوع الذي يخضع للابتزاز بسهولة؟". كما بدا أيضاً أن ديفيد لم يكن متأكداً عملياً مما إذا كان الرجل الذي يبتزه هو فعلاً روبرت أندرهي أم غيره. ولكن كيف لا يكون متأكداً؟ إن بوسع روزالين أن تخبره فوراً إن كان الرجل زوجها أم لا، فلماذا إذن يستعجل إرسالها إلى لندن قبل أن تتاح لها فرصة إلقاء نظرة واحدة على الرجل؟ لأنه لم يكن لذلك إلا سبب واحد، وهو أنه لا يستطيع المجازفة بالسماح للرجل أن يلمحها ولو مرة واحدة... إذ لم تكن روزالين كلود! ولذلك لم يكن أمامه إلا حل واحد: إعطاء الرجل دفعة تحمله على السكوت، ثم الهرب سراً والسفر إلى أمريكا.

بعد ذلك يُقتل الغريب المبتز على غير توقع، ويشهد الميجر بورتر بأنه أندرهي، ويجد ديفيد هنتر نفسه في وضع لم يشهد أشد

أو أصعب منه في حياته! ومما زاد الأمر سوءاً أن الفتاة نفسها بدأت تتصدع وتنهار، وتنامى لديها تأنيب الضمير، وبدأت تظهر عليها مؤشرات انهيار عصبي وشيك. ولذلك كانت ستعترف عاجلاً أم آجلاً وتروي القصة كلها مما يجعله عرضة للعقوبة الجرمية. وفوق ذلك كله بدأ يرى أن مطالبها وأعباءها أصبحت تزداد صعوبة وتعقيداً. وقد وقع في حبك أنت، ولذلك قرر تقليل خسائره والقضاء على آيلين، فوضع مادة المورفين في إحدى الحبوب التي وصفها لها الدكتور كلود، ثم شجعها على أن تتناول حبة كل يوم، وأوحى لها بالمخاوف من عائلة كلود. ما كان أحد ليشك في ديفيد هنتر طالما أن موت أخته يعني عودة أموالها إلى عائلة كلود. لقد كانت تلك هي ورقة «الجوكر» التي يحملها: غياب الدافع. وكما قلت لك: إن هذه القضية كانت دوماً مقلوبة رأساً على عقب.

فتح الباب ودخل المفوض سبنس، فقال له بوارو بسرعة: حسناً، ماذا وراءك؟

- كل شيء على ما يرام! لقد أمسكناه.

قالت لين بصوت خافت: هل... هل قال شيئاً؟

أجابها المفتش: قال إنه دخل مقامرة ممتعة من أجل المال! غريب كيف يعترفون دوماً في الوقت غير المناسب! لقد حذرناه بالطبع، وسردنا عليه حقوقه، ولكنه قال: "كف عن هذا يا رجل. صحيح أنني مقامر، ولكنني أدرك تماماً متى أكون قد خسرت رهاني الأخير"!

تمتم بوارو: «في حياة الناس تيار، إذا استُغل عند المد، قاد إلى الحظ والغنى...». نعم، المدّ يجرف، ولكنّ مقابل المد جزراً ربما حمل المرء إلى أعماق البحار.

* * *

الفصل السابع عشر

صباحَ يوم الأحد التالي فتح راولي كلود باب بيته استجابة لقرع على الباب ليجد لين تنتظر في الخارج. تراجع خطوة إلى الخلف هاتفاً: لين!

- هل يمكنني الدخول يا راولي؟

تراجع قليلاً إلى الخلف لتمر وتدخل إلى المطبخ. كانت ترتدي قبعة جديدة، ورفعت يديها ببطء فنزعتها ووضعتها فوق حافة النافذة، ثم قالت: لقد عدتُ إلى بيتي يا راولي.

- ماذا تعنين بالله عليك.

- أعني ما قلته تماماً؛ لقد عدت إلى بيتي. هذا بيتي؛ هنا، معك. كنتُ مغفلة إذ لم أدرك ذلك من قبل، إذ لم أدرك انتهاء رحلة تجوالي حين انتهت. ألا تفهمني يا راولي، لقد عدت إلى بيتي!

- أنت لا تدركين ما تقولين يا لين. لقد... لقد حاولت قتلك.

- أعرف ذلك.

ثم عبست ووضعت أصابعها حول عنقها ساخرة، وأضافت: عملياً لم أبدأ بإدراك مقدار الحماقة والبلاهة التي أصابتني إلا عندما حسبتُ أنك قتلتني.

- لا أفهم شيئاً.

- آه، لا تكن أحمق. لقد أردتُ دوماً الزواج بك، أليس كذلك؟ ثم ابتعدتُ أنا قليلاً؛ فقد بدوت لي ذلولاً جداً، خنوعاً جداً، وشعرتُ أن الحياة معك ستكون آمنة جداً، ومملة جداً. وقد تعلّقتُ بديفيد لأنه كان خطيراً وجذاباً، ولأنه -بصراحة- كان يعرف المرأة تمام المعرفة. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن حقيقياً. وعندما أطبقتَ على عنقي وقلتَ إنني إما أن أكون لك أو لا أكون لأحد... عندها أدركتُ بأنني امرأتك! ولكن -لسوء الحظ- بدا الأمر وكأنني كنت سأدرك ذلك بعد فوات الأوان، لولا أن بوارو دخل وأنقذ الموقف لحسن الحظ. وأنا الآن امرأتك يا راولي!

هز راولي رأسه بالرفض وقال: مستحيل يا لين! لقد قتلتُ رجلين... قتلتهما!

صاحت لين: هراء. لا تكن عنيداً ولا تهوّل الأمور. فإذا ما تشاجرتَ مع رجل ضخم الجسم ولكمته فوقع وارتطم رأسه بحافة موقد فإن ذلك لا يعتبر قتلاً. حتى قانوناً لا يعتبر ذلك قتلاً.

- إنه، في لغة القانون، قَتْلٌ دون تصميم، والمرء يسجن بسببه.

- ربما. وإن كان الأمر كذلك فستجدني عند عتبة باب السجن لدى خروجك.

- والميجر بورتر أيضاً... أنا مسؤول أخلاقياً عن وفاته.

- لا، لست مسؤولاً. لقد كان رجلاً راشداً بكامل قواه العقلية، وكان بوسعه أن يرفض عرضك. لا يمكن للمرء أن يلوم الآخرين على أشياء قرر فعلها بملء وعيه وإرادته. لقد اقترحتَ عليه الكذب فوافق ثم تاب واختار إنهاء حياته. لقد كان مجرد شخصية ضعيفة.

هز راولي رأسه بعناد وقال: لا فائدة يا عزيزتي، لا يمكنك الزواج برجل من نزلاء السجون.

- لا أظنك ستسجن، ولو كان الأمر غير ذلك لوجدت شرطياً جاء لطلبك منذ فترة.

حدق راولي إليها وقال: تباً! ماذا عن القتل دون سابق تصميم، ورشوة بورتر...

- وما الذي يجعلك تعتقد أن الشرطة يعرفون شيئاً عن كل ذلك، أو أنهم سيعرفون عنه أي شيء؟

- ذلك الرجل، بوارو، يعرف.

- إنه ليس من الشرطة. سأقول لك ما يظنه الشرطة: إنهم يظنون أن ديفيد هنتر قتل آردن كما قتل روزالين، فهم يعرفون الآن أنه كان في ورمزلي فيل في تلك الليلة. ومع ذلك فإنهم لن يتهموه بتلك التهمة لأنها غير ضرورية، فقتل شخص واحد مسألة كافية للإدانة.

وفوق ذلك، أعتقد أنه لا يمكن اعتقال امرئ مرتين بنفس التهمة. ولكن، طالما أنهم يظنون أنه هو الفاعل فإنهم لن يبحثوا عن أي شيء آخر.

- ولكن ماذا عن ذلك الرجل، بوارو...

- لقد أخبرَ المفوض بأن مقتل آردن كان حادثاً، وفهمتُ بأن المفوض اكتفى بالضحك على تلك النظرية. وإن أردتَ رأيي، فأظن أن بوارو لن يخبر أحداً بشيء. إنه رجل متفهم لطيف.

- كلا يا ليل، ليس بوسعي أن أُعرِّضك لهذه المجازفة. وبغض النظر عن أي اعتبار آخر: هل... هل بوسعي أن أثق بنفسي؟ ما أعنيه هو أن الأمر لن يكون آمناً بالنسبة لك.

- ربما. ولكنك تعرف يا راولي أنني أحبك فعلاً، وقد مررتَ أنت بوقت عصيب جداً، كما أنني لم أهتم كثيراً -في أي وقت- بأن أكون آمنة.

* * *

The End